

كيرلس عاطف

رواية

صندوق الموتى





صندوق الموتى



info@darak-eg.com



٠٢ ٠١٠-٢٤٨٣٢٦٦٩ ٢٧٢٥١٩١٥



١٥ ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.

صندوق الموتى

كيرلس عاطف

تصميم الغلاف: أسامة علام

رقم الإيداع: ٢٣٣٢٦/٢٠١٨



الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٣٤-١٧-٦

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:



www.sekoon.com

كيرلس عاطف

صندوق الموتى

رواية



عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَلاَ أَخَافُ .. مَاذَا يَصْنَعُهُ بِي الإِنْسَانُ

(مز ٥٦:١١)

هذه الحكاية مستوحاة من أحداث حقيقية

كل الأماكن وأسماء الشخصيات بالرواية تم تحريفها احتراماً للشخصيات الحقيقية وخصوصية حياتهم..

كل التواريخ بالرواية حقيقية تماماً

إهداء

طوال فترة كتابتي لهذا العمل وأنا عابئ لأمر الإهداء

حينٌ أنوي كتابة أسماء الكثير من الأشخاص، وحين آخر أنوي عدم إضاعة وقتكم بأسماء أشخاصٍ لا تعرفونهم أو لا تكترثون لهم.. لم أرد لإهداء الرواية أن يكون مبعثرًا أو مجاملًا كغيره..

حتى استقررت على إهداء هذا العمل لروح أبي الروحي ومُعلّمي الأول والأخير

(د/أحمد خالد توفيق)

لحظة سماع خبر وفاتك كانت الأصعب في حياتي.. طالما حلمت بمقابلتك لكنك رحلت سريعًا، لكن حلمي لن يموت.. سأقابلك.. أنا موقنٌ من هذا.

لذلك، اسمح لي بمقابلتك في اليوتوبيا في القريب العاجل

لكني سأضطر للمكوث في ممرّ الفئران –آسفًا– لبعض الوقت



سأنجز فيها بعض المهام التي تجعلني أستحق نول شرف مقابلتك..

سأقابلك أيها الغريب



«تفضل يا سيد (جلال)»

قالتها السكرتيرة الشابة من خلف مكتبها لتُوقظ (جلال) من بحر أفكاره.. بدا عليه الإرهاق المختلط بالنعاس.. أيعقل أن يقبل أحدهم على مقابلة كتلك ويكون بهذا الحال؟!

لا تلُمه أرجوك.. فلم يمر على عودته من السفر سوى بضع سويعات قليلة.. فقد أتى لتوه من مطار القاهرة للعمل بعد سفر ساعتين بالطائرة غير اثنين مشابهين بشوارع القاهرة نفسها.

لم يكن الشهر الذي قضاه في سفره هينًا على الإطلاق.. حيث كان يعمل ليل نهار، حرصًا منه على إتمام المهمة التي أحضرته لهذه البلد قبل فوات موعد إقلاع الطائرة لأرض الوطن.

كان يريد أن يجعل من هذه السفرية، رحلة أحلامه التي لا يفعل فيها شيء غير تناول الخمور ومشاركة الفراش مع الفتيات الجميلات الشقروات.. لكن مدة الأقامة المحددة تلك، حاصرته وكبتت شهواته المنحرفة.. قد يكون (جلال) شابًا أهوج، لكنه ليس أهوجًا لدرجة إضاعة تلك الفرصة التي حارب من أجلها رؤسائه في العمل.. استسلم لأمر الوقت المحدود وعليه بدء العمل.

نهض (جلال) من مقعده الذي لم يطل انتظاره عليه كثيراً.. فرك عينيه الناعستين براحتيه، عدَّل من هندامه، لملم شتات نفسه وحاجياته ثم توجَّه للمكتب لمقابلة رئيسه المباشر بالعمل.. أستاذ (عبد النبي الجعار)؛ رئيس تحرير الجريدة.

كان (جلال) هو الصحفي الوحيد الذي عبث في هذا الأمر.. عندما قرأ عنه مصادفة في أحد مواقع الإنترنت الإعلامية الموثوقة التي يأخذ منها الأخبار لترجمتها أو لسرقتها.. كانت الفكرة تتلألأ أمام بؤبؤتيه كالشهب اللامعة، وقال لنفسه إن من سيجري تحقيقًا صحفيّا كاملاً في هذا الموضوع، سيتم تخليد اسمه بين سجلات وأرشيفات الصحافة للأبد.. بل إن شهرته ستتخطى شهرة (عبد الرحمن الشرقاوي وإحسان عبد القدوس) مجتمعين.

لكن أين هذا الأحمق الذي يلقي بحياته في التهلكة وينغمس في أمرٍ لا يعلم إذا كان سيعود عليه بشيء جديد يرسم الدهشة على وجوه القراء أم سيخرج بنفس النتائج التافهة التي قد تكلفه – حينها– مهنته ومستقبله.

كما أن الرَّبُّ واحدٌ والعمر واحد –كما يقال في الأمثال الشعبية–.



فلدينا أحمق واحد.. وها نحن نرمقه وهو يدخل للمدير في نوعٍ من الحماس بعد اليقظة.

كان إقناعُ المدير أمرًا صعبًا، لكن مع بعض الرونقة وتزيين الآمال المستقبلية في عين المدير (عبد النبي)، وافق على تمويل رحلة (جلال) للخارج على نفقة الجريدة.

لكن (جلال) أحمق كما ذكَرْنَا.. فقد تلعثم أمام المدير بلسانه وأفصح عن رغبته في جعل مدة التحقيق خمسة أشهر

لكن أنت تعلم المديرين كما أعلمهم.. دائماً هم أغنى منك، دائماً همُ ضيِّقو البال، دائماً هم شديدو البخل، دائماً لديهم حمامهم الخاص، دائماً يخصمون من مرتَّبك الشحيح، دائماً هُم أذكى منك، والأهم.. دائماً يكبتون طموحك.

اخلط كل هذه الصفات لتستنتج أن المدير لم يعطِ لصحفينا –الأحمق– غير شهر واحد.. يلملم فيها ما يقدر من تحقيقات وإلا ستكون المحاكم بينهما.

لم يفكر في كسر الفيزا بالطبع.. فليس لديه من المال ما يجعله يكمل حياته هناك.. كما أن بريق الشهرة والمال الذي سيعود عليه عند إتمام التحقيق الصحفي، أعماه وجعل من تحقيقه هو



مهمته الأساسية الأولى، ناهيك عن أن هناك أشخاصًا لا يستطيعون تحقيق شيء إلا بمصر.. بالإضافة إلى أنه –كما ذكرنا من قبل وسنذكرها من جديد– أحمق، لن تمر ساعتان على كسره للفيزا وسيتم القبض عليه وترحيله بشكل مهين.

نحن الآن في مكتب المدير ..أنت تعرف كيف تكون المكاتب الفخمة عندما تراها.. إنه ذلك الطراز الذي يصرخ من كل ركن بمدى ثراء صاحبه.

يجلس (جلال) على طرف المكتب بعد أن صافح المدير (عبد النبي) بحرارة قائلًا:

– لقد حضرت في موعدي كما اتفقنا.

قهقه المدير وهو يغيم الغرفة بسحب رمادية من لفافة تبغه وقال:

– لقد فاجأتني حقًا يا (جلال).. لقد أتممت تحقيقك في الوقت الذي حددته أنا دون إضافة.. كم أنا متفاجئًا!

– سيتحول هذا التفاجؤ لأموالٍ طائلة عندما تقوم بنشر التحقيق ويتسابق عليه القراء.

– لا أنكر أن موضوع التحقيق مثير للاهتمام.. لكني أعتقدك تبالغ في هذا التشبيه.

أخرج (جلال) ملفًا ضخمًا مليئًا بالأوراق من حقيبة سفره ثم وضعه أمام المدير وهو يقول مبتسماً:

– عندما تقرأ ما توصلت له من هذا التحقيق، ستدرك أني لم أبالغ بحرف.. بل إني أعجز عن وصف كمِّ المال والشهرة التي ستتساقط أمام أعيننا.

سعل المدير عندما رأى حجم الملف وقال:

– أتمزح معي يا (جلال).. هذه الأوراق ليست بتحقيق صحفي، بل هي تُذكِّرني بمذكرات الثانوية العامة التي تخزنها ابنتي في مكتبتها.. وحتى إن كان هذا تحقيق صحفيّاً، لا يمكن أن ننشره على حلقاتٍ؛ فبهذا الكم المهول من الأوراق، سنحتاج لمائة عددٍ من الجريدة لإنهاء التحقيق كاملًا.

أجاب (جلال) متجاهلًا تكهنات المدير:

– اقرأ الآن.. ثم نقرر ما نفعله بها عندما تنتهي.

– الآن.. أقرأ هذا كله الآن؟!

– ليس بشرط أن تنهيها الآن.. لكني جئت من المطار لهنا بشكل مُباشر؛ لأني لا أستطيع الانتظار



للصباح لتقرأه.. أريد أن أرى تقييمك ولو على جزء صغير مما كتبته.

أمسك المدير بالملف وفتح الصفحه الأولى –في غيرِ رضا– وبدأ في القراءة بعد أن طلب القهوة من السيكرتيرة عبر الهاتف.. كان (جلال) يطالع المدير بحماسٍ بعد أن تطاير منه النوم وهو يقرأ التحقيق الصحفي الأعظم في حياته.

رأى تلك الشارة المعدنية الصغيرة الموضوعة على مقدمة المكتب ومحفور عليها:

«أ/عبد النبي الجعار.. رئيس تحرير الجريدة»

وعلم أن بفضل هذا التحقيق سيصبح أكثر ثراءً من هذا المنصب.

* * *

الحكاية الأولى

قد تظن أنَّ من هُنا البداية، لكن هذه ليست سوى بداية النهاية

سبتمبر عام ٢٠٠١

شارع سعد زغلول بمدينة الإسكندرية المصرية

الساعة الرابعة ظهراً

ما يميز اليوم عن أي يوم في حياتي؟!

في الواقع لا شيء.. ها أنا أجلس في بازاري المتواضع أراقب حركة البيع وأقوم ببعض اتصالاتي لتنفيذ بعض الصفقات الجديدة أو الإشراف على إتمامها.

ها هو (وائل).. ذلك الصبي العفي الذي تعدى عقده الثاني ببعض سنوات قليلة ولديه استعداد للعمل ليل نهار ليجني المال تأهيلًا لزواجة.

ها هو يقوم بعرض البضائع على الزبائن ويحضر لهم متطلباتهم.

وها هي (إيمان).. تلك الفتاة الناضرة الشقراء التي تصغر (وائل) في العمر ببضعة أعوام، المثابرة التي تشارك (وائل) في حلُمه بالزواج والاستقرار، فها هي وهي تأخذ الأموال من الزبائن وتدسها في خزانة الصرافة بشرف وأمانة.

وها هما يتبادلان الغمزات من الحين للآخر، أو القبلات الهوائية في حين غفلتي.. وكل شيء طبيعي –كالعادة– في البازار لبيع التحف والأنتيكات القديمة.

بازاري ليس بالفخم.. فكما تعلمون التجارة في القطع الفردية لا تجني على صاحبها الكثير من المال – عكس التجارة بالجملة بالطبع – ولهذا عندما تطرق بازاري لتبتاع تمثالاً تذكاريًا أو صندوقًا لحفظ المشغولات الذهبية.. فلا تتوقع أكثر من مجرد بعض الأرفف الموضوع عليها التماثيل والصناديق والقلائد بشكل بمنظم أو بعض الفاترينات التي تحتوي على الكثير من الفازات والمشغولات الخشبية المختلفة بشكل منظم هو الآخر، ناهيك بالطبع عن التماثيل الفرعونية الملونة، وفي الركن الخلفي على اليسار تجد مكتبي الصغير الموضوع فوقة هاتف «ذو بكرة» عتيق، مبعثر عليه الكثير من الورق هنا وهناك في



عشوائية، وبالطبع غير فتات الطعام للوجبات السريعة المنتشرة على سطح المكتب وحوله.

فلذلك أذكِّرك ألا تندهش إذا وجدت بعض البقدونس أو بعض قطع الخبز البلدي على أوراق عملي المهمة، فأنا مُهمِل لأقصى الحدود في أمور التنظيم والنظافة تلك.

حتى رأيت صديقي (مروان) يدلف من الباب كاشفًا عن ابتسامته العريضة حاملاً بعض الصناديق التي يبدو عليها الثقل، نهضت من مكتبي وعانقته في فرحٍ بعد أن وضع تلك الصناديق على الأرض.. قائلًا:

– (مروان) صديقي البدين.. لم أرَك منذ شهرٍ.

– أنت تعرف أني كنت في رحلة عمل أيُّها المتكاسل.

دعوته للجلوس على الكرسي الموضوع أمام مكتبي ليستريح ويأخذ أنفاسه بعد هذا الحِمل الثقيل وطلبت من (وائل) أن يحضر لنا كوبين من القهوة الساخنة.

ظللنا نتحدث عن الصفقات التجارية التي قام بها كلانا طول الشهر المنصرف أثناء مكوثي في بازاري وسفر (مروان) خارج الإسكندرية في رحلة عملٍ..

فمروان لديه بازار لبيع الملابس بنفس الشارع ويمكنكم القول إن مهناتنا متشابهة نوعًا ما؛ لذلك نقوم ببعض الصفقات معًا أحيانًا.. فبجانب تجارتي للتماثيل الفرعونية والحلي، أقدم أيضًا ببازاري بعض الوسائد أو الملابس المطرزة.

فشارع (سعد زغلول) وشارع (النبي دانيال) من أشهر الشوارع التجارية بالإسكندرية كلها، فهما يماثلان شارع (خان الخليلي) بالقاهرة.. ولن أبالغ حين أدعي موازتهم لشارع (الشانزليزيه) الفرنسي.

فقلت له:

– ماذا لديك في هذه الصناديق.. أبِهَا هاتفٌ جديدٌ أم ماذا؟! عليك شراء واحد يا (مروان).. فبالكاد أسمع صوتك عندما أتصل بك في منزلك.

ظل يشرح لي ما بكُل صندوق من قطع فخار للزينة أو مستلزمات أخرى للبازار الخاص به.

حتى حمل أكبر صندوق ووضعه على المكتب وهو يقول بحماس طفوليٍّ:

– أما هذا يا صديقي فهو غرض قديم مثل التي تبيعها هنا.

كان صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم.. فسأل:

– ما رأيك به؟

قلت وأنا أتفحص الصندوق بنظرة الخبير في الأنتيكات:

– يبدو عتيقًا بالفعل.. من أين جئتَ به؟!

– «أنا مالكه منذ ساعتين لا أكثر.. سأحكي لك أين وجدتُه؛ على حدود (محطة الرمل) أثناء قدومي من سفري –كما تعلم–، لمحت لافتة قماشية معلقة على أحد الطوابق ببناية لا أتذكر رقمها، المهم أن تلك اللافتة تعلن عن رغبة مالك الشقة القابعة بذلك الطابق في بيع متعلقاته سعيًا للانتقال بأقرب وقت. فتوقفت لألقي نظرة، فأنت تعلم شغفي بما يمكن أن تحتويه البيوت من أمورٍ مُثيرةٍ، حتى وجدت هذا الصندوق في جولاتي بين معروضات الشقة.. بمجرد أن وقفت أمامه وجدت صاحبة المكان تقول لي: (ما رأيك به؟.. يمكنك أن تأخذه بأي سعرٍ) كانت فتاة شابة جميلة تربط خصلات شعرها بطريقة ذيل الحصان الحزينة تلك.. فسألتها عن ماهية هذا الصندوق، فأجابتني: «إنه يعود لجدتي –رحمها اللّه– وأنا لا أعلم الكثير عنه»؛ فقلت لها بعد أن حملته لأدقق به: «هذه ليست صناعة مصرية!»

فأجابت وهي تهمس: «نعم.. دعني أحكي لك ما أعرفه عن الصندوق أو ما أعرفه عن جدتي بالأحرى، جدتي ولدت في بولندا حيث ترعرعت وتزوجت وكونت عائلة وعاشت هناك، لكن لم يمرّ عام على زواجِها وأرسلت إلى معسكر الاعتقال النازي خلال الحرب العالمية الثانية، وكانت جدتي الناجية الوحيدة من بين عائلتها من المحرقة الشهيرة لليهود، بعد أن نجت من المخيمات النازية بهروبها مع بعض السجناء الآخرين إلى (إسبانيا) حيث عاشت هناك بضعة أعوام ثم هاجرت من جديد إلى (مصر) بعد انتهاء الحرب في عام ١٩٤٥م وهي تحمل معها ذلك الصندوق.. كانت قد تزوّجَت في إسبانيا مرة أخرى بعد موت زوجها الأول في المحرقة وأنجبت أبي هنا في مصر، وكانت الإسكندرية وجهتها الأخيرة في الترحال، كانت مصر من الدول التابعة، لدول الحلفاء –المنتصرة– وقتها، فوجدت جدتي أنها أفضل ملاذ لها لاستقرارها الأمني الحالي دون صراعاتٍ، خاصةً أن الهجرة للولايات المتحدة كانت أمرًا صعبًا وقتها للاحتياطات أمنية وأنشغالها بالحرب الباردة مع السوفيتين بفترة قصيرة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكنها لم تضع في حسبانها حروبها مع إسرائيل –التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية– وتحول اليهود من أثرياء مصر إلى أقلية خائفة من ترحيل رؤسائها لهم أو بطش



أهلها في ثورات غضبهم، غير مفرقين بين اليهود أو الصهاينة، لكن جدتي لم تهجر مصر عالمة بأن نهاية إسرائيل لن تكون في صالحها.. وتكيفت على الوضع حتى لو كنا أقلية لا نتعدى الآن الخمسة آلاف نسمة محدودة أماكن تركزنا في شوارع معينة بالقاهرة والإسكندرية، أما بالنسبة للصندوق، فهي لم تخبر أي أحدٍ عنه أو عن صندوق الخمر كما كانت تسميه.. كانت تضعه في دولاب بغرفتها ولا تفتحه أبداً.. وعندما كنت أسألها ما بداخله، كانت تتوتر وتتصبب عرقًا بطريقة تلقائية وتقول لنا في توجس (إياكم فتح الصندوق) وجود صندوق خشبي بهذا الشكل المريب تراه كلما تفتح دولاب جدتك يجعل الأسئلة دائمًا تشتعل في عقلك من الفضول حوله لكن احترامي لها ولخصوصيتها جعل فضولي ينحصر، وخاصة أني لست بالفتاة الصغيرة البلهاء التي تعبث في خصوصيات الغير، طلبت جدتي دفن هذا الصندوق معها بعد موتها.. لكن هذا مخالف لشعائر الدفن اليهودية؛ لذلك قررت بيعه وكل ممتلكات متعلقات المنزل بعدما قررت الانتقال من هذا البيت».

انتهى أخيرًا من ثرثرته ليرتشف قهوته في نهمٍ، لأسأله بدوري في غباءٍ:

– أنا لم أفهم شيئًا يا (مروان).. متى حصلت الجدة على الصندوق من الأساس؟!

قال وهو يمط شفتيه ويرفع كتفية لأعلى علامة باللامبالاة، واضعًا القدح لمكانه على المكتب:

– هذا ما فكرت به أيضًا ولكن يبدو أنها وجدته في إسبانيا بعد هروبها.. وتخيل أنت أن هذا الصندوق ظلَّ متماسكًا لستة وخمسين عامًا تقريبًا من وقت الحرب العالمية الثانية؛ لذلك وجدتُ أن هذا الصندوق قد يُعد آثارًا، لكني وجدته إرثًا عائليًا أكثر منه كونه آثارًا؛ لذلك عرضت على الفتاة أن تحتفظ هي به كنوعٍ من احترام تاريخ جدتها، لكنها ألحت أن آخذه.

قلت وأنا أدق بأصابعي على الصندوق ليصدر صوت طقطقة عالية غير متماشية مع عمر الصندوق:

– هنيئًا لك يا صديقي.. نوعية الخشب تلك تدل على أنه قديمٌ بالفعل ومتماسك بشكل ممتاز، هل تريد بيعه؟!

قلتها مراوغًا ليردَّ (مروان) باندهاشٍ طبيعيٍّ:

– لقد اشتريته منذ سويعات قليلة فحسب!!

– وما المانع يا صديقي!.. أعلم أنك لست من هواة جمع التحف القديمة على أي حالٍ.



شرد ببعينه لأعلى كما لو أنه يتذكر:

– في الواقع نعم.. تلك الفتاة ألحت عليَّ لأخذه.. أنا حتى لم أفكر في شرائه عندما نظرت إليه.. لكني شعرت بحاجتها الماسة للمال؛ لذلك قمت بشرائه مع بعض الأشياء العادية الأخرى.

صفقت بيدي بمرحٍ وأنا أقول مبتسماً:

– إذاً نحن متفقان.

– مبروك عليك الصندوق أيها التاجر المحتال.

* * *

تركت البازار للقيام ببعض المصالح بعد أن وضعت الصندوق في مخزنه.. فأنا لا أجلس كثيرًا في البازار لانشغالي بالأمور التجارية وأترك إدارته إلى (إيمان) و(وائل) بكل ثقة في نزاهتهما.

أنا لم أذكر لكم المخزن من قبل.. بجوار مكتبي توجد طرقة صغيرة لا يتعدى طولها المتر مؤدية إلى باب خشبي ذي لون داكن يؤدي إلى حجرة المخزن الكبيرة نسبيًا.

ذهبت لصديق لي في منزله لمناقشة بعض الأمور المتعلقة بتكلفة البضائع وكميتها وما إلى ذلك..



أمقت الزيارات المنزلية لكن عملي يجبرني على هذا، فجاءتني مكالمة هاتفية على منزل صديقي من البازار بعد ساعتين من تركي له.. دائمًا ما أخبر (وائل) و(إيمان) عن أماكن تحركاتي ليتصلا بي إذا حدث شيء طارئ، فأنا لا أحمل هاتفًا محمولًا على نقيض الآخرين، فأمور الهواتف المحمولة تلك هي موضة حديثة باهظة الثراء، سأحتاج لبعض الوقت لاتخاذ قرار مصيري كهذا بشراء هاتفٍ بألفين من الجنيهات مع خط اتصالات بنفس الثمن تقريبًا.

فعندما تناولت سماعة الهاتف الأرضي منه على كلمته (المكالمة لك من بازارك)، تواردت الأفكار سريعًا بعقلي حيث تخيلت ما الذي قد يجعل فتاة قوية الشخصية وعلى قدرٍ كبيرٍ من تحمُّل المسؤلية مثل (إيمان) على الاتصال بي.. أو شابًا ذا عصبٍ قويٍّ محنك في حل الأزمات مثل (وائل).. فكلاهما يشكِّلان فريقًا من العقل والعضلات قادرًا على التعامل مع أي نوعٍ من المشكلات بدون الحاجة إليَّ؟

عندما أجبت على الهاتف كنت مهيئًا نفسيًا لسماع مصيبة مثل حريق البازار على أقل تقدير.. فهما يعملان عندي منذ خمس سنوات وهذه هي المرة الأولى التي يتصلان بي فيها، سمعت «إيمان» وهي تصرخ:

– (مراد) انجدنا بسرعة.

قلت وأنا أقف فزعًا:

– ماذا هناك يا (إيمان)؟

– (وائل) سمع صوت أحد المصابيح ينفجر في المخزن.. فنزل ليقوم بتركيب واحد جديد وهو محبوس بالأسفل الآن وكل المصابيح انفجرت و.. و.. انجدني يا (مراد).

وفجأة بدأ صوتها يتغير ويتحول لصوت خشنٍ مزعجٍ صارخًا باسمي.

خرجت مسرعًا من المكان مستقلًا سيارتي لأنطلق بسرعة الريح أسابق بها الزمن للبازار الذي كان يبعد مسافة الربع ساعة عن منزل صديقي.

بهذه الأثناء كان عقلي يصوّر لي أنواعَ الهول التي تودي بهذه الصرخة الأخيرة.

وعندما وصلت، وجدت أن باب البازار مغلقٌ بالفعل فظللت أدفعه عدة مرات بكتفي حتى انكسر مقبضه الخشبي، دخلت من عتمة الليل الخارجية لعتمة البازار ذاته، لكن ما هذه الرائحة الكريهة؟ كانت الرائحة مثل المجاري أو ما هو ألعن بكثير.

بمساعدة أنوار أعمدة الإنارة الخارجية وجدت (إيمان) مكتنفة على نفسها تجلس في زاوية البازار اليسرى من الباب، تضم ركبتيها قدرَ ما استطاعت ليعطيها أكبر قدرٍ من الأمان حتى لو كان كاذبًا ويبدو في عينيها الخوفُ من شيء ما أمامها.

ظللت أنادي باسم (وائل) لكن ما من مجيب وأنا أمسح المكان بناظري، مضيقًا من عيني في محاولة سخيفة باختراق الظلام، فاقتربت منها محاولًا تهدئتها لكنها ظلت تتشنج وكانت تنظر لي برعبٍ كما لو كنت ذئبًا أو ثعبانًا يريد أن يفتك بها، انحينت محاولاً أن أمسك ذراعها وقدمها لأهدئ من تلك الانتفاضات، منبهًا إياها أنه أنا.

ردت بخوف (ابتعدي عني)! صيغة مؤنثة؟! أجُنَّت هذه الفتاة أم ماذا؟!

خدشتني في وجهي بأظافرها.. فسقطت أرضًا والدماء تسيل من خدي وهي تكتنف على نفسها بخوف أكثر وتشنجها يتزايد، حتى بدأت تضرب بيدها على جدران البازار الخشبية القديمة فجعلت التماثيل تهتز على الأرفف بدورها وتبدأ في التساقط بالفعل، كما لو أنها تشاركها في الخوف بعد أن أصيبوا بعدوى الفزع.



نهضت من وقعتي ممسكًا يديها وصفعتها على وجهها قائلًا بملامح تميل إلى الغضب وصحت بها أن تفيق.. هدأ جسدها فجأة وتوقفت عن الحركة كما لو أنها فقدت الوعي، نهضت مسرعًا مُحضِراً زجاجة مياه من أسفل مكتبي مخترقًا تلك العتمة وقمت بإلقاء بضع قطرات على وجهها.

أفاقت وهي تشهق وتسعل.. فانحنيت جالسًا القرفصاء جانبها في محاولة مني لطمأنتها قبل أن تثور من جديدٍ، فظلت هي تستفسر عما حدث وكأنها لم تكنْ واعيةً بما فعلته، حتى إنها سألتني عن سبب الخدش في وجههي، فقلت في صرامة:

– ليس هذا وقته.. أين (وائل)؟!

اتسعت عيناها عن آخرهما وكأنها تذكرت ما حدث ونهضت مهرولة ناحية باب المخزن وهي تصرخ منادية باسم (وائل) لكن هذا الباب كان كسابقه؛ مغلقًا تمامًا.

دفعت الباب بقدمي بضع مرات حتى انكسر أخيراً مقلداً لزميله السابق خاضعًا لضرباتي.. حاولت (إيمان) إنارة المصباح من كابس الكهرباء لكنه لم يعمل، فأحضرت الكشاف الذي نضعه بجوار المخزن

لمثل هذه ظروف.. فالكهرباء دائمًا ما تنقطع عن هذه الغرفة لأسباب تقنية.

فرأينا (وائل) ساقطًا على الأرض وحوله بِركة كبيرة من الدماء تزداد اتساعًا على ضوء المصباح.

سقطت (إيمان) على ركبتيها تولول وتلطم كأي امرأة مصرية في تلك المواقف، أما أنا فأرى هذا المشهد وأكاد أفقد جزءًا من ثبات عقلي.

ماذا حدث هنا؟!

* * *

نفس اليوم

الساعة التاسعة والنصف مساءً

أتى إليّ الضابط بملامح وجهه القاسية الجامدة المزينة بالشارب الكث الذي يعلو شفتين باهتتي اللون من فرط التدخين، وأنا أستند إلى حائط المستشفى ناكسًا رأسي للأسفل في حسرة، ليسألني عن تأكّدي من سلامة القوى العقلية لموظفتي (إيمان)، فتطلعت له بغباء، ليكمل مشيرًا لها:

- تلك الفتاة تقول خرافات.. لو ظلت مصرة على تلك الكلمات سأحوّلها لمشفى الأمراض العقلية.

- هدّئ من روعك أيها الضابط.. إنها في حالة صدمة، لقد رأت للتو خطيبها وهو غارق في دمائه.

قلتها مسرعًا محاولًا كبح جماحه، ليجيبني هو بنوع من الغضب المنفلت بعد فشل محاولتي:

- أتظن أنني لم أتعامل مع حالات مثل تلك من قبل؟ لقد مرّ عليّ عشرات الأشخاص في حالة صدمة ورأوا ما هو أبشع من هذا، ولكن لم يتفوه أي منهم بربع ما تتفوه به هذه الفتاة.. ثم ماذا بشأن الرائحة؟

قالها كما لو أنها برقت برأسه تواً، لأردّ وعلامات الاشمئزاز تظهر على كلينا:

– نعم تلك الرائحة النتنة.. أول مرة أشتمها ببازاري.

– هذه الرائحة –كما ذكر المعمل الجنائي– هي بول قطط.

رددت كلمته الأخيرة في اندهاش كما لو أنني أتأكد مما سمعته، ليسأل بدوره:

– هل لديكم أي قطط في المكان؟

– مستحيل.. أنا و(وائل) كارهان للحيوانات و(إيمان) تخاف من كل الحيوان التي خلقها اللّه.. فدخول أي حيوان لهذا البازار مستحيلٌ.

– الغريب أن الرائحة منتشرة في المكان بلا مصدر مُوحَّد.

خرج الطبيب من حجرة العمليات مقاطعًا حوارنا وكلانا يركض ناحيته بنهمٍ وهو يعلمنا مشيراً بيده أن (وائل) سيعيش لكنه لن يستطيع السير على قدمية بعد الآن.

نظر إليَّ الضابط وقال في حدة متجاهلًا الطبيب:



– انظر إلى هذا.. هناك شاب بريء فقدَ مستقبله وقدميه للتو بعدما نجا بحياته بمعجزة وأنا أريد أن أقبض على الجاني لأجعله يقضي ما تبقَّى من حياته البائسة في السجن جزاء ما فعله، ألا تريد هذا أنت أيضًا؟!

وظلَّ يعيد سؤاله الأخير حاثًا إياي على الإجابة.. أيريد هذا الرجل إدانتي بالقضية أم ماذا.. قلت سريعًا:

– أريد.. لذا دعني أتحدث معها.

سكت لثوانٍ ثم قال:

– حسنًا، لكن في وجودي.

ذهبت إلى (إيمان) باستسلام في آخر ردهة المستشفى التي تم نقل (وائل) إليها وأنا أقول مربتًا على كتفها بأنه سيعيش، لأرى أثر هذه الكلمات السحرية على وجنتيها التي أشرقتا بفرحة، وعزمت الحركة لرؤيته لولا إمساكي بها من ذراعها قائلًا:

– لا تزال الزيارة ممنوعة.. تريَّثي قليلًا.. فأنا والضابط نريد أن نعلم منكِ ما حدث.

قالت بشيء من الغضب:



– لقد أخبرته ثلاث مرات حتى الآن.

– إذاً أخبريني أنا.. فأنا لا زلت أجهل الأمر، لكن أرجوكِ ساعدينا في معاقبة من فعل هذا.

تنهدت قليلًا وبدأت تسرد ما حدث للمرة الرابعة:

– كانت حركة البيع متوقفة نوعًا ما حتى سمع كلانا صوت فرقعة بسيطة في المخزن، ذهب (وائل) لتفقد الأمر وعاد مسرعًا وهو يقول إنه مجرد أحد مصابيح السقف انفجرت من أثر الحرارة والمشكلات الموجودة بتلك الحجرة كالعادة، فأخذ مصباحًا احتياطيًا وتوجه للمخزن لتركيبه.. وبعد ذهابه سمعت شيئًا يُصدم بالأرض بقوة.. أسرعت للمخزن لأجد (وائل) ساقطًا على الأرض.. كدت أتقدم لأساعده لكني رأيت شيئًا أوقف قدمي عن الحركة كما أوقف الدماء عن سريانها في عروقي، رأيت (وائل) وهو يطفو في الهواء.. لم يكن يطفو بالمعنى الحرفي، لكن كما لو أنه هناك شخصٌ خفي يحمله من الأرض، ثم تحرك بعنفٍ ناحية السقف بعد ثوانٍ من طوافه، محطماً باقية المصابيح ثم انغلق الباب في وجهي!! حاولت أن أفتحه لكنه كان عالقًا على غير العادة.. كنت أسمع جسد (وائل) وهو يرتطم بالسقف والأرض والجدران بحركات عنيفة ينبت عنها اهتزازات تهشم تماسكي.. فركضت ناحية باب البازار وأنا أصرخ عازمة



على طلب المساعدة من أي أحدٍ، كانت مصابيح البازار تتحطم مع تحركاتي ناحية الباب.. كما لو أن هناك شيئًا يتبعني، عندما اقتربت للباب انغلق تلقائيًا في وجهي وبالطبع كان عالقًا هو الآخر.. أمسكت بكرسي وحاولت تحطيم العارضة الزجاجية للخروج منها.. لكنها كانت أصلب من الفولاذ، حُبِست في البازار بالمعنى الحرفي.. ظللت أصرخ وأضرب الباب بيدي، ثم أسرعت للهاتف لأطالبك بأن تنجدنا، لكني وجدت يدًا سوداء توضع على عيني من خلف ظهري.. فشهقت شهقةً عالية.. ولا أتذكر شيئًا إلا بعد أن أيقظتَني يا (مراد).

نظر الضابط للأرض بيأسٍ مُشيرًا بأنه الكلام ذاته.. من جديدٍ.

لا أخفيكم سرًا، فما قالته (إيمان) كان غريبًا حقًا.. لا يمكننا القول أنه كلام غير منطقي فحسب.. بل إنه كلام مجانين.

تركنا الضابط نرحل مع وعدٍ من (إيمان) بأن تعلمه بأي شيءٍ جديدٍ تتذكره.

لكن عند باب المستشفى استوقفنا قائلًا:

– ذكرني مجددًا سبب تلك الخدوش على وجهك!

تبادلتُ أنا و(أيمان) النظرات ثم أجبتُه بعد دقيقة من الصمت:

– عندما حاولت تكسير البابين.. تناثرت بضع شظيات خشبية كبيرة نسبيًا حول وجهي أدت لذلك.

نظر الضابط لكلينا في شكٍّ وصمتٍ قاتلٍ، هل هو حقًا يشك فيَّ أو في (إيمان).. قد تكون هذه الأخيرة ذات شخصية قيادية وحازمة، لكنها أرقُّ وأضعفُ من أن تقتل ذبابة.. وعندما تهب عليها روح الأجرام والسيادية.. تقتل خطيبها!

ذلك الشاب الوديع الطيب الراغب في مساعدة الغريب قبل القريب، أعتقد بأنه لو خانها مع غيرها، فلطفه وطيبته سيشفعان له أمامها لتسامحة وتظل معه ومن سنوات عملها هي معي فأنا أؤكد أنها ليست مجنونة.. رغم عدم تصديقي لكلامها.

نطق الضابط أخيرًا مزيلًا القلق عن قلوبنا:

– كونوا حذِرين.. لربما القاتل يسعى خلف أحدكما.

* * *



بعدها بأسبوعين

كل شيء أصبح مستقرًا الآن ولكن –مع الأسف– (وائل) لا يزال محجوزًا في المشفى في حالة إغماء تام.. لكن حتى لو خرج؛ فهو لن يستطيع العمل هنا بعد الآن، ربما دبرت (إيمان) على تبديل الأدوار معه بحيث هو من يمسك الخزانة بلا مجهود وهي من تتولى أمر الزبائن.

لا تزال هذه عقبة؛ أن تجعل شخصًا معاقًا يعمل لديك..

ماذا لو تعرضت الخزانة لعملية سرقة؟! هل سيجدي معه التعاطف إذًا؟

أفهم حاجته للعمل لكن هناك أولويات.. لقد خسرت الكثير من البضائع عندما أسقطتها (إيمان) من على الأرفف ذلك اليوم بالإضافة إلى أموال تصليح البابين والاستعانة بشركة تطهير للتخلص من تلك الرائحة.

كما أني لم أعد أستطيع تحمُّل (إيمان) هي شخصيًا وهي تخشى حتى الاقتراب من المخزن مقتنعة أنه مسكون بالجان لقد ورثت هذا البازار من والدي ولم يتفوه أيُّ أحدٍ بنصف هذا الكلام.



لذلك قررت –آسفًا من جديدٍ– مسايرة (إيمان) وإخبارها أن (وائل) سيعود للعمل بمجرد خروجه.. لكن الحقيقة هي، حتى أجد موظف غيره.

* * *

كنت أجلس في بازاري في ساعة متأخرة من الليل.. أراجع بعض العقود وأقوم بالجرد الاسبوعي للبضائع، سابقًا كنت أفعل هذا صباحًا ولا اضطر للتأخر هكذا في البازار، لكني صباحًا اضطر للعمل تسديدًا لغياب (وائل) عن دوره.

جاء في بالي أمر الصندوق الذي اشتريته من (مروان) وتذكّرت قصته عن رفض الجدة فتح الصندوق لحفيدتها في الواقع، هذه أول مرة يأتي في بالي الصندوق.. فمنذ أن اشتريته وأنا مشغول بقضية (وائل) التي أُيّدت ضد مجهول والاستعانة بشركات الرشّ للتخلص من رائحة بول القطط اللعينة تلك –كما ذكرت– ذهبت نحو المخزن الذي ركبت فيه مصابيح جديدة وظللت أعبث هنا وهناك باحثًا عن الصندوق.. حتى وجدته أخيرًا.

هناك مصباح واحد بين المصابيح الأربعة للمخزن، تنقطع عنه الكهرباء في تذبذبات تبًا.. كم مصباح يجب أن أشتري لهذا المخزن اللعين.

التقطت الصندوق وخرجت واضعًا إياه على مكتبي وأخذت أنظفه

دعوني أصفه لكم.. فهذه هي المرة الأولى التي أدقق فيه هكذا

صندوق خشبي يجمع بين اللونين الأحمر والأسود بحجم صندوق الأحذية الكبير، عليه بعض النقوش المحفورة ببراعة، نوعية خشبه تقول إنه يعود بالفعل لأكثر من خمسين سنة لكن استوقفتني تلك النقوش المحفورة على محيطه لدقائق، هذه لا تبدو كما لو أنها نقوش عادية بل تبدو كما لو أنها حروف مثلًا ربما هذه حروف عِبرية بما أنها تابعة لسيدة يهودية.

من العجيب حقًا أن اليهود لا يزال منهم البعض في مصر!

أتذكر حركة الهياج الشعبي التي قام بها المصريون وقت حرب أكتوبر

لقد كانوا يحرقون محلات اليهود ومخازنهم للترويح عن غضبهم لا أكثر.. غير مدركين حقيقة أن هؤلاء الأشخاص فضلوا وطنهم مصر على دعوة إسرائيل المزعومة لليهود.



فأتذكر محلات (شيكوريل) للملابس الراقية التي تلألأت بالزهرة الحمراء في سكون الليل.. لقد وقعت في براثن الوحش الهائج الذي لا يشبع ولا يرتوي، الذي لا يهدأ قبل أن يهشم كل ما حوله مخلفًا الرفات والهشيم.. لا أتحدث عن النار، بل عن الغضب المصري بالطبع.

فهذا الغضب طال الرئيس (عبد الناصر) بدوره الذي قام بترحيل عدد كبير من اليهود خارج دولته وإسقاط الجنسية المصرية عن كل يهودي خرج منها.. يا لها من أيام.

دعونا نعد للصندوق ويكفينا ذكريات ليوم واحد، حسنًا كيف أفتح هذا الشيء ؟.. لا يوجد مقبض أو موضع لمفتاح أو فاصل في أحد أطرافه.. يبدو أن هذا الشيء صُمّم كي لا يفتح أبدًا، فهززته قليلًا لأسمع أن هناك شيئًا يتحرك فيه، حسنًا.. يبدو أنه كان مفتوحًا من قبل ليتم حشوه بتلك الأشياء التي أجهلها.. يجب أن أعلم كيف يُفتح.

رأيت على جانبه لوحًا متحركًا.. فحرّكته لأسفل ليظهر زالق صغير مختبئ وراءه.. سحبت الزالق للخارج لأجد أن الصندوق فُتِح.. الآن نفتح الصندوق!

إنه لَإحساس فضول رهيب أن أعلم ما بداخله.. أي إنسان إذا وجد أو اشترى شيئًا يعلم أن بداخله

متعلقات غيره، سيزعم على معرفها مهما كان الثمن.. حتى لو اضطر لتدمير الشيء الحاوي لها، بل ستجعل أمر معرفة أمر المتعلقات هو اهتمامك الأول، خاصة أن هذه المتعلقات كانت تخص شخصاً أو ربما أشخاصاً غيرك مختلفين عن في الديانة والبلد والتقاليد.

فضول التطفل على خصوصية الغير هو شيء مرعب حقّاً..

«مراد»

فتحت الصندوق ووجدت التالي:

خصلة شعر صفراء مربوطة برباط، خصلة شعر بنية مربوطة برباط، تمثال رخام لرجل لا أعرف من هو.. مكتوب في قاعدته كلمة أجهلها ولكنها تشبه بقية الكلمات المنقوشة على الصندوق من الخارج، عملات معدنية قديمة من عام ١٩٢٠، كأس خمر صغير من الذهب، شمعدان على شكل قطة سوداء، ورد مُجفَّف، بعض الخيوط المتشابكة مختلفة الألوان، خاتم نحاسي قديم.

«مراد»

أخرجت كل هذه المتعلقات ونظفتها جيداً.. كما نظفت الصندوق من الداخل أيضًا، كانت أغراضاً جيدة وعتيقة.. لكني فكرت في التخلص من الورد المجفَّف والشعر؛ فهذه الاشياء تقبح رونق الصندوق.

يبدو أن هذا الصندوق هو صندوق للذكريات.. لقد سمعت من قبل، أنه في إحدى الحضارات القديمة، كان أهل المتوفي يحتفظون بشيء منه ليذكرهم به بعد رحيله.. وهذا يفسر وجود الشعر والورود المجفف.

لذلك تراجعت عن رأيي وقررت ترك كل شيء كما هو..

«مراد»

ما هذا ؟! لقد سمعت اسمي ينادى منذ قليل ولكنه كان همسًا.. اعتقدت أني أتوهم أو شيئًا من هذا.. أما الآن فالصوت يعلو!

إني لا أتوهم، هناك من ينادي باسمي من.. المخزن!!

نهضت في توتر وتوجس.. قدمٌ تُحركني والأخرى ترجعني

«مراد»

مَن يمكن أن يكون صاحب هذا الصوت الذي يشبه الفحيح

«مراد»

مَن مختبئ في مخزني ويستدرجني إليه

«مراد»

أنا الآن على باب المخزن.. وها أنا أفتح قابس الكهرباء

«مراد»

وبدون مقدمات.. انفجر المصباح بالمخزن وبدأ هاتف البازار يرن على مكتبي في نفس الوقت.

ضحكت في نفسي بعد أن كاد قلبي يتوقف من الخوف وخاصة بعد صرختي الأنثوية الجبانة التي فقدت رجولتها عندما سمعت صوت الهاتف.

لا بُدَّ أنه كان هناك تشتُّت في سير الكهرباء في المصباح –كالعادة– أدت لإصدار صوت تخيلته اسمي وهو ينادي عليه.

ذهبت للهاتف وأجبت إلحاحه:

– بازار (مراد الحسيني) للتحف القديمة.. كيف أساعدك؟

– ما الذي تفعله كل هذا الوقت عندك؟!

إنها أختي الصغيرة العزيزة (نورهان) أجبت عليها:

– اعذريني يا أختي فلديّ عمل كثير هذه الليلة.

– يجب أن تسرع.. إنها تقترب من منتصف الليل وأنت عندك.

حذار أن تكون تعبث بذيلك

قهقهت على هذا المثل الشعبي المبتذل لأجيبها:

– أعلم أعلم.. سأذهب لمنزلي الآن لأني مُرهَقٌ.

– حسنًا.. كنت أطمئن عليك فحسب وأذكّرك بأن تُحضِر الهدية.

– هدية؟!.. أيُّ هدية.

فأجابتني بحدة:



– (مراد الحسيني).. لا تقُل لي إنك نسيت هدية عيد ميلاد أمِّنا.

قلت بحرج محاولًا تحسين صورتي:

– نعم نعم.. الهدية.. موجودة لا تقلقي.

– أنت تكذب يا (مراد).

قلت وأنا أربِّت على الصندوق بعدما سقطت عيني عليه:

– إن الهدية معي الآن لا تقلقي.

– إذا كنت تكذب فتذكَّر أن حفلة عيد مولدها بعد غدٍ، ولن تملك الوقت لشراء واحدة.

– أنا لست في حاجة إلى الوقت.. فقد أحضرتها الآن.

شممت شيئًا أوقفني عن الكلام.

– (مراد).. (مراد).. هل ما تزال على الخط؟

قلت مهرولًا:

– نعم يا (نورهان).. القاقي بعد غدٍ إذًا.

– انتظر يا (مراد).. لماذا صوتك يبدو...

أقفلت الخط دون ان أضغي لكلماتها الأخيرة وأنا أركِّز في الرائحة.

من أين جاءت رائحة الياسمين تلك؟!

* * *

بعد يومين

الساعة العاشرة مساءً..

– لا بُدَّ أنها كانت صفقةً خاسرةً كزواجي.

قالها صديقي وظللنا نضحك معًا، أين أنا؟!.. سؤال بسيط، أنا في... مهلًا.. أين أنا حقًا؟!.. لقد كنت أسير مع صديقي في مكانٍ أعرفه لكني لا أتذكَّره الآن، ولا أستطيع وصف المكان الذي أنا به؛ فمعالمه باهتة متداخلة.

ما هذا الشعور الغريب الذي ينتشر في عروقي؟.. إنه الحيرة ممتزجة بالضياع، لكن على الأقل لدي صديقي أنظر في عينه وأتعمق فيها لتعطيني شعورًا –و لو بسيطًا– بالاطمئنان، نعم إنه هو.. صديقي العزيز (...)

مهلًا! أنا لا أتذكره هو الآخر.. لقد كنت أعرف اسمه منذ دقائق

يجب أن أركِّز على ملامحه.. عليَّ تذكُّر مَن هذا..

بدأ جلده يتشقق وتزدات ترهلاته وتجاعيده كما لو أن السن يجري به تتحول تفاصيل وجهه لملامح وجه أنثوي –هذا لو كان ذكرًا من الأساس– بدا

شعره أبيضَ كثيفًا رغم أن هيشانه كان مصدر كثافته.. يبدو للوهلة الأولى كما لو أنه سيدة عجوز تترك الشيخوخة بصمة قوية على وجهها ولكن ليس هذا ما أراه.. هذا شيء شرير.. فتحت فمها عن آخره ليظهر سواد.. فقط سواد..

وبدأ صوت الهاتف يخرج من فمها!!

* * *

استيقظت وأنا أشهق مبسملًا وأرتجف.. تبًا لذلك الكابوس المتكرر واختلاطه بالواقع.. ألن أتخلص منك أبدًا أم ماذا؟!

جلست على الفراش وأنا أبتلع ريقي وأفرك عيني براحتي، التقطت سماعة الهاتف الأرضي الموضوع جانب الفراش وأجبت:

– (مراد الحسيني).

– (مراد).. تعال حالًا.

كانت (نورهان) وهي تبكي.. فأجبت وأنا أعتدل في جلستي على الفراش أكثر، قائلًا بهلع:

– ماذا هناك يا (نورهان) ؟!



– أمي نقلت للمستشفى!!

* * *

ركضت كما لم أركض من قبل.. تعثرت وأنا أهرول كالمجانين عشرات المرات لكني كنت أتحامل على نفسي وعلى الجروح التي تستقبلها ركبتي للتو لتحرق مفصلي، ثم أنهض معاوداً العدو من جديدٍ.. المستشفى ليس بعيداً عن منزلي، لذلك ظللتُ أركض في الشارع مرتديًا ملابس النوم كالمجاذيب.. فلم يكن لدي الوقت الكافي للذهاب لإخراج سيارتي من الجراش.

وصلت المستشفى أخيرًا فسألت عن اسم أمي في الاستقبال وعلمت أنها في الدور الثاني بعد أن استفسرت عن رقم الغرفة القابعة بها.

وعندما صعدت وجدت أخي الصغير (تميم) وأختي (نورهان) في الممر واقفين أمام إحدى الغرف، لا يختلفان عني في الملابس المنزلية غير المهندمة.

اقتحمت صمتهما وأنا أقول لاهثًا من أثر العدو مستفسرًا عما حدث، ليجيبني أخي بتوتر:

– فقدَتْ أمي الوعي فنقلتها (نورهان) إلى هنا.

فعاودت أسأل والدهشة ترتسم بوضوح على قسمات وجهي اللاهث:

– ماذا؟!.. كيف .. لقد كانت معنا منذ أقل من ساعتين ونحن نحتفل بعيد مولدها وكانت بأفضل حال.

– أعلم وهذا ما يشعل النار في رأسي.. لم يبدُ عليها أي شيء.

فوجهت حديثي لأختي سائلًا عن كيفية حدوث هذا، لتجيبني وهي تحاول كبت دموعها:

– لا أعلم، بعد أن احتفلنا بعيد مولدها في المطعم البحري ورحلت لمنزلك ورحل (تميم) مع زوجته لمنزله.. أخذتها وعدنا لمنزلنا. كانت مُرهَقة وقررت النوم لكني ظللت أتابع التلفاز قليلًا، وبعد أقل من نصف ساعة أطفأته متثائبة لأخلد للنوم بدوري أنا الأخرى.

لكني ذهبت لأطمئن عليها في غرفتها فوجتها ساقطة على الأرض بلا حركة!

– هكذا الأمر!.. بهذه البساطة!

قلتها في تعجب ليندفع (تميم) للحوار في قلة صبرٍ:

– هل يمكنك أن تسكت قليلاً.. نحن في انتظار الأطباء.. ماذا تريد أيضًا؟

وصلت لأنفي تلك الرائحة فوجهت حديثي لأختى مردفًا:

– هل رائحتك يا (نورهان) رائحة الياسمين؟!

لتردِّد كلمة (الياسمين) في حيرة.

خرج الطبيب من الغرفة فركضنا عليه بتلقائية، ليقول كلمته المعهودة بأنها بخير وهو ينتزع سماعاته الطبية من أذنيه، ليبادرنا (تميم) السؤالَ عن مصابها، ليجيبنا الطبيب: «السكتة دماغية».

كلُّ مُنّا عبّر عن دهشته بطريقته الخاصة؛ فمِنّا مَن شهق عائداً بضع خطوات للخلف في انفعالٍ، وهناك من لطم فمه في صدمة وبالتأكيد هناك من خبط على صدره، لكننا اتفقنا أن نصيح في نفس مذعور واحد: (ماذا؟!)

فبادرت أنا السؤال للطبيب هذه المرة عن السبب حول تلك السكتة الدماغية، ليجيب الطبيب بنوع

من الحرج عن جهله للأمر رغم معدلات السكر والضغط الطبيعية التي لا تؤدي لمثل هذه الحالة.

فسألت (نورهان) والدموع تلمع في عينيها بعد أن عجزت عن كبتها لأكثر من هذا عن حالها الآن، ليجيب الطبيب بنوع من المزاح السمج:

– دعوني أقول إن والدتكم واحد من شيئين إما ساحرة إما متدينة بشكلٍ كبيرٍ.. فنجاتها هكذا من السكتة لهي معجزة من اللّه.

ليهتف ثلاثتنا من جديد (حمداً للّه)، في حين أني كنت ألعنه في سري على استهتاره بالأمر.. لينهي الطبيب الحوار قائلًا بنوع من الختام:

– لقد فاقت الآن ولكنها غير قادرة على الكلام بعد.. ستجدون آثارًا للسكتة الدماغية عليها مثل بعض التنميل في الأطراف وشلل الوجه لكن كل هذا سيزول مع الوقت.

أخرج ورقة من معطفه الطبي المميز وهو يقول كما لو أنه تذكر شيئًا، ليعلمنا أنها كتبت هذه الكلمات لنا، فتطلعنا بالورقة بحركة آلية، لنقرأ المكتوب فيها بخط متعرج مهتز.. (أحضِروا (مراد))



في الواقع لا أعلم لمَ تريدني أنا بالذات.. ولكنها أمي ويجب أن أطمئن عليها في كل الأحوال وخاصة أني ابنها الأكبر.

تقدمنا جميعًا للدخول.. لكن الطبيب استوقفنا معللًا، بأن حالتها ليست مستقرة بعد ولن تستطيع تحمُّل ثلاثتنا، فيكفي أنا كما طلبت في ورقتها، في حين يمكننا زيارتها غداً عندما يتأكدون أنها أصبحت بحالٍ أحسن.

دلفت للغرفة وأنا أهز رأسي لهم بمعنى أني سأطمئنهم عليها وأبلغها سلامكم، لأجد أمي جالسة على الفراش وهي ممدة رأسها على الوسادة لتجعل من جلستها مريحة وثابتة.. جلست على كرسيٍّ بلاستيكي جانبها.

كنت أدقق في عينيها، فكانتا جامدتين تحدقان بالسقف، لم تنتبه لدخولي حتى وكانت ملامح وجهها جامدة شاردة لا أثر للحياة بها.. لا علامات ضجر أو تعب أو حتى مقت.. تنحنحت لأنبِّهها لوجودي، طالبًا منها أن تطمئني على حالها.. فجأة وبدون مقدمات نظرَتْ لي.. لقد فاجأتني حركتُها بدورانها لرأسها بهذه السرعة، التقطت القلم والمفكرة الصغيرة من على الكومود بجانبها لتكتب كلمتين ثم قطعت الورقة من المفكرة معطية إياها لي.



(هدية كريمة).. هذا ما كتبتُه

قلت مقهقهًا في ودٍّ:

– ههههه.. أهذا ما يشغل بالك.. أعدك يا أمي عندما تعودين لمنزلك سالمة آمنة سأحضر لكِ أغلى وأجمل هدية في العالم..

فتحت عينيها عن آخرهما وهي تنظر خلفي وكأن يوجد شيء أو شخص ورائي نظرت للخلف لأجد أنه لا يوجد شيء خلفي! ..لكن فجأة بعد عدة ثوانٍ وجدت يدًا تقبض على ساعدي الأيمن.. كانت يد أمي، عدت لها بناظري طالبًا منها في تألم أن تفلت يدي، متعجبًا من هذه القوة المفاجئة.

وجدتها تضع ورقة أمام وجهي بيدها المرتجفة الأخرى مكتوب عليها (خذها منزلي من الآن).. لمَ تكتب الكلمات بهذا الشكل المتخبط، فأمي امرأة متعلمة تجيد القراءة والكتابة بطلاقة على نقيض الأمهات اللواتي في مثل عمرها، لكني لم أجد الوقت للتفكير بهذا، حيث كانت قبضتها تزداد ضغطًا على يدي.. فأجبتها مسرعًا وأنا فاقد لتركيزي وكل رغبتي هو أن تفلتني فحسب بأني سآخذ الصندق.. أفلتت يدي أخيرًا وعادت لحالتها الأولى البريئة عندما دخلت عليها.. كما لو أنها في عالم من الشرود اللا متناهي

خرجت من الغرفة عازمًا على استرجاع الصندوق.. في الواقع، أنا لا أعرف علاقة الصندوق بسكتة أمي الدماغية بتلك القوى التي ضربت جسدها لتقبض بها على يدي هكذا، كادت أن تفصلها من موضعها.. لكنها رغبتها على أي حال ويجب عليَّ تنفيذها، لكن هناك رائحة قادمة من ساعدي مكان ما أمسكتني أمي.. أهذه رائحة الياسمين من جديد؟!

* * *

بعد شهرين

يناير ٢٠٠٢

– ها نحن ذا..

قلتها وأنا أقدم إلى (مروان) كوب الشاي بمنزلي في غرفة مكتبي تحديداً.

تتذكرون (مروان) أليس كذلك؟.. نعم إنه صديقي تاجر الملابس..

أتى إليَّ في زيارة صغيرة لمناقشة بعض الأمور المتعلقة بالعمل، فشكرني وراح يسألني بعد أن أمسك فنجان الشاي وسكب منه القليل في جوفه على هيئة بضع رشفات.

– هل لديك أحدٌ في المنزل أو حيوانٌ أليف ربما؟

قلت وأنا أتخذ مجلسي المعهود خلف مكتبي:

– أنت تعلم موقفي من الحيوانات.. ثم أنت زائري الأول منذ أسبوعٍ.

– عجيب!



– ولمَ العجب؟!

– خُيِّل لي أني رأيت ظِل شخصٍ يتحرك هنا.

– لا بُدَّ أنها الإضاءة الضعيفة، تجعلك تتوهم حركاتٍ غير موجودة.

– ربما.

تحركت من مجلسي ناحية القابس الكهربي لأشعل المزيد من المصابيح لتضيف بعض الضوء للمكان، لتبديد شكواه

ليسألني (مروان) متذكراً:

– أفكرت بأمر صفقة لبنان؟

– أجل ورأيي كما هو.. لست بحاجة إليها.

– توقف عن هذا التكبر ودعنا نقدم عليها، المكسب بها مضمون وستعود علينا بالكثير من الأرباح.

– أنا لا أفقه شيئًا بهذا النوع من السلع وأكره أن أكون كالأحمق ملقيًا العمل بأكمله على عاتقك.



– حسنًا كما تشاء.. لكن تذكّر أن عرض التاجر سار بدون مهلة، وأحتاج لك لتشاركني بالمال لأني لن أقدر عليه وحدي.

أجبته مداعبًا وأنا أجلس خلف مكتبي:

– لتجد شريكًا آخر إذا أيها العجوز.

ليرد ضاحكًا:

– ليقتلني ويسرق شقاء عمري، لن أتمنى أحدًا على هذه الصفقة وهذه الأموال غيرك؛ لذلك إن لم تشاركني بالصفقة فلن أُقدِم عليها بدوري.

ارتشف أنا الآخر من فنجان الشاي الخاص بي ثم قلت في حماسٍ، مُغيِّرًا الموضوع:

– انظر لما وجدت يا صديقي.

عدلت شاشة الحاسوب الموضوعة على مكتبي ليتمكن من رؤيتها على الجانب الآخر من المكتب وأنا أقول حاملاً ورقة بيدي عن المكتب ومشيرًا إلى الشاشة بيدي الأخرى:

– اترى تلك الأحرف.. إنها متشابهة تمامًا.

دقق (مروان) النظر بعد أن أخرج عويناته الطبية السميكة من جيب معطف حلته ليقول بالنهاية:

– ليس تمامًا.. لكن ما هذه الأحرف على أي حال؟

– هذه الاحرف تعني كلمة (شالوم) وهي مرحبًا بالعِبرية.

حرَّك يديه لأعلى في علامة على عدم الاهتمام أو الفهم، قلت في غضبٍ مستنكرًا من قلة فهمه:

– ثم ماذا؟!.. هذه هي الكلمة الموجودة على التمثال الرخامي الذي وجدته داخل الصندوق.

عجيبة هي النَّفسُ البشرية.. فبعد شهرٍ من المراجعة والبحث في أصول الكلمات العِبرية على شبكات الإنترنت المصرية البطيئة حتى استطعت أخيرًا أن أشابه بين الأحرف الموجودة بالصور والأحرف الموجودة في قاعدة التمثال لأخرج بهذا الاستنتاج المرهق.. ثم أتوقع منه أن يستنتجه هو في أقل من ثلاث ثوان بمجرد أن أريه النتيجة، إنه نوع من التباهي الكاذب بالعبقرية.

قال (مروان) ببلاهة:

– أي صندوق؟!

– ذلك الصندوق الخشبي الذي اشتريته منك منذ شهرين.

الذي يعود للجدة اليهودية.

– نعم نعم تذكرته.. أفتحتَهُ؟!

قالها وهو غير مصدق أني فعلتها، كما لو أني أقبلت على جُرمٍ شنيعٍ.

– نعم بالطبع.

– لو كنت مكانك لتغاضيت عن الأمر، لكل إرثٍ عائلي له احترامه مهما كان مغريًا للعبث به.

صمت هنيهة ثم قال ثم سألني عما وجدت به، ابتسمت في سخرية على مقولتيه المتناقضتين المتوازيتين، ثم أجبته:

– بعض الأشياء العائلية كما تقول من خصلات شعر وعملات قديمة، لكن هذه الأحرف كانت على قاعدة تمثال وجدته بداخلها.

– حسنًا ماذا استفدت الآن بعد أن علمت الكلمة؟!

– في الواقع لا شيء.. كنت متصورًا أني سأجد اسم صاحب التمثال وبالتالي اسم صاحب الصندوق لأقدِّر

قيمته الأصلية.

لكن على كل حالٍ لن أحاول البحث عن حروف عبرية مرة أخرى.. فقد أجهدتني الأمر جداً على لا شيء.

– هل لا يزال الصندوق معك؟!

– لا.. أهديته لأمي في البداية ولكنها لم ترغب في الاحتفاظ به.. ومنذ دخولها المستشفى وأنا قد أوصيت أخي الأصغر (تميم) بأخذه معه لبيته ذلك اليوم حتى أخذه منه باليوم التالي، لأن يومها لم يكن معي سيارتي لأخذ الصندوق من منزل أمي لمنزلي.. لكن انشغلت ببعض الأمور ناسيًا أمر الصندوق وأخي لم يذكرني طالبًا مني أخذه.

ابتسم ليقول مداعبًا:

– يبدو انه قد أعجب به.

– يبدو ذلك بالفعل أو ربما نسي أمره هو الآخر، فما مررنا به وقتها ينسيك عنوان منزلك لا الصندوق فحسب

ظهرت على وجهه علامات الحزن الصادق، جليًّا ليوضح تعازيه عن مصاب والدتي ويسألني إن كانت قد خرجت من المشفى أم لا، فشاركته بدوري في



علامات العبوس على وجهي كالعدوى قبل أن أجيبه:

– نعم.. لكنها لا تبارح الفراش أبدًا، لكن أختي تحاول توفير كافة احتياجاتها.

– وماذا بشأن الصبي (وائل) الذي كان يعمل لديك؟

صمت قليلًا أتذكر ذلك الصبي الذي افتقد وجوده المبهج في حياتنا، كثيرًا لتزداد الحسرة أضعافًا على جبيني:

– حتى الآن هو في الغيبوبة.. لم يفق ولو لثانية.

في هذه اللحظة لمحت شيئًا يتحرك في الصالة.. يبدو أنه ظِلٌّ لشخصٍ ما، زدتُ من تدقيق جفني ناحية هذا الظل محاولًا استبيان معالم جسده المظلمة الثابتة، لكنَّ جرس الهاتف أخرجني من تركيزي مفزعًا لي.

شهقت بفجع من رنَّةِ الهاتف وظلَّ (مروان) يقهقه مازحًا على انفعالي الطفولي.

– ماذا بك يا صديقي؟ لم أكن أعلم أنك تخاف من الهواتف.

ما بال تلك الهواتف التي تتعمد بعثرة كرامتي، أجبت الهاتف ضاحكًا مجاريًا (مروان)، قائلاً: (منزلِ (مراد الحسيني)) كعادتي.. لأنهض بفزعٍ حقيقيٍّ هذه المرة وعيني تزدادت اتساعًا وأنا أقول مُردِّداً: (وائل) قُتِلَ!!

* * *

بعد شهرين

حسنًا.. لقد تجاوَزْنَا عدة مشاهد منها ذهابي للمستشفى وبكائي على صديقي وبداية أمر التحقيق مرة أخرى مع نفس الضابط الشرقي قليل المزاج، ناهيك عن الكثير الكثير من الحزن.

(وائل) لم يكن يعمل لديّ فَحَسْبُ.. أنا أكبر منه ببضع سنوات؛ لذلك هو صديقي وأخي الأصغر.. كنت أعلم أني سأتراجع في أمر فصله عندما يستفيق، حيث كنت أقول هذا لأظهر لنفسي أني رجلُ أعمالٍ لا عواطف.

لكن الحقيقة أني كنت سأزيده بمرتبه.

لكن ما أثارَ دهشتي حقًا هو أمرٌ مقتله هذا قالت التحقيقات إن أحدهم حمله بقوى شديدة وقذفه إلى أحد جدارن الغرفة.. فاصطدم بإحدى اللوحات ذات الإطار الزجاجي المثبتة على الحائط للزينة ليس أكثر، ليسقط على الأرض بعد ارتطامه القوي، فتشاركه السقوط اللوحة مهشمة الإطار الزجاجي، فاستخدم القاتل قطع الزجاج المحطمة الأكبر لتمزيق حلق (وائل) مسببًا في اندلاع الدماء من رقبته كنافورة عملاقة متعطشة للتحرر من سجن

شرايين جسده، لتغطي جزءاً كبيراً من الغرفة في مشهدٍ جحيميٍّ.

وكان هذا ما أطلعني عليه الضابط من تقرير المشرحة:

«تقرير التشريح النهائي للحالة (م و٣٩) لذكر مدعو باسم (وائل ممدوح) في سن السابعة والعشرين، حالة التشريح النهائية للجثمان الذي تم العثور عليه في غرفة رقم (١٩٣) في مستشفى حساب بمحرم بك.

تم التوصل إلى أن القاتل قام بحمل المجني علية قاذفًا إياه بطريقة غاية بالقوى للحائط المقابل لفراش الضحية ليصدم إطارًا زجاجيًا للوحة معلقة على الحائط.. أدى الاصطدام إلى كسر أربعة ضلوع في القفص الصدري للضحية مع كسر عظام الأكتاف، ونتج أيضًا عن الضربة القوية التي أصابت رأسه، دمورٌ في القطاع الأيمن من المخ وبالتالي الوفاة السريعة.

لكنَّ القاتل لم يدرك هذا؛ فقام باستخدام واحدة من أجزاء الزجاج المهشّمة ومزَّقَ بها حلقه، لكنه كان ميتًا بالفعل، ثم قام القاتل باستخدام آلة حادة لفصل منطقة الحوض والساقين عن بقية الجسد مما جعل الدماء تنفجر من جسده في غزارة.



كل هذا حدثَ في أقل من خمس دقائق، هذه السرعة لا يقوم بها بشريٌّ حتى لو كانوا أكثر من قاتلٍ واحدٍ.

السلاح المُستخدَم في الجريمة مجهولٌ تمامًا، لا يوجد أيٌّ نوع للبصمات على ملابس الجثة غير لأصدقائه والأطباء، كما لا توجد بصمات على قطعة الزجاج المستخدمة في الجريمة الملوثة بالدماء.

تقرير دكتور (حسام الخطيب)»

صديقي المسكين من فعل جريمته في البداية عاد له مرة أخرى ليكمل عليه.. لم يُكفِه تحطيم عموده الفقري فحسب.. بل أخذ منه حياته للأبد وهو يتلذذ بسماع أنفاسه الأخيرة الغائبة عن الوعي.

لكنَّ السؤال هنا: إذا كان غرضُ المجرم هو القتل.. لماذا لم يفعل ذلك من البداية.. لمَ تركه ما يقارب الثلاثة أشهر في المستشفى؟!

هل كان يهيء نفسه لانتقامٍ أوسع أو خطة تعذيبية أبشع..

أم أني أتيت للبازار في اللحظات الحرجة لأقاطع خطته السادية!!



يبدو أني أكاد أقتنع باستنتاج الضابط لا أخفيكم سرًا فهو استنتاج منطقي، يقول إنّ هناك شخصًا يحب (إيمان) ولكن يعلم أنها مخطوبة إلى (وائل)؛ فلذلك حطم مستقبل (وائل) معتقدًا منه أن (إيمان) ستتوقف عن حبها أو تتركه لكنها لم تفعل.. فقرر التخلص منه للأبد ليحطم قلبها بطريقة مريضة.

برغم أن هذا الاستنتاج كان مبالغًا فيه من ناحية العنف والدماء، غير هوس الضباط بإلصاق التُّهَم بالمختلين عقليًا فمهما كانت درجة الغيرة أو الرغبة في امتلاك جسد امرأة فهي لا تصل أبدًا –بحَدٍّ عِلمي– لفصل الجزء السفلي من الجسد.. لكنه يظل منطقيًّا.

فبهذه الطريقة الدموية والسادية، فالقاتل يُقدِّم رسالة واضحة ل(إيمان) –لو كان استنتاج الضابط صحيحًا– بأنه قد قضى على رجولة (وائل) للأبد مع حياته.

ولكن ها نحن ذا.. تمر الأيام ونفقد فيها أحبّاءنا بنعمة النسيان أو التحامُل.. أنا تعايشت مع موت (وائل) ومع شلل (أمي) الذي لم يذهب بالتدريج كما ادعى الطبيب ومع ذلك الكابوس الذي أراه بشكل يومي.

اللعنة كم أكره ذلك الكابوس!

كانت حالة (إيمان) صعبة إن لم تكن عويصة.. لكن حاجتها للمال والعمل الذي سيخرجها من غيمة الحزن تلك، جعلتها تستمر في العمل لدي ولا أنكر أنها تغيرت، لم تعد تلك الفتاة ذات الشكيمة القوية كما عهدتها، أصبحَتْ حزينة تعسة متشحة بالسواد طوال الوقت معلنةً الحداد السرمدي، اختفت براءتها وصفاء وجهها بالتدريج، تراكم الشحوب والعبوس على وجهها اليافع لتحولها لما أقرب من أرملة تنتظر قضاء اللّه أن يلحقها بحبيبها إن لم تلحق به بطريقتها الخاصة لكني أعلم أنها ستعود لسابق عهدها مع الوقت، فالوقت له قدرته التي نحمد اللّه عليها.. وهي النسيان.

***

– (مراد).. تعال وخُذ خردتك هذه من هنا.

صاح بها أخي (تميم) في عصبية عندما حدثني بالهاتف من منزله.

– ماذا هناك يا (تميم)؟

– صندوقك الخشبي تخرج منه رائحة بول قطط.

– ماذا؟!.. بول القطط مرة أخرى؟! كيف عرفت إنها هذه الرائحة بالذات؟

– أنسيت أني كنت أربي قِطّا منذ عام، لذلك أعرف هذه الرائحة جيداً لكنها منتشرة في المنزل بأكمله والمصدر هو الصندوق.

لقد استدعيت شركة الرش وهي في طريقها الآن وإذا علمت بأنِ الرائحة قادمة من صندوقك فسوف تدمره.. فتعالَ خُذه إذا كان به شيء يهمك.

– حسنًا، أنا في طريقي.

أغلقت الخط مع أخي وانطلقت له بسيارتي في استسلام.

* * *

– (مراد).. أنا هنا.

كانت هذه العبارة من أختي (نورهان) وهي ترفع يدها مشاوره لي لأراها.

توجهت لها وعانقتها وأنا أعاتبها على تغيير مكان مكتبها، حيث أني ضللت طريقي لهذا المكان لولا عاملة النظافة العجوز التي قادتني إليها، قالت وهي تسير لتقودني لمكتبها الجديد:



– أتقصد (شوقية)؟!

– لا أدري لكن هيئتها ولهجتها توحيان بأنها ليست من الإسكندرية.

ضحكت في رقة مُجامِلة:

– أجل هي كذلك.. إنها بدوية الأصل عجوز طيبة، تحب كُلَّ من في المكان وتساعد الجميع.

– بدت لي فاضلة أيضًا.. اشكريها مُجدَّدًا من أجلي عندما ترينها.

توقفت قليلًا عن الكلام وأنا أسير معها في الأروقة ثم عاودت أسألها عن حال أمِّنا.. لتظهر حالة العبوس المعهودة التي ترتسم على الأوجه بمجرد ذِكر حالة أمي، فحتى بعد كل تلك الأيام لم يعتَدْ أحدٌ الحديث عنها دون أن يضرب الحزن روحه.

– إنها بخير لكنها لم تتحسن بعد، لا تزال شاردةً عنَّا بلا حركة، تستجيب قليلًا لحديثي معها.. لكني لا أزال أشعر أنها ليست أمي.

أمي داخل هذا الجسد في مكانٍ ما لكنه بعيدٌ جدًّا.

توقفنا أخيرًا عن السير عندما وصلنا لأحد المكاتب التفّت (نورهان) تجلس الى المكتب فقلت وأنا

أجلس على الكرسي المقابل لمكتبها القابع بردهة المكتبة:

– كل ما علينا هو الدعاء لها فحسب.

– نعم، معك حق.. لكن ماذا جاء بك إلى هنا؟!

– إنه أخوكِ ومَن غيره!

نهضت أختي ممسكة بزجاجة مياه وقامت بسقي بعض قسريات النبات الأخضر جانبها وهي تقول:

– تقصد (تميم).. ماذا فعل؟!

– لا أعلم لمَ لكنه مستاء من هذا الصندوق.

صمتت هنيهة تفكر بعد أن دققت قليلًا في الصندوق وقالت:

– أليس هذا الصندوق الذي أهديته لأمي بعيد مولدها وطلبت من (تميم) أخذه لك؟

– نعم هو.. لكنه تخلص منه بنفس الطريقة هو الآخر.

– أكان معه كل تلك الفترة؟!

– نعم.. لقد نسي كلانا أمره.

عادت مرة أخرى لمقعدها قائلة وهي تتنهد:

– وما الذي جعلكما تتذكرانه؟

– قال بأن هذا الصندوق رائحته نتنة وكما ترين الآن.. لا يوجد به أي نوع من الروائح.

قرّبت أنفها من الصندوق لتشتم رائحته في طريقة مضحكة كالجراء ثم قالت:

– بالفعل لا شيء به.. يبدو أنه فقط يزحم المكان في شقته، فاخترع هذه الحجة ليجعلك تأخذه.

قلت وأنا أسترخي في مقعدي:

– لهذا طلبت مقابلتك.. لقد حجزت تذكرة للسفر بالقطار لأسبوع خارج الإسكندرية لإجراء صفقة ما وسيفوتني القطار إذا أخذت الصندوق للمنزل أو البازار.. فأنت تعلمين مدى بُعد منزل (تميم) عن كليهما.. فلهذا كنت أتساءل إن كان بإمكاني وضعه عندك لفترة من أجلي.. حيث كانت المكتبة هي أقرب شيء في طريقي.

قالت بحيرة:



– في المنزل؟!

قلت وأنا أشير بكلتا يدي علامة على النفي وأنا أعتدل في مقعدي:

– لا لا ليس المنزل.. فهناك عداء شخصي بين أمي والصندوق أو شيء من هذا القبيل، أريدك أن تضعيه هنا.

– في المكتبة؟!

– وظيفتك كإحدى أمينات لمكتبة الإسكندرية تجعلكِ تتعاملين مع المخازن، فمن السهل وضع الصندوق هناك لبضعة أيام فحسب.

صمتت قليلًا وكأنها تقلب الأمر برأسها:

– حسنًا وما المانع إذًا.. فأنا لا أهرّب الآثار أو المخدرات.

ضحك كلانا في ود أخوي، فسلمت أختي الصندوق ورحلت مرتاح البال لألحق بالقطار.

* * *

بعد أسبوع

كان بالفعل أسبوعًا مرهقًا.. ذهبت لبعض الأصدقاء لإتمام صفقات جديدة وذهبت لعرس صديق لي وأشرفت على نقل بعض البضائع.

لقد أهلكني ذلك الأسبوع

العجيب أن أختي فعلت بالمثل كأخي.. بمجرد عودتي للمدينة، هاتفتني طالبةً منّي أن آتي لأخذ الصندوق.

فذهبت لمحل عملها –مكتبة الإسكندرية– لأجلس على الجانب الآخر من مكتبها الذي عثرت عليه بسهولة هذه المرة، قائلًا في عجب من أمرها:

– ما بال هذا الصندوق معكم يا آل (حسيني).. لماذا تطلبون دائمًا التخلص منه؟!

قالت بعينٍ حادة:

– صندوقك هذا جالبٌ للحظ العسر منذ أن دخل المكتبة.

– حظ عسر.. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها كلمات كتلك؟!



– نعم حظّ عسر، أو نحس كما نطلق عليه.

ظلت تعد على أصابعها وهي تقول:

– في البداية توقف الناس عن استعارة الكتب، ثم تعطلت كل الأجهزة الكهربية في المكان، واضطررنا لجلب الصيانة، ثم دخل زميل لي المصحة النفسية، ثم انتحرت عاملة النظافة (شوقية).

– ماذا؟!.. انتحرت!!

قلتها شاهقًا بينما تزداد عيناي اتساعًا من أثر الصدمة.. فردّت هي في حزن ملحوظ بدورها مؤكدة على ما سمعته، شعرت بالأسف على هذه المرأة حيث كانت المرأة بأفضل حالٍ عندما رأيتها بالمرة الأخيرة.. ثم عاودت لأقول:

– بالرغم من أن كل هذه أمورٌ مؤسِفة لكني أستبعد فكرة أن للصندوق علاقة بالأمر.. أنتِ مؤمنة باللّه يا (نورهان) وتعلمين أن لا شيء يدعى حظًا.

طالبتها بإحضار الصندوق على أي حال وأنا أسترخي في مقعدي، لتهب مختفية بأحد الممرات الجانبية، وتعود بعد دقيقتين أو ثلاث وبيدها الصندوق الخشبي، لتضعه فوق سطح مكتبها



وهي مشيرة نحوه، بنوع من العداء الشخصي، لتحثني على أخذه من هنا وإزالة تلك اللعنة الدميمة عن المكان.

تذكرت أمرًا ما.. أختي مُحبة للأزهار والنباتات ودائمًا عندما أجلس معها في البيت أو العمل تنهض لتسقي الأزهار بدون مقدمات في حركات سريعة اعتدت عليها منذ صغرها، فهي تفعل هذا بشعور تلقائي كالتثاؤب أو التنفس أو الرَّمش، لكنها لم تفعل هذا ولو لمرة واحدة منذ مجيئي.. هذه أختي ومعتاد على تصرفاتها وأشعر بشيء مختلف.

فنظرت لقسريات النباتات الصغيرة الموضوعة جانب مكتبها لأجد كل النباتات فيها ذابلة وجافة وتكاد تصل لحالة الجفاف الكامل أو الموت

فأشرت للقسريات وأنا أسأل عن مصابهم، فنظرت لهن بيأس وقالت:

– ألم أخبرك أن هذا الشيء نذير شؤم، لا أعلم.. فجأة بدأت النباتات تذبل رغم حرصي اليومي على إمدادها بالمياه وضوء الشمس المغذي.

الموضوع أصبح أكثر عمومية وشمولًا.. هل يمكن أن يكون الصندوق هذا جالبًا للحظ التَّعِس بالفعل؟! أعني، اقطعوا ذراعي كي تقنعوني أن



هناك نباتًا تعفّن وأختي هي المسئولة عنه.. ولن أصدق.. هناك شيء ما يحدث هنا.

سألتها بعزمٍ إن كانت متفرغة بعد دوام عملها لليلة، فأجابت وعلى وجهها علامات تعجُّب حول سؤالي المفاجئ:

– لا.. لكن يجب أن أعود للمنزل فالخادمة التي أتركها للاعتناء بأمي ستترك المنزل إذا لم أحضر.

– حسنًا.. لتتفقي معها أن غداً ستجلس ثلاث ساعات إضافية مع أمي.

استفسرَتْ عن السبب وعلامات التعجب تزداد اتساعًا على ثغرها، لأجيبها ناهضًا وأنا أحمل الصندوق في طريقة شكسبيرية:

– سنذهب لزيارة زميلك في المصحة النفسية.

* * *

اليوم التالي..

دعوني أقول إن ما حدثَ في المكتبة يوم أمس جعلني أشعر برعبٍ لم أشعر به مطلقًا في حياتي، بل وجلني أراجع أمرَ الصندوق من بداية شرائه.. لكن ما توصلت له أن هذا مستحيلٌ.

منذ خمسة أعوام اشتريت منحوتة صغيرة لرأس ماعز يقولون إنه تصوير الشر أو الشيطان في الحضارة الإغريقية القديمة.. لم يشترِه أحدٌ أبدًا؛ لأن مظهره لم يكن مبهجًا أو محفزًا على شرائه، فهو منحوتة ممكن أن تشتريها أم لإخافة ابنها الصغير، بأنه إذا لم ينم مبكرًا بعد غسل أسنانه فهذا التمثال سيفتك به ويلتهم أصابع قدمه ليلًا.. غير هذا فاحتمالية اقتناء أي شخصٍ له أمرٌ مُستبعَدٌ، إلا لو كنتَ من هواة تجميع التماثيل الرمزية للشيطان، وهذا أمرٌ لا نلقاه كل يوم.. بعد عامٍ تقريبًا، كُسِر التمثال عن طريق الخطأ وبعدها ببضعة أيام لا تتجاوز الأسبوع.. توفى والدي! أهذا يعني أنَّ التمثال ملعونٌ أو شيء من هذا القبيل؟! أو أن ما بداخله من روح الماعز قد خرجَتْ لنطح والدي حتى الموت بالطبع لا.. هذه صدف ليس إلا لم يتكبد أبي العناء لتعليمي بالمدارس والجامعة لأصرح بتلك الخزعبلات الشرقية الساذجة، فبالرغم من قلة مواظبتي على الصلاة وانشغالي بأمور

الدنيا، لكن هذا لا يزعزع إيماني الكبير بالقدَر وتدبير اللّه.

كدت أن أتراجع عن أمر ذهابي للمصحة النفسية، لكني فكرت لو استطعت أن أثبت أن الأمر ليس له علاقة بالصندوق، والأمر برمته ليس أكثر من صدفٍ، فهذا سيقطع الشك باليقين ويجعل بالي يستريح من تفكيره الشارد.

لهذا ذهبت مع أختي بعد انتهاء عملها للمصحة النفسية لزيارة (سيف) كما اتفقنا.

* * *

يدخل علينا ممرض بدين ذو وجهٍ عكرٍ، ممسكًا (سيف) من ذراعه ويضعه أمامي على طاولة الزيارات بدون أي مقاومة من (سيف) كما لو أنه آلة لا إرادة لها تخضع لما بجرفها له التيار.

يرحل الممرض مُعلِنًا بصوت خشن ضخم وهو يلتفت عنّا بلا مبالاه بأن الزيارة لن تزيد عن نصف ساعة.

أوجّه نظري إلى (سيف) متعمقًا في تفاصيل وجهه الوسيم ذي الذقن النابتة قليلًا بقله اهتمام، متغاضيًا عن أسلوب الممرض الحكومي بغطرسته



المعهودة في الحوار، فلا يبدو (سيف) من الوهلة الأولى مجنونًا أو مختلاً أو شيئًا من هذا.. يبدو إنسانًا عاقلًا واعيًا لما يحدث حوله بشكلٍ أو بآخر رغم حركاته المستسلمة مع الممرض.. فلولا الطريقة المهينة التي أمسكه الممرض بها، لقلت إنه رجلٌ سليم العقل.

دعونا نكون متفقين أن هناك خوفًا يتربص في النفس –لسببٍ مجهولٍ– عندما نتعامل مع أي شخص مريض نفسي أو حتى مرَّ على مصحة نفسية دائمًا ما تشعر بالخوف من التعامل معه أو الحديث عنه حتى ربما هو الاختلاف بيننا.

جلس (سيف) وهو ينظر لنا بتمعن كما لو أنه ينتظر حركة مفاجئة مني أو من أختي، فقطعت أختي الصمت سائلة إياه عن حالة بصوت متقطع.. لم يرد في بادئ الامر وظل ينظر لنا بتلك النظرات التفحيصية الشاملة لكن فجأة اصبحت نظراته عادية، لينظر لأختي بفرح، قائلًا :

– (نورهان).. سعيد لانك اتيت لزيارتي.. انا بخير حتى الآن لكنهم لا يريدون الافراج عني.. كل ثلاثة ايام يجرى معي تحقيق سواء من ضباط أو من اطباء نفسين لتقيم حالتي، وبالنهاية يقرون بزيادة مدة حبسي.



– هل حددوا متى ستخرج ؟!

– ليس بعد.. فأنا هنا حتى يتعرفوا على قاتل الحاجة (شوقية).

لم أتوقع أنه هنا بسبب انتحار عاملة التنظيف، علمت من أختي أن زميلها حجز بالمشفى النفسية، لكني لم أعلم السبب ولم أتوقع أن الأمرين متصلان، فقاطعت حديثهما سائلاً إياه إن كان هنا بسبب انتحار (شوقية)، فوجّه نظره إليَّ ثم قال:

– لا أنا هنا لأني الشاهد الوحيد على الجريمة.

– جريمة! ولماذا أنت هنا في المصحة؟! لماذا أنت لست في قسم الشرطة يتم معك التحقيق هناك؟!

صمت يتأملني من جديد، فقاطعت صمته قائلًا:

– لا تخف أنا لست بضابط أو طبيب.. أنا أخو (نورهان) الأكبر ومهتم بمعرفة ما حدث معك لأسباب تخصني.

ظلَّ صامتًا يتفحصني بعينة الزجاجية سريعة الحركة، كما لو أنه يفكر في كلامي، ليختم صمته مجيبًا:



– لأن شهادتي لا يراها الضباط شهادة عقلانية؛ لذلك أرسلوني لهنا أملًا أن يخرجوا مني بمعلومة عقلانية على حسب كلامهم.

أنا لم أتوقع أي من هذا.. لكن هذا أفضل مما أملت، فعاودت أسأله، أن تحكي لنا ما حدث؟، فاسترخى في مقعده ومسح على جبهته في يأسٍ:

– لقد قلت هذه القصة عشرات المرات.. لماذا لا تحلّون عن أساريري وتدعوني لشأني؟

قلت سريعًا:

– أرجوك يا (سيف).. يجب أن نعلم.. (شوقية) كانت عزيزة علينا جميعًا، فساعدنا في معرفة ما حدث معك ومعها

حرَّك يديه في الهواء في لا مبالاه، ليقول ساخرًا:

– لا تترجاني فأنا ليس لدي مشكلة في سرد ما حدثَ.. المشكلة لديك أنت.. أنت لن تصدقني.

قد لا أصدقه بما أنه قد تم تحويله للمصحة النفسية.. لكن تلك الصدف العجيبة المتكررة، جعلتني على أهبة الاستعداد للسماع بلا ملل.



فأنهيت هذه المشادة الكلامية الطفولية حاثًا إياه على البدء، ليوافق على مضض بشرط ألا نقاطعه، فأومأت أنا وأختي علامة الإيجاب على كلامه، ليبدأ هو في سرد ما حدثَ.

* * *



منذ خمسة أيام

كنت في المكتبة الساعة الحادية عشرة مساءً، أعيد جدولة بعض الكتب.

وظيفتي كأمين للمكتبة تختلف عن وظيفة (نورهان) لأني أعمل من الساعة الثالثة ظهرًا إلى الساعة التاسعة مساءً عندما تنغلق المكتبة.. أما (نورهان)؛ فهي تعمل بالفترة السابقة لي من الساعة التاسعة صباحًا حتى الثالثة ظهرًا.

اضطررت هذا اليوم للبقاء في العمل لساعة متأخرة بعد مواعيد عملي، ليس من عادتي فعل هذا لكني كنت مضطرًا كما أخبرتك، فالمكتبة على بُعد أشهر من الافتتاح الضخم وعلينا تجهيز كل شيء على أهبة الاستعداد للافتتاحية.. وفي كل الأحوال أنا أتقاضى أجرًا إضافيًا إذا أطلت في العمل بعد انتهاء نوبتي الحكومية.

كنت أقوم بترتيب الكتب وتصنيفها في أحد الأرفف كالمعتاد، حتى سمعت شيئًا، تلفت حولي لأتأكد أنه لا أحدَ في المكان غيري.. فعُدت لعملي متجاهلًا ما حدثَ، يبدو أن الهدوء القاتل من حولي جعلني أتوهم.

لكن الصوت عاد من جديد، فتوقفت بدوري عن الحركة لأتأكد أن هناك صوتًا بالفعل.. وسمعته بالفعل.

نسيت أن أخبركم أن المكان كان مظلمًا.. لم يوجد سوى مصباح أو اثنين يعطيانني القدرة على الحركة فحسب في مكاني وحمايتي من الاصطدام بأي شيء.. تركت ما كان بيدي من كتب وقوائم، ثم أمسكت بمطفأة الحريق الموجودة على جانب أي عارض لأرفف الكتب ومشيت بها قليلًا أخذًا منها وضعية الأستعداد للقتال فالمكتبة قد أغلقت وأي صوت في هذا الوقت لا يشير إلا للصٍّ أو جان.. وفي كلتا الحالتين أنا لا أعلم وسيلة للهروب غير القتال.

فجأة ظهر شيء من بعيد قادمًا نحوي من الظلام.

أنا بطبيعتي متهور ولا أخشى اللصوص أو قُطّاع الطرق الذين تتكدس بهم الحارات.. لكني لم أفكر وقتها ما الذي يجلب بلص أو قاطع طرق لمكتبة؟!

هل يريد أن يسرق كتاب (كنز الأرض) أم كتاب (كيف تجني المال في عشرة أيام)؟! فبرغم أن المكتبة بها العديد من الكتب الأثرية والبرديات النادرة التي لا تقِلّ قيمتها عن الآثار القابعة بالمتحف المصري، لكن الشعب المصري ليس بمثقف لهذه الدرجة

ليُقبِل على سرقة هذه الكتب معتقداً أنها مكتبة الفاتيكان.

لم أستغرق إلا ثواني في التفكير لأنه حان وقت القتال.

فجريت ناحية هذا الشخص ممسكًا بمطفأة الحريق عازمًا أن أهوي بها على رأسه.. لكنه ظهر من تحت الظلام أخيرًا، كانت العجوز الحاجة (شوقية) وهي تجر أمامها عربة التنظيف الحاملة للمقشات وممسحات وجردل المياه الملوثة.

عندما رأتني أهرول ناحيتها ممسكًا بسلاحي، رفعت يديها حامية وجهها وهي تصرخ بأن أتوقف.

توقفت على آخر لحظة قبل أن أصطدم بعربتها أو أهوي على جسدها.

قالت بلهجتها البدوية المميّزة وهي تضع يدها على صدرها لتأخذ أنفاسها بصعوبة من فرط الخوف:

– ما الذي كدت تفعله.. أتريد قتلي؟!

قلت وأنا أهندم ملابسي وأضِع المطفأة جانبًا كأن شيئًا لم يكن:

– اقبلي أسفي.. فأنتِ مَن ظهرتِ من الظلام وأخفتِني.

– أنا من أخفتك؟!.. هل رأيتني أركض عليك حاملة صفيحة معدنية والشرر يتصاعد من عيني كملك الموت؟!

– على أي حال.. ما الذي تفعلينه هنا؟!

اعتدلت في وقفتها، وهي تتشبث بعربتها، قائلةً:

– المعذرة!!.. ما الذي تفعله أنت هنا؟! أنا أقوم بالتنظيف الليلي وأنت من المفترض أن تكون قد رحلت من ساعتين.

– نعم أعلم لكن لديّ بعض العمل هنا.. يجب أن تذهبي لعملك أنتِ أيضاً.

توجهت للرف الذي كنت أرتب الكتب به مكملًا لعملي.

جاءت (شوقية) خلفي جارّة لعربتها لتسألني وهي تعضّ على أناملها كالصغار، إن كنت سأرحل أم لا، فأجبتها بدون النظر لها منشغلًا بالكتب بأنه لا يزال لدي عملٌ لأتمه.. فسألتني بصوت متوتر عن



موعد انتهائي من هذا العمل.. لأجيبها بنفاد صبرٍ ناهيًا هذا الحديث بأني لا أعلم.

فأخذت عربتها راحلة عن محيطي، لتختفي في الظلام كما ظهرت في البداية.

* * *

بعدها بنصف ساعة

خلال هذا الوقت، كل ما كان يجول في خاطري هو أمر تلك المرأة.

لماذا كانت مصرة هكذا على أن أترك المكان وكأن وجودي يزعجها أو يعطلها عن أمرٍ ما.

لو كانت فتاة شابة غير هذه العجوز.. لتوقعت أنها تواعد أحدهم ووجودي يفسد ليلتهم الرومانسية المحرمة.. لكن ما تعزمة العجوز؟

أيعقل أن تكون مستغلة للمكتبة للإتجار بالمخدرات مثلاً؟

فجأة أثناء انشغالي بعملي وهيامي في الذكريات.. شاهدت شيئًا أسود يتحرك بسرعة في الجانب الآخر من حاملة الأرفف.

لم تخِفني لكنها فاجأتني؛ لذلك تراجعت للخلف كرد فعلٍ طبيعيّ.

هنا جال بخاطري أمرٌ ما.. إجازة (شوقية) الأسبوعية بهذا اليوم، إذاً ما الذي تفعله هنا بهذا الوقت المتأخر من الليل؟!

عزمت في نفسي أن أذهب باحثًا عنها لكن سأشعل نور المكان أولًا.

فهذه الإضاءة تجعلني محصورًا في حدودها البصرية المنكمشة، وليست لدي النية في أن أحطم أنفي بالاصطدام في الجدران أو أسقط حاملات الكتب بتعثُّري فتوجهت إلى قابس الكهرباء القابع في نهاية الممر المضيء.

في أثناء توجُّهي لهناك استوقفني شيء على الأرض، فانحنيت لألتقطه لأجده ظافر إصبع يدٍ مبتورًا عن بكرة أبيه، ملوثًا بالدماء.

فجأة سمعت الصوت مرة أخرى الذي سمعته من نصف ساعة.

و لم أستطع استبيان ملامح الصوت بعد.. كانت كالحشرجة أو الحفيف، لكني لست متأكدًا، فتلفت حولي وأنا أصيح باسم (شوقية) مستعلمًا إن كانت هي أم لا، فسمعت صوتًا يرد عليَّ في المقابل، آمرًا إياي بالرحيل.

لم يكن صوتها.. كان صوتًا خشنًا غليظًا لا ينبت من حنجرة رجلٍ أو امرأة.. كان الصوت يأتي من كل مكان حولي لا مصدرَ مُحدَّدٌ له، أي إنه إذا ركضت لن

أجد طريقًا لأهرب إليه، فربما تقودني قدماي له.. أنا مُحاصَرا!

فجأة وجدت عربة أدوات النظافة خاصتها تتحرك ناحيتي من دونها.

إنها تتحرك لا تُدفَع.. فإذا كان تم دفعها كانت ستتحرك بسرعة أكبر من هذه أو ستتوقف بعد بضعة سنتي مترات.. كانت سرعتها ليست بالبطيئة أو السريعة، كانت عادية وكأنها تُدفَع من قِبَل شخصٍ لا أراه.

وصلت العربة من الظلام وتوقفت أمامي مباشرة وكانت ملطخةً بالدماء.. مظهرها جعل الرعشة تسري في جسدي ناسيًا شجاعتي وحبي للتحدي، فتراجعت بضع خطوات متوجسة للخلف.

فجأة بدأت الكتب في التطاير من الأرفف، ليست تتساقط فحسب كما تظن.. بكل كانت تتطاير من مكان لآخر كالطيور التي نالت حريتها.

وفجأة ظهرت (شوقية) من العدم.. وهي منكوشة الشعر، متخلية عن حجابها البدوي التقليدي، والدماء تلطخ ملابسها.



مظهرها هكذا جعلني أتوجه لسلاحي القديم؛ مطفأة الحريق من جديدٍ.

كنت أركض وأنا أحملها بعد أن نبشتها من أحد جوانب حاملات الأرفف متجهًا لقابس النور مبتعداً عن المرأة الجهنمية.. عندما نظرت للخلف، لم تكن تطاردني كما خُيِّلَ لي، بل توجهت لعربتها الصغيرة.

فتوقفت أنا عن الرَّكضِ بدَوْرِي لمراقبة ما الذي تفعله.

أخرجت عصا المقشة وبدون سابق تحذيرٍ، غرست الطرف الخشبي في حنجرتها ليخترق الناحية الأخرى من رقبتها، تاركة في إثرها ثقبًا جديداً محشواً بخشب المقشة الملوث بالدماء الطازجة.. لتسقط على الأرض خاتمةً للمشهد وهي تنزف من فمها، مخرجة أنفاسها في انتفاضات أخيرة.

تلك القوى التي وضعت بها العصا في رقبتها من المستحيل أن تكون لبشر.. لقد غرستها بشكل سريع وعنيف كما لو أن جسمها من العجين سهل الاختراق أو العصا كانت كالإبر الطبية؛ سريعة النفاذ في الجلد البشري.

اقتربت منها محاولًا مساعدتها لكنها كانت تشهق محاولة ملء رئتيها بالهواء الذي يعجز عن الوصول بسبب ذلك العائق الخشبي، حتى سكن جسدها إلى الأبد وسقطت حاملتا الأرفف المحيطة بنا مع لحظة سكونها الأبدي.. كما لو أنَّ هذه الأشياء شاركتها الالتحام بالأرض الدامية.

* * *

وإلى هنا ينتهي (سيف) عن سرد قصته حول كيفية مقتل الحاجّة (شوقية) فقلت له مستأنفًا بصوتٍ متقطّعٍ وعلامات الدهشة واضحة على وجهي، عما حدث بعد ذلك، ليجيب ببساطة:

– لا شيء.. همدت جثتها فتوجهت للاتصال بالشرطة.

لو كنت تتصور أن ما حكيته غريبًا.. فاسمع الآتي:

عندما جاءت الشرطة وجدت أن (شوقية) مقتولة بسبب تهشيم جمجمتها بمطفأة الحريق وكانت قدماها مكسورتين بنفس السلاح.

وسبب الوفاه هو تلك المطفأة وليس هناك أيُّ ثقب بحنجرتها..

كانت ردة فعلي هي أني فتحت عيني وعن آخرهما وابتلعت ريقي في خوفٍ ممزوجٍ بالشك.. كان هذا رد الفعل المثالي على ما سمعته، خاصةً مع القشعريرة التي أصابت جسدي آنذاكٍ عند تخيُّل تلك المشاهد الدامية.

كلمات (سيف) استطعات –بجدارة– أن تُوقِف شعرَ يدي بخوفٍ بمجرد سماعها.. ماذا إذاً لو كنت شاهد مثله على هذه الأحداث؟ لكنتم الآن تقرأون أوراق تقييدي ليس بمشفى الأمراض العقلية مثله بالطبع.. بل بالمقابر.

فأكمل (سيف) قائلاً:

– وبالطبع أنت تعلم بصمات من كانت على المطفأة.

قلت مسرعًا:

– وأين عصا المقشة التي انتحرت بها؟!

– كانت موجودة في عربة النظافة خاصتها بكل براءة الدنيا، كما لو أن شيئًا لم يكن، لولا قطرات الدم التي لوثتها لما دعَّم هذا موقفي قليلًا.



– كانت دماءُ مَن، ألم تقل إن المرأة التي تم ثقب حنجرتها قد اختفت؟

تحوَّل وجهي لعلامة تعجب عملاقة عند سماع كلماته البطيئة التي ترددت برأسي بتحدٍّ: (دماء قطط)

استأنف وهو يعتدل في مقعده:

– كانت دماء القطط ملطخة لكل صوب ومكان.. أما (شوقية) فكانت تسبح في بِركة من دمائها هي فحسب الناتجة من رأسها المجروحة.

– من أين جاءت دماء القطط؟!

– لا أعلم.

– ماذا عن كاميرات المراقبة ؟!

تدخلت (نورهان) في الحديث قائلة:

– كل الكاميرات والأجهزة الكهربائية كانت مُعطَّلة هذه الفترة.. ألم أخبرك؟! ثم إن القسم فرعي ولم تهتم الإدارة بتصليح الأجهزة بهذه السرعة.

نعم هي أخبرَتْني، لكن لا، يظل هناك شيءٌ مخفي، فسألته في تهكم:



– لماذا لم نسمع بهذا الحادث بالتلفاز أو المذياع أو حتى الجرائد التي توقف الناس عن شرائها؟ فهذا الحادث يبدو جليلًا، بالإضافة لمكان الجريمة.

ابتسم وهو يشير لي قائلًا:

– لقد قلتها بنفسك، مكان الجريمة؛ أن تحدث جريمة قتل بمكان ضخم مثل مكتبة الإسكندرية، سيتم افتتاحها بشكل رسمي للزوار بعد أشهر معدودة، لهي جريمة رأي عام.. والحكومة لن تسمح بتسريب جريمة رأي عام للإعلام والصحافة؛ لذلك قد اتخذوا من سترة الليل –وقت الحادث– غطاءً لها ومداراة الأمر فسمعة كهذه للمكان قد تؤدي للتشهير به أو تأجيل افتتاحة لعامٍ حتى يتناسى العامة الأمرَ، ناهيك عن الاتهامات التي ستلقى على الداخلية المصرية لتكاسُلهم في حماية منشأة سياحية وثقافية عملاقة كهذه.. فألقوا بي هنا مُدَّعين الاهتمام، لكنهم سرعان ما سيتناسون أمري لأبقى حبيسًا بهذا المكان بينما سيتأجّل افتتاح المكتبة لأسبوع على الأكثر، وبهذا يكونون قد خرجوا من الأمر بأقل خسائر.

لقد اقتنعت أن ذلك الرجل مجنونٌ حقًا أو قتلَ المرأة ويدَّعي الجنون.. فالرعب هنا تخطَّى الأفلام السينمائية، كما أن نظرية المؤامرة تلك



والاضطهاد المطل من استنتاجاته توحي بأنه ليس سوى العقل.

قال (سيف) مبتسمًا في سخرية:

– أعرف تلك النظرة.. تظنني قتلتها؟!.. تظن أني مجنون أو أدّعي الجنون؟!.. لقد أخبرتك من البداية أنك لن تصدقني.

اعتدل في مقعده وقرّب وجهه من وجهي قائلًا:

– تلك المرأة لم تُقتَل أو انتحرت، بل مُسّت.

حسنًا لقد اكتفيت من هذا.. لقد جئت لإثبات وجهة نظري بأن الصندوق ليس له شأن بالأمر.. وها قد تحقق مرادي، وقت الرحيل قبل أن يبدأ في نظريات فيلم (الإنس والجن) ويشرع في تفسير نوع العمل السفلي المعمول لتلك المرأة.

فقلت منهيًا للحديث:

– هل هناك شيء آخر تودّ أن تعلمني به؟

– الأسود حول عينيك.

– أستمحيك عذرًا!



قلتها في تعجّبٍ قبل أن يرد هو بابتسامة تحولت من السخرية للثقة:

– هذا السواد يوحي بأنك تعاني أو تخاف من شيء ما أو ربما كوابيس ما.. ما حدث معي جعلني أميز نظرة الرعب التي تكمن خلف روحك المرتعشة المتظاهرة بالتماسك.. هناك شيءٌ يطاردك، شبيه بما شاهدته بالمكتبة، شيء شيطاني.

فقال (سيف) مقاطعًا لي قبل أن أرد أو أتعمق في كلماته:

– هناك شيءٌ غامض حدث لكلينا وما حدث كان مَسًّا.

و الدليل على كلامي أنهم وجدوا خيوطًا نسيجية في معدة (شوقية) عند تشريحها وأتعلم أيضًا أن قصتي التي رويتها الآن التي يمكنك أن تتخيل أنها حدثت فحسب في نصف ساعة تقريبًا، إنها في الواقع حدثت في خمس ساعات!! خمس ساعات سُرِقَت من عمري في مخض ثوانٍ.

كل هذا يدل على السحر أو المس.. الخيوط، دماء القطط، تعطُّل الأجهزة الكهربائية، الوقت المسروق.. كل شيء يق...



دخل الممرض مقاطعًا كلامنا بجملته السادية المحبَّبة إليه، معلنةً انتهاء الزيارة.. قال (سيف) وهو يبتسم ناهضًا مع الممرض دون مقاومة كبداية الأمر:

– لم ينتهِ الأمر بعد.. نحن ما زلنا في البداية.

رحل تاركًا إياي مُعَرْقَلًا في هاوية من عدم الفهم.

لكني فهمت أمرًا واحدًا.. ما حكاه هذا الرجل يشابه ما حكَتْهُ (إيمان) منذ أشهر في قضية (وائل).

* * *

بعد ثلاثة أشهر

صيف ٢٠٠٢ بشهر يوليو

مرَّ الوقت ساحبًا معه الأيام الروتينية، لم تمر عليَّ تلك الأيام كغيرها بل ظللت أبحث وأفتِّش عن أمر كلمة (مس) تلك التي سمعتها من (سيف).

إنها كلمة متداولة بين الناس بالطبع، لكني كنت أبحث عن المعنى العلمي لها بعيداً عن الهراء الشعبي.

اكتشفت أنَّ لها أكثر من تعريف بأكثر من صيغة من حضارة لأخرى أو من دينٍ لآخر.. لكن أغلبيتهم اتفقوا على أن كلمة «مَسّ» تعنى تلبُّس الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد بما هو شريرٌ وغير مُوثَّقٍ علمياً، يكون غرضه هو الأذى والضرر فحسب، وفي الأغلب ينهى حياة صاحبه إذا كان بشراً.

هذا تعريف وضيع ولم يضف لي شيئًا، أعترف بهذا لكن ما رأيته على مواقع الإنترنت كان متناقضاً بشكل مُحيِّر، فكان هذا متوسط ما توصلت له في النهاية.

لم يحدث لي أي شيء غريب خلال تلك الفترة باستثناء الخيالات السوداء التي أشاهدها هنا

وهناك بين الحين والآخر، والكابوس المزعج المتكرر الذي أصبح يلازمني كظِلي بإصرار عنيد.. لكن ظلَّ لدي ذلك الهاجس من كلمات (سيف) التي شغلت بالي لفترة، فتلك الطريقة الجادة التي ختم بها الحوار، تزرع التوجس في القلوب حتى لو كانت متماسكة كالصلب.

أختي نبّهتني أن ذلك الصندوق نذير شؤم ولكني لم أكن مقتنعاً ولا زلت كذلك، لكن كما قابلت (سيف) لإثبات أنني على حق كذلك طلبت من (مروان) أن يجد لي الفتاة التي اشترى منها الصندوق لقطع الشك باليقين كما يقولون.. يمكنك أن تسميه بالصراع الاعتقادي.

بالطبع أمر البحث هذا قد يستغرق وقتًا كبيرًا؛ لأن عندما قابلها (مروان) –لو تتذكّرون– لأول مرة كانت تعرض ممتلكاتها للبيع سعياً للانتقال لمكان آخر.

أين الصندوق الآن؟! إنه في منزلي تحت سريري الخشبي، مجاوراً ما حوله من خردوات وأطنان من الأتربة.. متجاهلًا أمره مثلما فعل أخي.. حتى جاء اليوم.

* * *

ما يميز هذا اليوم عن غيره هو اليوم الذي سبقَه؛ فقد قمت بصفقة رابحة لأقصى حد وعاد عليَّ دخلٌ هائلٌ من الأموال التي ستزيد رصيدي البنكي في رضا، لذلك قررت أن أعزم أسرتي على العشاء في منزلي كنوعٍ من مشاركة الفرحة فأنا مؤمن جدًّا بضرورة الحفاظ على الترابط الأسري بيننا، يقينًا مني بأهمية الحب الأسري في حياة أي فرد.. فأنا لست مثل شباب هذه الأيام –لو فرضت نفسي شابًا– الذي بمجرد أن يكون له عمله ومنزله الخاص فيتبرأ من اسمه ومن نَسبه إن لم يكن قد هاجر بعيدًا عنهم من البداية، ناسيًا بتعمُّد عنوانَ منزل أمه.. فبدون أسرتي أكون تائهًا وحيدًا بلا ماضٍ أو ظهر أحتمي في كنفه عندما أخاف، أو سند أتشبث به في شدتي.

لهذا اجتمعنا جميعًا في منزلي؛ أمي وأختي (نورهان) وأخي (تميم) وزوجته، الأسرة كاملة.. تناولنا العشاء وظللنا نلقي النكات ونستعيد ذكريات الصبا اللعوب ونضحك على سخافات مشادات الصغر، و(تميم) يسخر من (نورهان) لأنها لم تتزوج بعد –كعادته–.

فرغم أني لم أتزوج أنا الآخر، لكنه لا يجرؤ على رميي بهذه الكلمات.

فمنذ أن اكتشفت بالتحاليل عدم قدرتي على الإنجاب، قررت أن أحيا راهبًا مدى الحياة، حاولَتْ أمي في القدم كثيرًا دفعي للزواج بفتيات حتى لو كنا راضيات بحالتي العقمية، لكني أنا من كنت أرفض بحجة أنه قد توقف نسلي عن الأرض، فما ذنب تلك الأسرة المسكينة لأوقف نسلهم هم الأَخَر، وكانت دائمًا كلماتي ما تعجب أبي –رحمه اللّه– قائلًا بإيماءة رضا (عرفت أربي).

فطلبت منها حلًا وسطًا، وهو أن تجلب لي عروسًا عقيمة هي الأخرى، وبالتالي لن يكون هناك أيُّ ضررٍ واقعًا على كلينا، وها قد شارفت على سن الأربعين –إن لم أكن تخطيته–، وأمي لم توفر لي طلبي المخصوص؛ لذلك قررت أن أهب حياتي للعمل والتجارة مثل (مصطفى كامل) باشا الذي أفنى حياته –حتى لو كانت قصيرة– في محاربة الحكومة الفساد، دعونا نأمل فحسب ألا أموت بنفس مرض السُّل الذي توفى به.. لقد اعتدت على هذه الحالة ولم تعد الكلمات تجرحني أو تضايقني، فأنا أكبر قدرًا من هذا السخف الشعوري.

كانت أمي صامتة طوال الوقت كعادتها منذ السكتة الدماغية التي باغتتها.. كانت تستجيب بعينها معنا من الحين للآخر لكن بلا أي تعبيرٍ على الوجه أو أي حركة من جسدها إلا نادرًا. لاحظت أكثر

من مرة أنها كانت تدقق النظر لغرفتي، كما لو أنها ترى شيئًا هناك يجذب انتباهها!!

تأخر الوقت على الرحيل فعرضت عليهم المكوث عندي هذه الليلة بحجة أن الظلام حلَّ والطريق ليس آمنًا في هذه الساعة المتأخرة، ثم إن الغد عطلة رسمية للجميع من أعمالهم؛ فما المانع إذاً؟!

قد تكون شقتي ليست بالكبيرة لكنها تتكون من حجرتين واسعتين يمكننا تكديس أنفسنا بها كقطع السالمون، فوافقوا جميعًا وكانت التقسيمة المعهودة، الرجال في حجرة والنساء في حجرة.. وليتهم لم يفعلوا.

* * *

الكابوس يتكرر.. ما الجديد؟.. الجديد هو التالي:

بدأ الشخص الذي كان برفقتي بالكابوس، جلده يتشقق وتزدات ترهلاته وتجاعيد وجهه كما لو أن السن يجري به، تتحول تفاصيل وجهه لملامح وجه أنثوي –هذا لو كان ذكرًا من الأساس–، بدأ شعره الأبيض في الكثافة رغم هيشانه.

تبدو للوهلة الأولى كما لو أنها سيدة عجوز ولكن ليس هذا ما أراه.. هذا شيء شرير.. وضعت يدها

المجعدة على كتفي وبدأت بالضغط عليها..

فتحت فمها عن آخره بطريقة لا يقدر على فعلها بشر أبداً ليظهر سواد.. فقط سواد قاتم.. لكن بدأت بعض الأشياء في الخروج من فمها الشبيه بالثقب الدودي.. أهذه خيوط نسيجية؟! كان شيء يتحرك في فمها، ليس اللسان أو البلعوم بالطبع.. كان شيئاً آخر تمنيت ألا أعرفه، فهو أمرٌ سيء على أي حالٍ.. فجأة خرجت يدٌ سوداء من فمها ممسكة بوجهي ساحبة إياه لداخل الفم وأنا أحاول منعها صارخاً ومقاوماً كسمكة ترفض أن يتم سحبها خارج محيطها..

(لاااا لااااااا لاااااااااااااا).

* * *

نهضت جالساً من الفراش فزعاً والعرق يبلل فراشي وملابسي، آخذ أنفاسي بصعوبة كما لو أني أريد مَلأ رئتي بهواء العالم، أشعر كما لو أني كنت في صراع مع الموت ذاته منذ قليل، بذلت به مجهوداً جسدياً مرهِقاً، محاولاً التركيز واستعادة اتزاني بالبسملة وفرك عيني براحة يدي.

تباً، إنه الكابوس مرة أخرى.. أو بالأحرى للمرة المليون التي أراه فيها، لكن لمَ هذه المره كان مختلفاً.. تلك

اليد التي قبضت على وجهي لم أرَها من قبل، وكانت ملامح المرأة مُفزعة جدًا عن كل مرة وأكثر وضوحًا.

في الواقع أنا أشعر بأن شيئًا ما خطأ في منزلي.. ليس هذا هو منزلي المعتاد عليه وعلى راحته.. فكنت دائمًا أجد في شقتي الأمان والهدوء الذي أتمتع في كنفه براحة البال بعد إزالة كل أفكار العمل المرهقة من رأسي، كنت أشعر دائمًا أنه يضمني إليه في حنانٍ أمومي ساحر.. لكن هذه الراحة كادت تختفي بالتدريج وكنت دائمًا ما أشعر بأن هناك أحدًا يراقبني أو يشاركني سكني.

قلت لنفسي إنه ربما بسبب زيارة أسرتي أشعر ببعض الريبة، فهم لم يبيتوا عندي منذ أكثر من عامٍ تقريبًا وأنا قد تعودت على الوحدة.

نظرت لباب حجرتي التي يغطيها الظلام إلا من بعض الضوء القادم من الشباك المُطِل على الشارع.. لتعطي الغرفة بعضًا من الضوء الخافت الذي يسمح لي برؤية القليل من معالم غرفتي ويبدد ظلمتها الكاتمة.. فوجدت شخصًا يتحرك للخلف في بطء ويختفي ليبتلعه الظلام.

زدات عيناي اتساعًا محاولًا تفسير ما رأيته، في الأغلب تلك الظلال التي ألمحها بطرف عيني تكون

سريعة وغير واضحة الشكل.. أما الآن فأنا أراها على هيئة شخصٍ متوسط الطول ذي معالم جسدية واضحة من رأسٍ وذراعين تتدلى أسفل كتفين جليين، يراقب نومي في صمتٍ!

هناك شيءٌ خاطئٌ! شعرت برعب لم أشعر به في حياتي من قبل..

وهذا الرعب يضرب روحي بقوة عندما أتذكر أنّهُ هناكَ شيءٌ حولي بمنزلي الذي من المفترض أن أهرب لأحتمي بين جدرانه الآمنة.

الآن أنا عارٍ بلا مكان للاختباء أو التقاط الأنفاس..

فنهضت متوجسًا وأنا أتثاءب في رثاء على نومي الذي لم أهنأ به، متجهًا لحمّام شقتي لغسل وجهي من رفات الكابوس لأستطيع إكمال نومي مستريحًا.. فالعقل البشري دائمًا يحث الإنسان على تجاهُل كل ما تراه غير طبيعيٍّ بحجة أنك تهلوس أو مجهد، مفضّلاً راحة البال.

وقفتُ أمام مرآة الحمّام وأنا أتأمل ملامح وجهي الناعس الممزوج بعلامات التوتر، متفحصًا آثار النوم التي تملأ جفوني وشعيرات رأسي المشعث التي تميل إلى الشيب.

فجأة شعرت بأن هناك شيئًا في حلقي، ظللت أسعل وأسعل أملًا في إخراج هذا الشيء، كان يمنع أنفاسي من الخروج بحريتها.

فتحت فمي ونظرت في المرآه، لأجد حدقة عينٍ آدمية داخل فمي.

شهقت وتراجعت للخلف بضع خطوات، وكما شعرت بذلك الشيء في حلقي فجأة، بالمثل اختفى فجأة..

عاودت النظر للمرآة فاتحًا فمي ولم يكن هناك أي شيء.. أعلم أن التالي لن يفيد لكنها حركة غير إرادية منّي، فتحت صنبور المياه وأنا أتلقّى بعضها في فمي بلهفة خائفة، متغرغرًا بالمياه ثم بصقته في الحوض أملًا في أن يخرج شيء أو سعيًا في تنظيف حنجرتي.. هذه المرة أنا لم أتوهّم لقد رأيت حدقةَ عينٍ داخل فمي بالفعل.

خرجت من الحمّام متخبط الأفكار، شاعرًا بإرهاق الدنيا كلها على عاتقي الهش، لأجد الجميع خارجًا من غرفته، ناظرين لبعضنا البعض بتعجب في مشهد مسرحي، والجميع يتصببون عرقًا، وعلامات الفزع على وجوههم.

* * *



بعد ربع ساعة من الصمت المُطلَق في الصالة، رامين لبعضنا نظرات التوجس في تبديلٍ مُستمِرٍّ، ونحن جالسون على أريكة الصالة.

اخترقت (نورهان) هذا الصمت قائلة:

– هل رأيتم الكابوس؟

كانت علامات وجوهنا متنوعة بين التعجب والدهشة والمفاجأة.. لكن كلها تدل على شيء واحد وهو أننا جميعًا شاهدنا شيئًا في منامنا وأرجِّح شخصيًّا أنه هو هو نفس الكابوس اللعين.

فأكملت وراءها، أحكي كابوسي بكل تفاصيله وكانت وجوههم تتحرك بعلامة الإيجاب مؤكِّدين أن هذا ذات الكابوس الذين رآوه للتوِّ.

هل تظن أن هذا غريبٌ؟! إذًا اسمع الآتي..

لقد قالوا إنهم حلموا بذلك الكابوس من قبل عدة مرات، ولكن هذه المرة كان مختلفًا، مثلي تمامًا؛ لقد تجاوزنا مرحلة الصدف أو خداع أنفسنا بأننا نتوهَّم.. لقد انخرطنا بمرحلة الرعب بالفعل.

فسأل أخي (تميم) في دهشةٍ مَمزوجةٍ بشيء من الغضب عن هذا العبث الذي يدور حولنا.. فطلبت



منه الانتظار وألا يثور غضبه الآن تاركًا إيّانا فرصةً للتفكير بمنطقية.. فوجهت سؤالي للجميع عن آخر مرة رأوا بها الكابوس قبل تلك الليلة.

فأجابت (نورهان) وهي ترفع عينها لأعلى محاولة التذكُّر، بأنها حلمت به مرة واحدة عندما غفت في عملها، ليوقظها الكابوس فزعة، لاهثة في عنفٍ، ومن يومها و هي لم تنَم مُطلَقًا في عملها مرة أخرى.

قال (تميم) متذكِّرًا، بأنه راح يحلم بهذا الكابوس بشكل يومي تقريبًا منذ فترة طويلة لكنه توقَّف وعاد الليلة.. فاندفعت زوجته (سارة) للحديث، معلنةً أن هذا ما أصابها هي الأخرى، نظر لها (تميم) بتعجب دليلًا أنه يسمع منها هذه المعلومة لأول مرة.. ثم وجّه نظره لي، قائلًا في حزمٍ:

– متى كانت مرتك الأخيرة؟!

– أمس، فأنا أحلم بهذا الكابوس بشكلٍ يَوميٍّ منذ عامٍ أو أقل.

فقالت (سارة) كما لو أنها تذكرت شيئًا مقاطعة تركيز عيونهم عني:



– نعم تذكرت متى توقّف الكابوس؛ منذ أن جاءت شركات الرش لتنظيف المنزل من رائحة بول القطط.. يومها استطعت النوم بهدوءٍ بدون رائحة أو حُلمٍ مزعج.

إنها ذاكرة المرأة الحديدية التي تهتم بأدقّ التفاصيل وتخزنها بدهاليز عقلها المنظم.. لننقل أنا و(تميم) في نفس واحد مؤكدين على كلامها: (ليلة انتقال الصندوق)

فقالت (نورهان) مسرعة مؤكدة هي الأخرى على كلامنا، بأن تلك الليلة التي غفوت بها في العمل.. كان الصندوق في المكتبة.

ظللنا ننظر لبعضنا البعض في عجبٍ وأنا أحاول الربط بين الصندوق والكابوس.. وبالفعل استنتجت أن بداية هذه الكوابيس كانت مع أول ليلة أخذت فيها الصندوق من (مروان) لا لا.. بل بدأت الكوابيس من أول ليلة فتحت فيها الصندوق.

قال (تميم) بغضبٍ مُقاطعًا تفكيري:

– ما بال هذا الصندوق يا (مراد).. بدايةً أعطيته لأمي وحدثَ لها سكتتها الدماغية ثم أعطته لي وانتشرت تلك الرائحة في منزلي ثم أعطيته إلى (نورهان) و...



توقف عن الكلام لأنه لا يعلم ما حدث في المكتبة، فأكملت أختي على كلامه:

– تعطلت الأجهزة الكهربائية وقُتلت عاملة النظافة وجُنَّ زميل لي يدعى (سيف) متهم بقتلها.

حاول (تميم) أن يغالب دهشته، مكملًا وهو يطرقع أصابعه كما لو تذكر شيئًا:

– وأيضًا (وائل) الذي كان يعمل لديك، قُتل هو الآخر.

صرخت (سارة) بصوتٍ عالٍ، مشيرة إلى غرفتي، بأن هناك ظِلًا يتحرك في غرفتي.

نظر ثلاثتنا لغرفتي استجابة لصرختها، لنجدها على حالتها؛ بابها شبه المفتوح مظلمة صامتة خاوية، فقالت (نورهان) لتعيد تركيزنا معها بأنها هي أيضًا رأت عدة ظلال شاحبة في هذا المنزل خاصةً من غرفتي.

قال (تميم) بغضب أكثر لا يخلو من الجدية:

– (مراد).. إن كُلَّ ما يحدث لنا من كوابيس وأمور عجيبة بدأت مع ظهور ذلك الصندوق في حياتنا..



قُل لنا الآن من أين حصلت عليه وما به ولمَ لا تزال محتفظًا به طوال هذه الفترة دون بيعه كغيره من التحف في بازارك؟؟

إنه سؤالُ القَرن، لمَ أحتفظ به طوال هذه الفترة؟

ربما لأني لم أربط بين الأحداث وبعضها من قبل كما أفعل الآن..

أجبت على سؤال (تميم) قائلًا:

– صدقني لا أعلم عنه أي شيء إلا أنه يعود لعجوز يهودية.. اشتريته أنا من صديقي (مروان) الذي بدوره ابتاعه من حفيدة العجوز بعد وفاتها.

رنَّ جرس الهاتف!! لينشر الصمت بيننا مُجمِّداً للمشهد، من الذي يتصل في مثل هذا.. نظرت في ساعتي لأجدها تشير للعاشرة صباحًا!

يبدو أن أمر الكوابيس والصندوق سرقوا منها الكثير من الوقت.

أجبت الهاتف، عازمًا على إنهاء المكالمة سريعًا، فلدي ما يكفيني من الانشغالات بتلك اللحظة.. كان الصوت متقطعًا ومشوشًا بطريقة تدفعك لإغلاق الخط مهما كان المتحدث، لكني أعرف من



المتصل.. إنه (مروان) هذه التشويشات المزعجة المميزة لا تصدر إلا من هاتفه المُعطَّل.. كم من المرات طلبت منه شراء واحدٍ جديدٍ وهو يتكاسل عن الأمر؟!

فقلت بصوتٍ عالٍ:

– (مروان) لا أسمعك، أعد كلامك.

– شششششش.. الفتاة.. ششششششش.. عنوان.

– ماذا، ماذا تقول؟!

– عنوان.. شششش.. فتاة..

فجأة سمعت صرخة قادمة من الناحية الأخرى من الهاتف..

أبعدت السماعة في عجلة عن أذني مغلِقًا الخط بقوة، غير قادرٍ على كبت ارتعاشة يدي ما الذي يحدث بهذه الليلة الأبليسية؟

فسألت (نورهان) عن حالي بعد ملاحظتها لتصرفاتي السريعة غير المبررة، فأجبتها وأنا أقبض على يدي المرتعشة بالأخرى السليمة:

– إنه (مروان).. لا بد أنه علم عن مكان صاحبة الصندوق.

عليَّ الذهاب لمعرفة أمره..

تحركت لغرفتي مرتديًا أول ما أتى في يدي من ملابس، متخليًا على طقوسي في التأنق، مستعيداً برأسي كل تلك الذكريات والأحداث الغريبة التي لم أشغل بالي بها أو كنت أتجاهلها عمداً، أخذت الصندوق من تحت السرير وخرجت به للصالة مرة أخرى متجهًا لباب شقتي.

فسأل (تميم) متعجبًا عندما رآني حاملًا للصندوق، بأن كان هذا الشيء في غرفتك طوال الوقت؟!.. فقلت بحزمٍ رب الأسرة قبل أن أغلق الباب خلفي، متجاهلًا كلماته:

– ابقوا هنا.. لا يبارح أحدكم الشقة حتى عودتي.. سنفهم كل شيء قريبًا.

أغلقت الباب متجهًا لمنزل (مروان) وأنا أردد في بالي «أنا موقن من أني سأفهم كل شيء الليلة» الأمر زاد عن حده، إذاً فهو قارب على الانتهاء.

* * *

بعد ساعة

وصلت لمنزل (مروان) أخيرًا بعد أن كدت أصدم أكثر من شاحنة في الطريق وأنا أقود بهرولة كالسكارى.

دلفت لمنزله لاهثًا بعد أن فتح لي الباب، نتيجة طَرقي المتواصل عليه، مغلقًا الباب ورائي بانفعال ليصدر صوتَ ارتطامٍ عاليًا

فقال (مروان) متعجبًا وهو يضع يده على أذنه العجوزة من أثر الارتطام، عن سبب تلك الثورة التي تعتريني.. فسألت منفعلًا مشيرًا له بيدي، إن كان صرخ في أذني عندما حدّثني على الهاتف؟!

ليجيب (مروان) متعجبًا، بأنه كان سيسألني عن سبب صراخ تلك السيدة في أذنه.. عن أي سيدةٍ يتحدث عنها

ظل مقتنعًا بأن من أجابه كانت سيدة وليس أنا، فقلت مغيِّرًا الموضوع بعد أن علمت أن لا فائدة من هذا الجدال الفارغ:

– يجب أن تتخلص من هاتفك اللعين هذا وتقوم بشراء واحدٍ جديدٍ وإلا حطمته على رأسك الأشيب.. هل وجدت الفتاة؟!

– نعم، ومعي عنوانها.

– إذاً هيّا بنا لننطلق إليها.

قال وهو ينظر لساعة معلَّقة على أحد جدران منزله:

– الآن.. في هذا الوقت المبكرة؟!

– ليس أمامي وقت.. أسرِع وارتدِ ملابسك لتأتي معي.

***

بعد ساعتين كنا نقف أمام منزلها الجديد نقرع الجرس في خليطٍ بين التعجل والتوتر، فخرجت لنا فتاة شابة بعد ثوانٍ، في العشرينيات تقريباً من العمر، ذات وجه دائري محبَّب للنفس داكنة الشعر والعينين، يعطي لبياض وجهها لمعة خاصة، تميل للقصر، ذات جسد نحيل وترتدي منامة منزلية.. لتسأل مستفسرة بعد أن تمعنت في وجوهنا عما نريده..

بالطبع لا يوجد أحد يفتح باب منزله لغرباء هكذا إلا الرجال المفتولي العضلات أو رجال الشرطة الذين لا يهابون الغرباء، فما بالك بشابة كهذه.. لكن

مظهرنا شبه الأنيق ولحية (مروان) البيضاء، تعطي طابع بالاطمئنان والطيبة للآخرين، تجعلهم يثقون في وجهه من الوهلة الأولى.

قال (مروان) محاولًا تذكيرها:

– أنا (مروان عبد المنعم) يا بنيتي.. لقد اشتريت منك صندوقًا خشبيّا وبعض الأغراض الأخرى عندما كنتي تعرضيهم للبيع بمنزلك القديم.

قالت وعلى وجهها شبح ابتسامة ساخرة ظهر واختفى في ثوانٍ لكنَّ عيني صورته جيداً:

– نعم نعم تذكرتك.. كنت أعلم أنك ستعود يومًا ما، لكن غيابك طال فاعتقدت أنه لربما لم تفتح الصندوق وسمعت لتحذيري.

– وها نحن ذا.. هل بإمكاني أنا وصديقي التحدث معكِ قليلًا ؟!

فتحت بابها على مصراعيه مفسحة لنا المجال للدخول.. كلمات الفتاة رغم قلتها أكَّدت لي أنها تعرف شيئًا.. خاصه عندما رأيت وجهها متوترًا عندما رأت الصندوق محمولًا بين كفي.

دخلنا ونحن نصافحها بنوعٍ من الترحاب المبدأي.



ثم جلسنا على أريكة حمراء تزين منتصف الصالة بلون جاذب للنظر.

غابت الفتاة بضع دقائق ثم عادت مقدمة لنا صينية عليها كوبان من عصير الليمون المثلج كنوع آخر من الضيافة، لتسأل بعد أن جلست أمامنا بالنهاية وهي تمسحنا بعينها عمّن منا فاتح الصندوق.

فأشار (مروان) إليّ بحركة طفولية كما لو أنه يتبرأ من هذا الجرم.. فسألتني وهي موجهة حديثها لي عما حدثَ.. كان يبدو على وجها أنها بالفعل تجهل إجابة سؤالها، ليست تختبرني أو هو سؤال بلاغي، كشيءٍ من هذا القبيل فأجبتها:

– أشياء كثيرة مثل الكوابيس والخيالات وسوء حظ، غير أمور غريبة تحدث من حولي.. ألم تفتحِه أنتِ؟!

قالت محركة يديها علامة النفي:

– قطعًا لا.. جدتي كانت تصر جدًا على عدم الاقتراب حتى من الدولاب الذي يحوي هذا الصندوق، وأنا لم أكن أتوقع أقل مما قلته أنت نتيجة فتح الصندوق، فكان حرصها الزائد عليه يوحي بأنه يحوي قنبلة نووية على الأقل.



– هل فتحته هي؟!

– أعتقد لا، ولكن ربما كانت تعرف من فتحه.

– متى وأين حصلت عليه؟!

– هذا أيضًا أجهله.. اسمع يا سيد..

أبتها سريعًا رغبة مني في دلوفها المباشر للأمر:

– (مراد)..

– اسمع يا سيد (مراد).. جدتي (ألوي) لم تخبرني أي شيء عن هذا الصندوق، وعندما كنت أسألها عنه كانت دائمًا تحذرني من فتحه فحسب؛ لذلك قررت بيعه لأن تعبيرات وجهها حين ذاك كانت تقول أن هناك شيئًا شنيعًا سيحدث ولأنا لم لأرد لهذا أن يحل بي.

كان الدم يغلي في عروقي من الغضب بهذه الكلمات عديمة الجدوى.

هل ألومها على أنها باعت لي شيئًا ملعونًا ؟!.. بالطبع لا، هي أعطتنا نفس التحذيرات التي أعطتها لها جدتها في نفس الوتيرة.. الفرق بيني وبينها أنها احترمت تلك التحذيرات أما أنا ظللت أعبث بها.



فقالت مكملة:

– هل هناك من فتح الصندوق غيرك؟!

– أعتقد لا.

– هذا جيدٌ حتى الآن.. نصيحتي لك أن تضع الصندوق في بيتك ولا تفتحه أو تجعل أحداً يراه مرة أخرى.. هذا كل ما أستطيع تقديمه لك.

تدخَّل (مروان) في الحوار قائلًا بعد أن أنهى.

نصف كوب الليمون خاصته، سائلًا عن طريقة موت جدتها.

ما هذا السؤال بحق السماء أيها الأحمق؟ لكن الفتاة أجابته وهي تنظر لأسفل بكربٍ:

– هي لم تَمُت.. لقد انتحرت عن عمر يناهز المائة والثلاثة أعوام.

فرددت أنا و(مروان) في نفس واحدٍ متعجِّبَين كصدى الصوت لكلمتها الأخيرة (انتحرت).. فأكملت أنا باقي السؤال عن كيفية حدوث ذلك؟!

ردَّت والدموع تبرق في عينيها قبل أن تغلقهما في محاولة لعدم تذكُّر المشهد ولمنع انفلات تلك



الدمعات، بأن جدتها قد مزقت حلقها بسكين المطبخ.

فقال (مروان) موجهًا حديثه لي، كما لو أنه تذكَّر شيئًا:

– أليس بنفس الطريقة قُتِلَ (وائل)؟!

فأومأت له بالإيجاب بتوجس، بينما تقرير الطب الشرعي الذي قرأته –والملحق بالصور– يظهر في ذاكرتي كالأفلام الوثائقية:

فتدخلت الفتاة في الحديث مستفسرة عن هوية (وائل) هذا، فأجبتها بأنه كان مساعدي بالعمل لكنه قُتِلَ في المشفى.. فأجابت في توترٍ، مُصحِّحة لعبارتي السابقة:

– هو لم يُقتَل.. لقد انتحر هو الآخر.

– بالطبع لا.. (وائل) كان في غيي...

وقفت الكلمات في حلقي عندما رنَّ هاتف (مروان) المحمول، كانت المتصلة (سارة)، تناولت منه الهاتف لأجيب سريعًا شاعرًا بأن شيئًا رهيبًا قد حلَّ بهم.. أنتم تتذكرون الاتصال الأول من (نورهان) وما قدمَ بعده من توابع.



لتخبرني بأن النهاية التي كنت أرجوها قد اقتربت بالفعل لكن بشكل عكسي أخبرتني بأن والدتي قد.. انتحرت.

* * *

بعد شهرين

أغسطس ٢٠٠٢

منذ شهرين فهِمتُ تقريبًا كل شيء.. فَهِمتُ أن هذا الصندوق ملعونٌ وأنا من حرَّر اللعنة بفتحي إياه.. فهمت أن حياتي انقلبت رأسًا على عقب بسبب فضولي في معرفة محتويات الصندوق.. فهمت أني السبب في مقتل (وائل) و(شوقية) وأمي.

آخر كلمة قالتها الفتاة قبل أن نركض أنا و(مروان) من منزلها كانت: «جدتي كانت مصابة بالشلل قبل أن تنتحر».

وعندما وصلت لمنزلي قالت لي أختي إنها رأت أمي وهي تخرج من غرفتها.. كانت هذه المرة الأولى منذ أشهر وهي تراها تقف وتتحرك فلذلك تركتها تتحرك بحرية من فرط السعادة كالطفل الصغير الذي تسعد بتخطيه مرحلة الحبو للوقوف على قدميه، فتتركه يتحرك كما يشاء وأنت تراقبه ببهجة.

تحركت والدتي بدون كلامٍ أو تعبير للحمّام لتغلق الباب خلفها.



الباب من الزجاج المزخرف الذي يعطيك رؤية مبهمة ظلالية لكلتا الجهتين.

فجأة رأت (نورهان) ظِلّ أمي في الحمّام وهي ترجع رأسها وظهرها للوراء بطريقة التوائية لا يقدر عليها بشرٌ حتى أصبحت تشكّل حرف (U) مقلوبًا وفجأة وبسرعة خارقة ارتدّ جسد أمي كالمطاط، لتصدم رأسها بالحوض كاسرة لجمجمتها والحوض معًا، لتسقط قطعة مدببة من رخام الحوض خارقة رقبته، خاتمة المشهد بانفجار دامٍ.

سقطت أختى مغشيًا عليها من أثر المشهد، ليسمع أخي وزوجته صوتَ الكسر ليهبا مسرعين للخارج من غرفتهما ليقتحما الحمّام على هذا المشهد البشع، ويتم توزيع المشاهد المهام على كليهما.

(تميم) يتصل بالإسعاف.. (سارة) تحاول إفاقة أختي.. (تميم) يحاول إيقاف النزيف من رأس أمي بالأقمشة وطريقة البن الشعبية المعهودة.. (سارة) تتصل بمنزل (مروان) عدة مرات لتجد أنه ما من مُجيبٍ.. (نورهان) تفيق لتحاول مساعدة أخي وهي لا تستطيع إيقاف نزيف الدموع من عينيها مع تذكُّرها للمشهد.. (سارة) تتصل بهاتف (مروان) المحمول بعدما أخذت الرقم من المفكرة الموضوعة بجانب الهاتف لأرد أنا بالنهاية.. إلخ..

وبالطبع أنتم تعلمون الباقي؛ نفس الشيء حدث مع الثلاثة.. (وائل) وأمي وجدة الفتاة و(شوقية)، الأربعة ماتوا بسبب كسر في الجمجمة وتمزيق في الحلق بشكل تتابُعِي.

هناك شيء داخل الصندوق يستحوذ علينا واحداً تلو الآخر.. في البداية يصيبه بالشلل أو يكسر قدميه ثم يعطيه قوة من حيث لا نعلم ليقف ويتحرك لكنِ لينتحر.. إلا أنه لا يزال هناك تضاربُ، فـ(وائل) قُتِلَ ولم ينتحر.. كما أنه هو الوحيد الذي فُصِلَ جزؤه السفلي عن باقي جسده، كما أن عاملة النظافة لم تكن في حالة شلل كالبقية.

الكل يموت بسبب الصندوق وهذا يعني أن التالي قد يكون أحد إخوتي أو أنا شخصيًا.. فهاجس الموت أصبح يطاردني في كل مكانٍ.

ماذا حدثَ خلال الشهرين الآخرين؟! كانا شهرين طبيعيين للغاية.

أين الصندوق؟!

قال (مروان) إنه سيحتفظ به ليضع حداً لهذه اللعنة؛ فهذا الأخير ليس بالشخص الفضولي الذي يعبث في أمرٍ ملعونٍ ليكتشف خباياها أو ليثبت نظرية أن اللعنة ليست موجودة أو أنها مجرد كلامٌ



فارغ يدعيه الغير ليخيف نفسه ببعض الهراء، متأثرًا بأفلام الرعب التي يحلم أن يكون بطلها يومًا.. لذلك سلمته له.

حسنًا لمَ أتحدَّث الآن؟! سأخبرك بقصة أغرب من الخيال هذه المرة.. فتحت باب غرفتي ذات مرة في حسن نية، لأجد الصندوق على فراشي، جالسًا خلفه (وائل) القرفصاء وهو مشوه الملامح ملوث بالدماء ويبتسم في شر جهنمي!!

اعذروني على عدم وصفي لملامح وجهه أو ملابسه كاملة؛ لأني أسرعت للخارج مغلِقًا باب الغرفة ورائي وأنا أرجع للخلف بضع خطوات، ناظرًا لباب الغرفة مرتعشًا منتظرًا خروجه أو هجومه عليَّ.

لكني تمالكت أعصابي وحاولت تنظيم أنفاسي بالشهيق من أنفي والزفير من فمي، قائلًا لنفسي: «تماسَك يا (مراد) أنت تتوهم.. الصندوق عند (مروان) و(وائل) قد مات»

تقدمت للحجرة وأنا أدعي الشجاعة، مُرددًا ما تذكرت من كلمات القرآن في عقلي.. ففتحت باب حجرتي ببطء

لأجد الصندوق بالفعل على الفراش وكل الزجاج أو المرايا في الغرفة مهشمين، تاركًا أكبر قطعة زجاج



سليمة في حجم عقلة إصبعي، ورائحة الياسمين تفوح من الغرفة لمست خشب الصندوق الجاف البارد لأتأكد أنه حقيقي وليس وهمًا.. ليبعث قشعريرة كهربية في جسدي، صارخًا بأنه حقيقي بالفعل.

أسرعت متصلًا ب(مروان) أسأله عن الصندوق، ولكن أنتم تعلمون هاتفه ومشكلاته وتلك الصرخة اللعينة التي أسمعها عند حديثي مع أي شخصٍ عبر الهاتف الأرضي.. الصندوق يحاول أن يثبت لي أنه ملعونٌ غير عالم أني قد اقتنعت بالفعل.

لم تمر نصف ساعة حتى وجدت (تميم) وزوجته (سارة) و(نورهان) يقفون على عتبة منزلي وشعيرات رأسهم منتصبة احترامًا لهذا الفزع.

* * *

نهض (تميم) غاضبًا –كعادته منذ الصغر في انفعالاته الهوجاء–، عن أريكة الصالة ليتوجه لحجرتي عازمًا على تحطيم الصندوق، قبضته من ذراعه بقوة، قائلًا، حاثًا إياه على الانتظار، هذا المشهد أصبح متكررًا.

فأطار بيدي بعيدًا عن ذراعه، قائلًا في غضبٍ:



– ما الذي أنتظره؟! أقول لك إن هذا الصندوق اللعين ظهر لزوجتي في غرفة النوم وكانت أمي تجلس خلفه والدماء تسيل من حلقها.

– دعنا نستوضح الأمر فحَسب.

جلس قائلًا في غضبٍ أكبر وهو يقطب حاجبيه:

– أي أمر؟! (سارة) رأت أمي الميتة واتصلت بي في العمل لأنجدها وأنت تريد استيضاح الأمر؟

فقالت (نورهان) مقاطعةً للحوار:

– هذا ما حدث معي أنا الأخرى.. لكني رأيت (شوقية) تجلس إلى مكتبي في المكتبة وأمامها الصندوق.

استأنف (تميم) الحديث محركًا يده جاذبًا انتباهي له:

– وأنت تقول إنك أعطيته ل(مروان) منذ شهرين وها هو الآن يظهر في غرفة نومك مع (وائل).. ما الذي تريد أن تستوضحه غير أن هذا الشيء ملعون وسيقتلنا جميعًا؟ وهو الآن يعبث معنا باعثًا لنا رسائل تحذير.

فقلت بغضبٍ مجاريًا له أني أريد أن أستوضح ما حدثَ بعد ذلك، فوجهت حديثي إلى (سارة) قائلًا:

– قلتِ إنك رأيتِ أمي وهي تجلس خلف الصندوق على الفراش وملامحها مشوهة في غرفة نومك.. ما الذي فعلتِه بعد ذلك؟!

أجابت بتوتر:

– أسرعت للخارج وأنا أغلق الباب ورائي لأتصل ب(تميم) لينجدني.

إنها طبيعة النساء التي تحتمين بأزواجهن عن طلب الشرطة أو الإسعاف.. ثم أكملت بعد أن سرقت بعد أنفاس متوترة:

– وعندما جاء.. فتحت باب الغرفة لنجد أن كُلّ شيء طبيعي إلا أن زجاج الغرفة كله مهشم.

أضافت (نورهان) بأنها أيضًا ركضت عندما رأت (شوقية) مسرعة إلى هنا.. فقلت وأنا أتنهد محاولاً الربط بين كل هذا:

– وحدثَ معي نفس الأمر.

فقال (تميم) في نفاد صبرٍ:

– مع فارق أنه لا يزال في غرفتك حتى الآن.. لم يختفِ مثلما فعلَ معنا، هل يمكنني تحطيم هذا الشيء الآن؟!



– أأنت مجنون؟!.. تريدنا أن نحطم صندوقًا يظهر ويعبث بنا لنحررح ما به ويصبح أكثر قوة.

– ماذا تريدنا أن نفعل؟

– نفكر.. لقد ظهر الصندوق لنا جميعًا في الأماكن التي كنا نحتفظ به فيها.. هذا يعني شيئًا حتمًا.

قال (تميم) وهو ينهض ملوِّحًا بيده راغبًا في قيام شجار:

– استيقظ أيها الغبي.. لقد رأى ثلاثتنا أمواتًا وأنت تريدنا أن نفكر.

قمت وأنا أصيح بنفس الغضب:

– ومن أخبرك أن تحطيمك للصندوق لن يقتلنا جميعًا؟

وظللنا نتشاجر ونتشاجر، حيث كانت أصواتنا تعلو لدرجة أني تعجبت أن الجيران لم يقرعوا جرس الباب في فضولٍ لاستعلام ما بالداخل حتى الآن.

حتى صرخت (نورهان):

– اللعنة ستقف ببيع الصندوق.



توقفت أنا وأخي عن الصراخ، ناظرين لها، حتى أكملت هي عندما علمت أنها نجحت في تنبيه حواسنا لها:

– الصندوق كان يعود لسيدة عجوز كما أخبرتنا يا (مراد) وحفيدتها باعته إلى (مروان) ثم اشتريته أنت من (مروان) وهكذا أصبح الصندوق يئول إليك.. الصندوق لم يعد للحفيدة أو إلى (مروان) بل دائماً يعود لك لأنك آخر من اشتريته قرأت في أحد الكتب التاريخية؛ أن الغرض لا يكون ملكك إذا تم إهداؤه لك أو قمت بسرقته أو وجدته.. بل يكون ملكًا لك صدقًا إذا اشتريته أو قايضته يجب أن يشتريه أحدٌ منك لتتأكد أنه لن يعود لك من جديدٍ.

جلست أنا و(تميم) ونحن نفكر بمنطقية كلام (نورهان) وأنها مُحِقَّة بالفعل في كل ما قالته ثم قال أخي بابتسامة ارتياح:

– حسنًا.. دعونا نجلب أي أحمق ونبيعه الصندوق حتى لو بقرشٍ واحدٍ.

قلتُ في جزم، معترضاً:

– مستحيل.. أنا لن أعطي شخصًا بريئًا، لعنةً متجسّدةً.

فردّ بغضبه الذي سرعان ما انتابه من جديدٍ:

– وماذا تريد إذا؟ أن تظل تلك اللعنة مربوطة بنا؟!

إذا كان يسهويك الأمر فلا أهتم.. لكني أخشى على حياة زوجتي وأختي يا هذا.

– إذا كنا سنبيعه يجب أن نُعلم المشتري بالأمر المتعلق بالصندوق.

سألت (سارة) مبتسمة في سخرية ممتزجة بفقدان التوتر عن الأحمق الذي سيشتري صندوقًا ملعونًا بإرادته؟.. فعاد (تميم) لغضبه قائلًا:

– سأشتري منك الصندوق وأبيعه لمن أشاء.. أخرجِ نفسك من الأمر.

قلت وأنا أقف في حزم الأخ الأكبر:

– اسمعوا جميعًا.. أنا متفهم جداً لما مررتم به ولكن أريد أن أعلمكم أني أكثركم تعرضًا للخطر لأني أنا مَن فتحت الصندوق؛ لذلك أنا أتحمل مسئولية هذا الصندوق.. وأنا لن أهديه لأحدٍ إلا بعد أن يشتريه برغبته الخاصة، وأخبار الشاري بكل شيء متعلق به.

كادت (سارة) تقاطعني لكني أردفت:



– جميعكم توقفت من عندكم الكوابيس بعد إهدائي الصندوق إلى (مروان) أو بالأخص بعد ليلة وفاة أمي، أما أنا فلا.. أكاد أجن كل ليلة لكني أتماسك؛ لذلك حياتكم في أمان الآن وأعدكم أن ما حدث الليلة لن يتكرر وإذا حدث، يمكنكم تدمير الصندوق أو قتلي حتى إذا كان يريحكم. عمَّ الصمت المكان.

بالطبع يقولون عليَّ مجنون لكني بالفعل لا أستطيع.. لا أستطيع أن أبلي غيري ما بليت به عن قصدٍ، يجب أن يعلم ما هو مقدم عليه ويتقبله.

رحلوا جميعًا من منزلي وأنا الآن أفكر في كيفية بيع الصندوق؟!

بالطبع أنا لن أعرضه عندي في البازار، لاصقًا به ورقة مخطوطًا عليها غرض ملعون، أولًا لأن هذا قد يتسبب في إغلاق بازاري وثانيًا لأني هكذا أعرِّض حياة (إيمان) للخطر وبالتأكيد لن أذهب به لدجال، أصحاب طلبات الهدد العقيم أو الديك الرومي أكل اللحم، ليخلصني من تلك اللعنة.

وجدتها.. لا يوجد أفضل من الإنترنت ولا يوجد أفضل من موقع (أيباي) لبيعه.

* * *



بعدها بفترة..

دائمًا ما يقولون إن التاجر هو أخبث البشر على الإطلاق..

طبعًا لو رآني الآن لغيّروا هذه المقولة بسببي.

فأيُّ ماكرٍ هذا الذي يتحمل كل هذا العذاب، أنا حقًا أعيش في جحيم يمكننا القول إن الصندوق كان يباغتني ويلاعبني في البداية.. في البدء لدينا أمر كابوس، يمكن تجاوزه رغم أنه متكرّر كل يوم وفي كل مكان عكس إخوتي الذين يرونه في حالة وجود الصندوق معهم فحسب.. أما أنا لأني الوحيد من فتح الصندوق، فأراه دائمًا.

بعد ذلك أصبحت هناك الظلال التي أراها هنا وهناك، تتجول في منزلي كالضيوف الثقيلين أو أصحاب المنزل، ثم الأمور التي أتوهمها، ثم ذلك الشعور اللعين بوجود من يراقبني حتى هذه اللحظة.

هذا الصندوق دمّر حياتي وعقلي، وأجهل إذا كانت حياتي ستعود لسابق عهدها أم لا حين أبيع الصندوق، لكني أوهم نفسي بالأمل لأظل متمسكًا بِلَو حتى جزء بسيط من عقلي فالأمل هو ما يبقينا أحياء.



ولنحمد اللّه أني لست متزوجًا وإلا لشاركتني زوجتي عذابي دون دخل لها في الأمر، لهذا يجب أن أعرض الصندوق هذا على العالم أجمع.. ربما هناك عالِمُ آثارٍ يودّ دراسة التراث اليهودي، أو حاخام يهودي يأمُل في تجميع المتعلقات الدينية؛ فلهذا وفر لي موقع (أيباي) هذا الحل.

موقع (أيباي) كغيره من ثورات التكنولوجيا بالألفية الحديثة، لكنها على نقيض الهواتف المحمولة؛ فأكثر من نصف سكان مصر معهم هواتف محمولة الآن.. وأنا من النصف الآخر بالطبع.. لكن الشبكة العنكبوتية والمواقع التسويقية مثل(أيباي) لا تستخدمهم إلا الشركات والتجار، لهذا لا يمكنك أن تسأل أي شخص بالشارع عن موقع (أيباي) ولا يظنه أقراص دواء ما أو نوعَ فاكهة غربي، وهذا كان المطلوب.. فالمصريون لن يهتم بهذه الأمور إلا التجار منه، غير أنك لن تجد مثالين البشر اللذين وصفتهما في مصر؛ لذلك كنت أستهدف الدول الأجنبية التي تجيد التعامل مع تلك الأمور.

قمت بتصوير الصندوق من الخارج بعده زوايا ورفعت الصور على الموقع مع كتابة مواصفات كاملة للصندوق ومحتوياتة أيضًا، حتى لا يكون هناك فضولٌ لأحدٍ بأن يشتريه ثم يفتحه، مع ذكرى كيف حصلت عليه وتاريخه، لأكتب أسفل الإعلان خاتمًا التالي:



«أنا حقيقة أجهل هذا الشيء.. لكن كل ما أعلمه هو أنه فتح عليَّ بابًا لا عودة منه.. أول مرة فتحت فيها هذا الصندوق أصابتني لعنة لم تغير حياتي فحسب، بل دمرَتْها وقضت على أقرب الناس لي.

لهذا أنا أنبه أيَّ شخصٍ يريد شراء هذا الصندوق بأنه لن يشتري غرضًا عاديًا كما لو أنه اشترى نجفة أو تمثالاً للزينة.. بل سيشتري ما يمكن أن يهلكه أعرضه الآن لأني أعلم بوجود هواه جمع الآثار والأشياء الخطرة مثله؛ لذلك أرجو أن تشتروه مني.. لتنقذوني»

وضعته باللغة الإنجليزية تحت تصنيف (غرض ملعون) ولم أضع سعرًا فأنا لا أسعى للمال.. أسعى للتخلص منه فحسب ويتم البيع.

أما بالنسبة للإنجليزية؛ فهو لأن الموقع لم يتوفر بالعربية.

اليوم التالي تم بعث سؤالاً بخصوص الصندوق لم أجب؛ لأنه كان سؤالاً شخصيّا ثم جاء سؤال شخصي مثله بعد يومين ثم غيره وغيره وأصبح عند إعلاني إقبال كبير وأسئلة غير متناهية.

فقررت بعد شهرين الإجابة أخيرًا.. رغم أني من النوع العنيد الذي يحب أن يجعل معلوماته الشخصية



وأسرار بيته في خبايا عقلي فحسب بدون أن تتنقل لهذا أو لذاك، لكن هذه المرة مختلفة.. فلديهم الحق في السؤال عني ويجب عليَّ الرد.

فكتبت على الإعلان:

آسف لعدم ردي على أسئلتكم لهذه الفترة ولكني لم أحب الأسئلة الشخصية يومًا، ولكن هذه الظروف اللعينة تحكمني الآن.

– أنا مسلم الديانة ولست يهوديًا.

– نعم خسرت بعض الأشخاص القريبة مني بسبب هذا الصندوق.. ثلاثة أشخاص منهم أمي.

– أنا لا أفقه شيئًا في العبرية وأبدًا ما أطلعت على التاريخ اليهودي.

– لن أبيع كأسَ الذهب منفردًا.. بل يجب أن يتم شراء الصندوق كاملًا.

– لا أعلم أيَّ شيءٍ عن هذا الصندوق غير ما ذكرته.

***

وأخيرًا بعد شهور عديدة من العذاب تم بيع الصندوق

في الواقع كنت أتمنى ان يشتريه مني عالم آثار أو حتى رجلٌ يهوديٌّ كما ذكرت، لكن ما دام من سيشتريه يعلم قصة الصندوق وسيتحمل مسئوليته.. إذاً هنيئًا له.

الشاري من (لبنان)؟.. إنها لمسافة بعيدة بيننا أتراجع عن عملية البيع بيننا؟ لكنه الشاري الوحيد الجاد بالأمر والمحل عليه، غير اآخرين الذين يهزأون من الأمر ثم ما الذي توقعته من وضع الإعلان على (أيباي) على أي حال يجب أن أسافر.

هنا خطر ببالي شيء، فأسرعت لهاتف منزلي الأرضي، متصلًا بهاتف (مروان) المحمول اختصاراً لألم الأذن، مصرحاً بقبولي لصفقة لبنان.

* * *

أنتم بالطبع في غنى عن وصف لبنان الخضراء التي تختلف في شوارعها عن مصر للغاية، والتي توحي إليك بأنها أرض أوروبية ضلت طريقها لم أهتم للمناظر الطبيعية من حولي رغم نضارتها على أي حالٍ، حيث كنت شارداً بعيني، مُحلّقاً برأسي في ذكرياتي الحبيبة، أفكر في كم أفتقد حياتي العادية.. كم افتقدت النوم بهدوء وعدم إجهاد عيني بتتبع الظلال.. كم اشتقت لأكون حراً غير مراقبٍ كم اشتقت لأكون طبيعياً من جديد؟..



حقًا هذا شعور لا يُوصَف كما هو شعور أطفال المدارس المقبلين على إجازة الصيف؛ فأخيرًا عقلي سيعود للتفكير بأمور التجارة التي أعتاد عليها وأحبها ويبتعد عن اللعنة التي تلاحقه أينما ذهبت.

عندما تقابلنا سلمته الصندوق وسلمني هو مائة وأربعين دولار.. بالطبع أنا لم أطلب هذا المبلغ بل هو من عرضه وأنا وافقت.

كان بمقدوري أن أبعث له الصندووق بالبريد، لكني لا أضمن أن يعترف الصندوق بطريقة المقايضة عن بُعد هذه، لذلك قررت اختصار التجارب ونجري الطريقة التقليدية بالبيع والشراء وهي (سلم واستلم).

وقبل أن يذهب قلت له:

– أنت تعلم ما بداخل الصندوق؛ لذا أرجوك ألا تفتحه.. بمجرد فتحك لهذا الصندوق ستكون قد فتحت بوابة الجحيم عليك وعلى معارفك.

ابتسم بلطف وانصرف.. أعلم في صميم قلبي أنه سيفتح الصندوق من باب التحدي؛ فعلامات العند كانت ظاهرة بشكل جهوري في عينه.

هل آخذ الصندوق منه.. هل أتراجع في البيعة؟! أنا هكذا أقتل هذا الشاب بيدي ولكن لم يعد هناك وقت لهذا.. لقد حذرته كما حذرت الفتاة (مروان) ربما الفارق أن الفتاة كانت تجهل ما بالصندوق عكس حالتي الآن.

وبالمناسبة (مروان) لم يعلم باختفاء الصندوق من عنده إلا عندما أخبرته أنه عاد إليَّ مرة أخرى.. فقد تعمَّد إخفاءه في منزله حتى لا يصل إليه أحدٌ من أسرته لكن الصندوق هو مَن وصل إليَّ.

لكن دعونا من كل هذا الهراء الآن فقد زالت اللعنة عن عاتقي أخيرًا في يونيو عام ٢٠٠٣..

* * *



الحكاية الثانية

لا يعني حرصك الشديد في التعامل مع النار أنك هكذا تتقي شرها

ستظل النار حارقة وستظل أنت مادة قابلة للاشتعال، في كل الحالات سيصيبك حرقها، في جميع الحالات أنت تلعب بالنار..

٣١ أكتوبر عام ٢٠٠٢

بلبيس بمدينة بيروت بلبنان

الساعة التاسعة مساءً

صخب.. صراخ.. صيحات.. بشر يتلون في حركات غريبة.. زحام.. وجوه مخيفة، يا لَهُ من مشهدٍ تعجز كلماتي عن وصفه.. ماذا!! لا نحن ليس في محرقة أو حتى إبادة جماعية، وبالتأكيد ليس في الجحيم.. بل نحن نتراقص على موسيقى البوب في حفل الهالوين.

يبدو أن من شدة حماسي في الرقص، تجاهَلتُ بعضَ التفاصيل الصغيرة مثل الموسيقى الصاخبة التي تجعلنا نرقص بلا توقف وتجعل خصور الفتيات الجميلات لا تتوقف عن الارتجاج.



لقد أثرت فزعك أعرف، كما لو أخبرتك أني أتقدم نحوك ممسكًا بسكين حادٍ ثم توقفت، بالتأكيد ستهب من مجلسك فزعًا حتى تلاحظ ثمرة التفاح في يدي الأخرى، لن تهدأ إلا بعد أن تسقط على القليل من الشتائم لتفش غليلك على الرجفة التي ضربتك بسبب كلماتي غير التامة.

لذا أدعوك أن تنتهي من إطلاق العنان لفظاظة لسانك وتكمل معي..

الملابس التنكرية السخيفة التي يرتديها الجميع – وأنا منهم– غير بالطبع الملابس شبه العارية تمامًا التي ترتديها الفتيات لتزيدهن جمالًا وجاذبية ولتزيد الفتيان إثارة نحوهن، والكثير من المتحابين الذين يتشاركون القبلات واللمسات في أركان القاعة.

أعلم أن هذه ليست بتقاليد الاحتفال بعيد الهالوين الشهيرة.. فالجميع يعرف ان في الهالوين يرتدي الناس الملابس التنكرية ويذهبون للجيران قارعين الأجراس –في نوع من السماجة–، منتظرين عالابواب، رافعين حقيبة صغيرة، ليقولون بأبتسامة لطيفة (خدعة ام حلوى).. فيعطي الجار لكل زائر قطع من الحلوة المتنوعة بين الشوكولا والمصاصات السكرية وحلوى الخطمى الشهية – مصتنع الأبتسام–، وبعد ان ينهوت رحلتهم

المزعجة على كل جيران الحي.. يعودون لمنازلهم بسلام لمشاهدة أحد أفلام الرعب التي تُعرَض على جميع قناوات التلفاز.

كل هذا خلّابٌ.. كُلُّ هذا جميلٌ، لكنكم نسيتم تفصيلة صغيرة بين كل هذه التقاليد الاحتفالية.. إنها للأطفال.

هل شاهدت طوال عمرك رجلاً بالغ الطول عريض المنكبين ذا شارب كث وكرش يتمدد أمامه، يقرع جرس منزلك وهو متنكر في زِيٍّ مصاص دماء مصاب بعُسر هضم مثلًا، ويقول بصوت غليظ شبية بمحرك حافلة، من فرط السجائر المحتشدة في رئتيه (خدعة أم حلوى)؟

لو حدث هذا معي لاعتقدت أنه مصاص دماء حقيقي وحينها سيكون أمامي حلان.. إما أن أكتب وصيتي لأسرتي؛ لأنه إذا ما حاولت الهرب سيمسك بي لا محالة أو أفتح الباب مُلقيًا في وجهه بعض الثوم، وحينها سأكتشف أنه ليس مصاص دماء بل مذءوب متنكر في هيئة مصاص دماء، ولا يؤثر به الثوم إلا أنه يزيده غضبًا وعزمًا على الفتك بي.

القصد في النهاية أن تلك العادات الشهيرة حول الأزياء التنكرية والحلوى وكل تلك السخافات هي للأطفال أما الاحتفال بالنسبة لشباب يافعين



تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشر والأربعة والعشرين.. فيكون الاحتفال هو رقص.. لدرجة أننا ننسى أغلب الوقت اسم العيد أو كنهه، لكننا ندرك طريقة الاحتفال به من وجهه نظرنا، ناهيك بالطبع عن أن الهالوين هو احتفال كاثوليكي غربي ولن تجد مَن يحتفل به بلبنان المارونية الطائفة أو الوطن العربي بأسرة، ألا الطبقة الثرية من المجتمعات بحجة مواكبة الدول المتقدمة، ويمكنك أن تصفنا منهم.

تقترب منّي (رنا) وهي تقول في مناغشتها المعهودة:

– عينك عليّ أيها المحتال..

فرددت مبتسمًا بأنه لا أستطيع أن أزيل عيوني عن جمالها الساحر فسألتني وهي تلتفّ حول نفسها أثناء الرقص إن كنت جادًا أم لا.. ثم عاودت تلزمني بجعل عيني هكذا بدلًا من أن أخرجهما من محجريهما وهما تنظران إلى الفتيات الوقحات.

اقتربت منها وأنا أضع يدي على خصرها الراقص وأقول هامسًا في أذنها بأن عيني لا ترى غيرها.. وقمت بتقبيلها من خدّها الأبيض الناعم، لنستمر في الرقص بحماسٍ مع الموسيقى ونحن نصيح في فرحة.



بعد بضع ساعات من الرقص الملتهب كان عدد الأفراد في الحفل يَقِلُّ تدريجيًا.. بالتأكيد أنا لم أدرك هذا بفعل الملاحظة.. فبعد كل هذا الرقص الحماسي، أصبحت جفوني تزن أرطالًا وبالكاد أحافظ على ثبات قدميَّ أرضًا.. لكني لاحظت هذا نتيجة قلة الأقدام التي تدهس قدمي بأحذيتهم الغليظة من الحين للآخر وأيضًا لأني أصبحت أرقص في حرية أكبر دون الضرورة للاصطدام بهذا أو بذاك.

فسألت (رنا) وأنا أُقبِّلها بحنانٍ، ألن ننسحب مثل البقية.. لتجيبني بدلالٍ مستفسرةً إن كنت تعبت بهذه السرعة.. أجبت وأنا أضمها في أحضاني في حالة من الرومانسية:

– لم أتعب لأني أخزِّن الجزء الأكبر من طاقتي لليلتنا الصغيرة.

ابتعدت عني في دلال ومناغشة، مستمرةً في الرقص، ردًا عليَّ بأنها تريد الاستمرار في هذا.

كانت جميلة بحق وهي تتلوى وتقفز في مرحٍ صبياني.

كانت ترتدي زِيَّ ممرضة يزيد على جمالها سخونة وعلى سخونتها جمالًا.

كان جسدها أبيضَ ناعمًا ويزيدها بريقًا

تقدمت نحوها بحركات سريعة وأنا أحملها على ذراعي ثم قلت مداعبًا:

– كفانا رقصًا لليلة واحدة.. وقت النوم.

طلبت مني أن أنزلها وهي تصرخ وتضحك في آنٍ واحدٍ.

كانت خفيفة كرضيع حديث الولادة.. فمن دعائم حبي لها هي رشاقتها وجسمها الرياضي الخلاب.. فهي تحافظ على رشاقة جسدها متوسط الطول، دون شراهة في الطعام حتى تبدو دائمًا في أبهى صورها.

صعدت السلالم حاملًا لها وهي تقبِّلني من حينٍ لآخر.. حتى وصلت لغرفتي، أخرجت هي المفاتيح من جيبي لأني كنت أحملها بكلتا يديّ، لتفتح الباب فندلف لغرفتي المظلمة المهملة النظافة أو الترتيب.

فتحت (رنا) النور من قابس الكهرباء جانب الباب بسهولة، فهي تعرف مكان هذا القابس جيداً وتعرف معالم غرفتي كلها، فقد باتت معي بضع ليالٍ من قبل وكثيرًا ما تتردد عليَّ.

كانت (رنا) دائمًا تمثل لي البداية والنهاية

أول عشق، أول حب، أول لهفة، أول عناق، أول لمسة يدٍ، أول قُبلة، أول مشاركة في الفراش.. علمت معها معنى المسؤلية وكنت أعاهد نفسي على أنها ستكون الأولى والأخيرة ومهما كثرت اللقاءات الحميمة بيننا.. يظل سحر المرة الأولى يجول بخاطري.

كانت مغمضة عينيها في استسلامٍ.. تعلَمُ أني سأعاملها برِقَّةٍ وحنانٍ.. تشابكت أصابع يدِنا وأنا في حالةٍ كبيرةٍ من عشق كل تفاصيلها من جمال وليونة وأنوثة.

نظرت (رنا) لليسار، فاتحة عينيها في أنينٍ ثم شهقت، لأعتقد أنها وصلت إلى ذروتها.. لكنها بدأت في الصراخ خوفًا!

* * *

لا بُدَّ أن الأسئلة تتزاحم في عقلك الآن.. مَن أنا؟!.. وأين أنا؟!.. ومَن هذه العاهرة التي تشاركني الأحداث!.. ولمَ أخبرك هذه الأحداث بالذات؟!

حسنًا حسنًا، سأخبرك بكلِّ ما تريد معرفته.



التحقت بالجامعة الأمريكية بلبنان– بعد إنهاء مرحلة دراستي المدرسية – ببيروت لأتخصص في الطب البيطري كما كان حُلم أبي؛ فهو رجل أعمال ثري في مجال تجارة المواشي والأغنام يعلم من صميم فؤاده مدى أهمية هذه الوظيفة بالنسبة لكلينا ومستقبل شركتنا، وهكذا انتقلت من (قضاء زحلة بالبقاع) – مسقط رأسي ومحل سكني – بلبنان، إلى (بيروت)، ساعيًا للعلم.

وهناك تعرفت على (رنا).. تلك الفتاة العذراء الملائكية التي مثلت لي دائمًا كتلة من الخجل لا يوجد بها ثغرة لاختراقها، فانجذبت لي بعد عدة مواقف رأت فيها كم أنا أحبها وأحاول حمايتها وأن وجودي شيء مهم في حياتها.. لم أخبرها أني ثري بالطبع.. فالواقع أنا لم أخبر أحدًا قَطّ.. كنت أدّعي أمام الجميع أني جئتُ هذه الجامعة لأني طالب متفوق واستحققت هذه الجامعة بعد درجة امتياز في الدراسة أهّلَتْنِي للالتحاق بالجامعة بمنحة تفوّق، وبالطبع لا يوجد من سينبش ورائي.. فأنواع الطلاب في الجامعات الدولية مثل جامعتي اثنان لا ثالث لهما، إما ثري ك(ستيف جوبز) أو عبقري ك(ستيف جوبز) كذلك.. لهذا صدق الجميع الأمر، فأحبّتني (رنا) رغم فقري –المدعى– ولبختي وهي صفة متداولة بين الطلاب المتفوقين دراسيًا.



هي لم تكن فقيرة أو ثرية؛ فوظيفة والدها كمدير لإحدى الشركات يُدِرّ عليهم بدخلٍ لا بأسَ به، ليسمح لها بالانتقال من (صيدا) إلى (بيروت) وجيبها مليء بورقيات من فئة المائة دولار حاملة عليها صورة (بنجامين فرنكلين)، جبانب الأوراق الخضاراء الأكثر ضخامة المنقوش عليها ألف ليرة لبنانية.

ولأن كلينا مغترب عن محافظته.. كنا نقضي أيامنا في مباني مساكن الطلاب بالجامعة.

هنا نأتي للشخصية الثانية في أحداثنا وهو زميلي بالسكن في الغرفة (مازن).

* * *

لم أستطع اختيار زميلي بالغرفة؛ لأني – وبكل بساطة – لا أعرف أحداً، لهذا – وكرد فعلٍ طبيعي – قامت إدارة الجامعة بالجمع بيني وبين (مازن).. لم يكن زميل سكن جيداً أو سيئًا، بل كان من النوع المزعج الذي يجعل شرايين رقبتك تنتفخ من الغضب من تصرفاته وردود أفعاله، فأحيانًا يكون صامتًا شارداً كل ما يقوم بفعله هو تدخين سجائر المخدرات ويبقى في حالة كبيرة من الصمت البارد، وأحيانًا يكون ثرثاراً مزعجًا يقص عليك تاريخ حياته على هيئة قصص ومواقف، بعضها يكون مضحكًا

ومعظمها لا تفهمه من الأساس، لتُعثر الكلمات في حنجرته أثر انتشائه.

أصوله تعود لأسرة ميسورة الحال مثل (رنا).. لكنه مصري على نقيضنا، وهذا ليس بالغريب، فالجامعة دولية وتستقبل الكثير من الطلاب من مختلف الجنسيات حتى لو لديهم جامعات مشابهة في بلادهم.

كان مهملًا أشد الإهمال في أمور المذاكرة، لم أرَه يفتح كتابًا للمذاكرة غير ليالي الامتحانات المثيرة للأعصاب، أو لتمزيق بضع صفحات منه ليضع فيها المخدر الذي يدخنه بنهم بعد أن يلفه بحرفية.

لهذا لم أجد في غرفتي الراحة التي حلمت بها.. فهذا ال(مازن) قادرٌ على شحنك بكمٍّ من الطاقة السلبية تجعلك تهمل مذاكرتك لآخر أيام حياتك ومشاركته في سجائر البانجو خاصته، بالإضافة إلى أنه لم يكن لدي النية لأصبح مدمنًا على المخدرات، فآخر علاقتي بال(الثمالة) هو بعض أكواب من التكيلا أو الوسكي الفاخر.. أشربهم في المناسبات؛ لهذا وجدت في (أمجد) الصديق الذي كنت أتمناه.

* * *



أعلم أن كل هذه التفاصيل قد تبدو غريبة وزائدة عن حدّها على عاتقك.. لكن لكل شخصية دورها الكبير في هذه الحكاية وعليك أن تعلم بدورك تاريخَها وعلاقتها بي لتتوقع تصرفاتها وأفعالها وتكون مبررة لك.

فليس لدي استعدادٌ لأفسّر كل تصرفاتهم.. فكُنْ على دراية بالأمر برمته من البداية أفضل لتوفر عليَّ الكثير فيما بعد.

فإذا تعبت، إذاً لتأخذ استراحة قصيرة.. ودعنا نكمل.

(أمجد) كان شابًا متفوقًا بصدقٍ.. يرتدي عوينات طبية صارخة باجتهاده في دراسته لأقصى حدٍّ.. لكن بجانب هذا فهو مرحٌ، خفيفٌ على القلب، حاضر الدعابة دائمًا، لدية القدرة على تنظيم يومه بين المذاكرة والمرح قليلًا مع الأصدقاء هو أيضًا سعودي مغترب ويقضي أيامه في سكن الطلاب، بالطبع أنتم تتعجّبون من أن كل أصدقائي هم من المغتربين!!

بالطبع لديّ الكثير من الأصدقاء الآخرين الذين يشاركونني أيامي الدراسية.. لكن – كما تعرفون – الصديق الحقيقي هو من أتشارك معه يومي



بأكمله، لا بعض السويعات القلائل في صباح اليوم ثم تنتهي كُلّ صداقتنا وصِلَتُنا بكلمة (إلى اللقاء).

* * *

أعتقد أننا انتهينا من تعريف أصدقائي على غرار (أجاثا كرستي) في عرض المشتبة بهم بجريمة القتل في بداية رواياتها البوليسية، وأعتقد أيضاً أنك تمتلك صورة واضحة كاملة لكل شخصية كما يراهم (هيركل بوارو).. فبالطبع الكثير منا قد يملك هذه الشخصيات في حياته أو اثنين منهم على أقل تقدير.. حبيبة مثل (رنا)، صديق مقرب ك(أمجد)، صديق تضطر للتعامل معه مثل (مازن).

أين كُنّا؟! لقد ثرثرت كثيراً، نعم نعم تذكرت.. كنت في غرفتي بالسكن الجامعي القابعة في الدور الثالث من المبنى بعد انسحابي أنا و(رنا) لنكمل ليلتنا محتفلين كالراشدين ولنسرق من الدنيا بعضَ اللحظات العابثة.

لعلّ مشهدَ الحفل الأول أوحى لك أننا في ديسكو أو ماخور، لكنك لم تتوقع أبداً أننا في مسرح الجامعة نحتفل بإجازة الهالوين على طريقتنا الخاصة، يبدو أن المشهد الأول أوحى لك بالكثير من الظنون الخاطئة.. اعذرني يا صديقي على وصفي المشرد للأذهان، فأنا مُجهَدٌ كما تعلم،

ويبدو أني أسقطِ العديد من التفاصيل؛ لذلك دعنا نعود لأحداث قصتنا وكفانا ثرثرة.

***

كانت مغمضة عينيها في استسلامٍ.. تعلم أني سأعاملها برِقَّةٍ وحنانٍ.. تشابكت أصابع يدنا وأنا في حالة كبيرة من عشق كل تفاصيلها من جمال وليونة وأنوثة.

نظرت (رنا) لليسار، فاتحة عينيها في أنينٍ ثم شهقت، لأعتقد أنها وصلت ذروتها في هذا الحد.. لكنها بدأت في الصراخ خوفًا!، فنظرت لليسار بدوري لأجد شخصًا مرتديًا زيًا تنكريًّا من القماش لأرنب ورَدِيِّ اللون، يجلس القرفصاء على الفراش الآخر، ساندًا ظهره للحائط الملتصق بالفراش وهو ينظر إلينا في حالة من الجمود والثبات المرعب.. تراجعت من الخوف أنا الآخر عندما رأيت هذا المنظر وكانت (رنا) تعتدل في جلستها على الفراش وهي تهندم من ملابسها شاعرة بكل خجل الدنيا.

أنا أعرف هذا الجالس على الفراش.. إنه ليس مقتحمًا أو حتى مجنونًا، إنه شريكي في السكن (مازن).

صرخت فيه وأنا لا أزال فزعًا مما يفعله هنا.

نهضت (رنا) مسرعةً وهي عازمة على الخروج من الغرفة.. فأمسكت بيدها، مُحاوِلًا حثها على الانتظار.. فنظرت لي بغضبٍ مُعلنةً انتهاء ليلتنا ولا داعي للانتظار، بعد أن أشاحت يدي عنها في عنفٍ.

تقدَّمت بضع خطوات حتى وصلت لباب الحجرة وخرجت، ثم نظرت إلى (مازن) الجامد في مكانه وهي تقول باشمئزازٍ واضحٍ: (منحرف).

ثم أغلقت الباب وراءها في غضبٍ.

وضعت يدي على رأسي وأنا أقول ل(مازن) معاتبًا:

– انظر لما فعلت أيها المغفل.. لقد جعلتها تبدو كساقطة للتو.

لم يرد وظلَّ على حالته دون حركةٍ.. فأردفت أنا:

– ألم أخبرك أن تبيت في غرفة (مطران) الليلة؛ لأن (رنا) قادمة وأنت وافقت؟!

نفس الصمت.. فأردفت مرة أخرى في حنقٍ من سكونه:

– لا بُدَّ أنك منتشٍ الآن ولا تعرف حتى أين أنت.. أشكرك أيها المغفل لقد أفسدت ليلتي.



خلعت باقي ملابسي التنكرية التي كانت عبارة عن ملابس (علاء الدين) البسيطة وألقيت بها بعيداً ثم ألتقط قطعتين من ملابس البيجاما المبعثرة على الأرض لأرتديها سريعًا، أطفأت النور من القابس الموضوع بجوار فراشي وأنا أقول:

– هيَّا أيها المزعج أخلد للنوم.. سوف تموت يوماً من هذا الكم المبالغ فيه من المخدرات.

ثم أغلقت عينيَّ واقتحمت عالم النوم ليجذبني هو بدوره في ثباته العميق.

* * *

اليوم التالي استيقظت حوالي الساعة الثالثة ظهراً.. كان هذا اليوم إجازة كعطلة رسمية للجامعة، ليس بسبب عيد الهالوين بالطبع، فمجتمعنا العربي لا يخصص إجازة لهذا اليوم كما تعلمون، فكالنت الحفلة سرية على نفقتنا الخاصة كنوعٍ من الترفيه العابث؛ فلا يوجد يوم جامعي يجبرني على الاستيقاظ مبكراً.

أول ما وقعت عيني عليه هو (مازن) وهو لا يزال جالساً في نفس وضعيته التي تشبه (بوذا) لحدٍّ كبيرٍ.. جامداً ببصره، لا ينظر لي لكنه ينظر للحائط الملتصق بفراشي.



استغرقت بضع دقايق أخرى لأتذكر مَن هذا وماذا حدثَ ليلة أمس.. كان مشهده مفزعًا مثل ليلة أمس لكن كم الإرهاق الهائل على عاتقي جعلني أتكاسل في ردود أفعالي، فحتى لو دخلَ الشيطان نفسه من الباب لهذه الحجرة.. لظللت نائمًا على فراشي وأنا أرمقه بملل أثناء تثاؤبي.

كان (مازن) ثابتًا في وضعيته كالتماثيل الشمعية القبيحة.. فلولا صدره الهابط والصاعد لقلت إنها جثة ميتة لا إنسان حي.

أراني أمس هذه الحلة السخيفة وقال إنه سيرتديها في حفل الهالوين.. هي عبارة عن زِيٍّ قُماشيٍّ للجسد كله لأرنب وردي اللون وقناعٍ ضخمٍ إسفنجي مُغلَّف بالأقمشة الخشنة، لوجه أرنب مبتسم في بلاهة يغطي رأسه كلّه.

أخبرته أن هذا الزّي صبياني لدرجة كبيرة وأنه سيجل منه مزحة يتم تناولها بين الأفواه الساخرة من منظره الطفولي.. لكني الآن أتراجع في كلامي، فهذه الجلسة الهادئة الصامتة قادرة على جعلك تصاب بالبارانويا فوبيا في زمن قياسي.. يعتقد أن هناك شخصًا يراقبك يخبئ وراء حلقه أطفال.

ألتقط بعض القطع النظيفة من ملابسي المبعثرة أسفل فراشي وجانبه، سائلًا (مازن)، إن ظل على

هذه الوضعية الليل بأكمله؟!

يبدو أنه أثقل في العيار المخدر هذه المرة، اعتدت هذه المواقف الغريبة من (مازن) بسبب اعتكافه الدائم على المخدرات؛ لهذا أفضل أن أتركه وحيداً ليفيق من غشاوته ذاتيًا.

ذهبت للحمّام الموجود في آخر الردهة للاستحمام.. فرائحتي قريبة جدّا من رائحة المجاري الكريهة أو أفواه الماشية التي يتاجر بها أبي.

فيجب عليَّ أن أكون في أفضل صوري عندما أعتذر ل (رنا) عن ليلة أمس.

دائمًا ما يجول ببالها أن علاقتها معي يسقط من نظرة احترام الآخرين لها.. لهذا لم تصادق أيَّ شابٍ قبلي.. لكنَّ نار الحب التي أشعلتها بيننا جرأتها على الناس وبالمثل معي، فكلانا نتشارك في الخجل الذي ساهم في تقريب قلوبنا، لكن لا يزال هذا الهاجس يحيط بخيالها ويضرب بكيانها في دويٍّ غليظٍ.

* * *

بعد ثلاثة أيام

مرت الأيام الثلاثة هذه ببطء وغرابة.. كان فيها (مازن) جامداً في هذه الوضعية العجيبة لا يتحرك ولا يحضر المحاضرات الجامعية صباحًا أو يشاركنا الطعام، فكلما كنت أدخل الغرفة كنت أجده في هذه الحالة الغريبة.

فكَّرت في تحريكه أو هزه بالطبع، لكن مَن يعلم نوع المخدر الذي تناوله، قد يعطيه هذا المخدر نوعًا من نوبات الهياج أو الغضب بمجرد لَمسِه، بالطبع لن أطلب له طبيبًا.. ليجد أنه مدمنًا للمخدرات فيقومون بحبسه وأكون أنا الأحمق الواشي على صديقه وينفر مني الجميع.. سيكون بخيرٍ، فلا داعي للقلق؛ فالأغلبية العظمى من الطلاب يفعلون مثله ولم يُصَب أحدهم مكروه، لذلك قررت تجنُّبه.. فأنا لا أجلس في الغرفة كثيرًا على أي حالٍ، فعندما يحين وقت المذاكرة أجتمع مع (أمجد) في إحدى القاعات أو غرفته هو لنساند بعضنا في المذاكرة.. فكما أخبرتكم (أمجد) لديه قدرة غير طبيعية في تنظيم وقته بين اللهو والمذاكرة.. وهذا ما يفتقده الجميع.

لكني لاحظت على حله (مازن) أن علامات الوسخ قد بدأت بالتشكل عليها بصورة واضحة.. بقع بنية

وخضراء تتشكل هنا وهناك، هذا بالطبع غير تلك الرائحة الكريهة التي تفوح منه.

حاولت أكثر من مرة محادثته ليتحرك.. لكن كل ما يفعله هو تحريك صدره صعوداً وهبوطًا لينبهني أنه لا يزال على قيد الحياة.

استمر هذا الوضع الغريب لثلاثة أيام وفي إحدى المرات التي دخلت فيها غرفتي لجلب بعض المتاع للمذاكرة.. لم أجده.

أخيرًا تحرَّك.. لكنه ليس بالغرفة! أتمنى ألَّا يذهب لنفس التاجر ليبتاع منه جرعةً إضافية من هذا المُخدِّر اللعين.. لكن على الأقل تخلصت من هذا التمثال كريه الرائحة الذي يرمق الجدار بإصرار كاد أن يثقبه.

* * *

بعد ثلاثة أيام أُخَر

كما مرت الثلاثة أيام الأولى و(مازن) جامد في حالة من الشلل المميت.. مرت ثلاثة أيام أُخَر وهذا الأخير مختفٍ تمامًا عن الحجرة..

هذا الفتى لديه رغبة طفولية طاغية على إثارة قلقي وبث الرعب في نفسي.. عندما كان موجوداً كان صامتًا بلا حركة أو كلام بطريقة موترة للنفس، والآن لقد اختفى عن نظر الجميع بطريقة حارقة للأعصاب، أتمنى فحسب ألا يصيبه مكروه.

* * *

في أحد أيامي المتشابهة بالجامعة وخاصة في محاضرة مادة الباثولوجيا.. طلبت من الدكتور الإذن بالذهاب للحمّام، وأثناء سيري في إحدى الردهات المتراصة بالحجرات من كل جانب المؤدية للحمّام.. لمحت بطرف عيني في إحد الحجرات مفتوحة الأبواب ظلًا لغراب يقف على إحدى النوافذ.. أمرٌ طبيعي وقد يحدث.. لكن هذا الغراب كان ضخمًا في حجم الكلب تقريبًا.

تراجعت للخلف في توجُّس بعد أن فوّتُّ هذه الغرفة، لأجدها فارغة تمامًا من أي حياة.. كل ما بها هي بضعة كراس متناثرة بعشوائية وصبورة



بيضاء كبيرة تغطي الجدار.. وخاصة على نفس الجدار الذي ظننت أنَّ به نافذة؛ فأكملت طريقي للحمَّام، قانعًا نفسي بأنه تأثير الظلام وانعكاس الضوء، لكن ما لمحته جعلني أتوتر بعض الشيء.

دخلت دورة المياه التي كانت تتكون من عدة أحواض لغسل اليدين وخمس كبائن للحمامات.. كانت دورة المياه فارغة تمامًا بطريقة مريبة.

لا يوجد بها أيُّ حركة أو صوت غير صوت تلك القطرات الصغيرة المتساقطة من أحد صنابير المياه في انتظامٍ.. فعند ارتطام قطرة الماء بالحوض تنتج صوتًا مزعجًا يتردد صداه في المكان كمعزوفة موسيقية سخيفة.

تقدمت لإحدى الكبائن فقضيت حاجتي واغتسلت ثم خرجت من الكبينة عازمًا على عودتي للمحاضرة –كأمرٍ طبيعيٍّ– لكن أثناء سيري ناحية باب دورة المياه.. سمعت صوتًا ينادي باسمي!! من أين هذا الصوت والمكان فارغ كصحراء؟ لكني لم ألاحظ شيئًا.. المكان بارد كالصحراء بالمساء أيضًا.

هذا الصوت الذي ينادي باسمي.. أنا أعرفه، إنه صوت (مازن)، لكن أين هو أو أين مصدر الصوت؟! الصوت يعلو ليزداد وضوحًا.. إنه قادم من الكابينة التي كنت فيها؟!!



أنظر لها من بعيدٍ لأجدها فارغة إلا من قاعدة الحمَّام الواقفة هناك بثباتٍ خلف بابها المفتوح، مُعلِنة تبرؤها من ظني، تقدمت ناحية الكابينة من جديد في حالة من التوجس وعدم الفهم لكن جسدي يتحرك بتلقائية الأحمق غير الواعي لما يحدث.. وبمجرد دخولي لها.. انغلق الباب من خلفي!!

لا أعلم ماذا توقعت لأجده بها.. هل سأجد رأس (مازن) وهي تخرج من قاعدة الحمَّام مثلاً؟!

بعد انغلاق الباب تلقائيًا خلفي بحركة مفاجئة.. سمعت صوت جميع أبواب الكبائن وهي تنغلق في لحظة واحدة.. مصدرة صوتًا عاليًا كفيلاً بأن يسمعه أبي في (البقاع)، ثم تردَّد صوتُ الباب الرئيسي لدورة المياه وهو ينفتح في بطءٍ وهدووووء مُصدِرًا ذلك الصرير المزعج من احتكاك مفاصل الباب الصدئ، في الأرجاء.. ثم دلف شخصٌ للمكان وينتشر الصمت معه كقاتلٍ يقضي على أي نوعٍ من الأصوات.. حتى صوت قطرات الماء توقفت، احترامًا له..

اقترب من الباب القابع أنا خلفه في خطوات بطيئة، لأحاول الإصغاء لما يحدث في الخارج.. كل ما كنت أسمعه هو أصوات أنفاس أحدهم، لكنها لم تكن



طبيعيةً حيث كانت أنفاسه مقاربة لصوت الحشرجة العالية.

كان صوتًا عجيبًا لا يمتّ للبشر بصلة، أصابت جسدي رعشة قوية من العدم جعلتني أتخبط بالباب في حركات سريعة خفيفة، ليصدر صوتًا خافتًا جداً في أثري.. لكن مع هذه الطبقات من الرخام والسيراميك على الجدران والأرض بجانب هذا الصمت المدوي.. تجعل للتفكير صوتًا فما بالكم بالحركة.

كما لو أن هذا الشخص انتبه لوجودي في هذه الكابينة وبدأ يتقدم نحوي في سرعةٍ أكثر.. بدأت الأضواء تتراقص بشكلٍ متسارع هي الأخرى مزيدة للطين بلة، حتى لاحظت ظلًا عملاقًا يغطي الكابينة الصغيرة المحتجز داخلها، خائفًا مترددا من المجهول.. هذا الظِلّ لا يَنُمّ أبداً عن كائن آدمي.. فهو ينم عن عملاق غير بشري يقترب ناحيتي ويغطي الحمّام كله بجسده الهائل.

تراجعت للخلف في قلة حيلة منّي.. لا أعلم ماذا أفعل أو كيف أتصرف؛ لذلك حاولت أن أؤمّن نفسي، فألتقط الرّخامة الثقيلة الموضوعة فوق قاعدة الحمّام متسلحًا بها، بعد أن أغلقت قفل الباب الصغير.



صوت الحشرجة يتعالى، رعشة الأضواء تزيد، دقات قلبي تتسارع مجارية للأحداث، صوت أقدامه تقترب في بطء.. حتى أخيرًا وصل العملاق لأمام باب الحمّام، كنت أنظر لأعلى سعيًا في رؤية وجهه، لكنه لم يظهر.. إذًا ما سر هذا الظل العملاق والخطوات المتثاقلة؟

وقبل أن أكمل محاولاتي الفاشلة في تفسير ما يحدث.. بدأ هذا الشخص بضرب الباب.. رغم صلابة الباب وحداثة تركيبه لكنه كان يهتز في قوة من أثر الضربات.. ظلّ يضرب ويضرب وصوت الضربات يدوي في المكان.. حتى سقط الباب من مفاصله أمام دهشتي!!

كيف لم ينتبه أحدهم بعد لهذا الضجيج؟! كيف لم يتدخل أحدُ العمّال ليتفقد الأمر؟! هل أنا أتخيل هذا الموقف؟! أم أن الجميع يكرهني لدرجة عدم الالتفات لغيابي أكثر من نصف ساعة في الحمّام؟! الكل لديه من يكرهه، فحتى الملائكة تكرهها الشياطين.. لكن إذا غابت الملائكة ستقلق عليها الشياطين بدورها!.. صددت سقوط الباب بيدي قبل أن يهوي على رأسي لأرى أبشع مشهدٍ رأيته في حياتي.

كان رجلًا.. لا لا.. لم يكن رجلًا.. فالوصف التالي لا ينم إلا عن شيءٍ أجهل تصنيفة كان شيئًا ضخم الجثة،



من ضخامته كادت رأسه لتصطدم بالسقف.. لا أعلم كيف لم أرَه وأنا داخل الكبينة، كما لو أنه يزداد ارتفاعًا مع الوقت، كانت ملامح وجهه آية في التشوه والبشاعة.. لا تتقدم بضعة سنتيمترات على جبهته إلا وتجد نفسك متعرقلًا في جرحٍ أو جلدٍ محترقٍ.

كان يرتدي عباءة عملاقة تغطي جسده بالكامل إلا وجهه ويديه.. كانت يديه هي الأخرى لا تختلف في الوصف عن وجهه وكأن جسده بالكامل ناتج من حادث حرق أو اصطدام سيارة مريع.. لكن لا أعرف أيَّ نوعٍ من السيارات قد تؤذي هذا الوحش.. فضخامة جسدة تنم على أنه سيشعر ببعض الصداع الخفيف ليس أكثر، إذا ارتطم به قطارٌ بخاريٌّ.

هنا خرجت صرختي رعبًا من مشهد هذا المسخ تقدم نحوي ليمسك بي.. فركضت نحوه قافزًا كقطة وأنا أهوي على رأسه بقطعة الرخام الثقيلة لتتهشم من الضربة، لا أعلم من أين أتيت بهذه الشجاعة لكن على الأقل ضربتي جعلت هذا الوحش يتراجع مترنحًا للخلف قليلًا، لم تفقده الوعي بالطبع، لكنها على الأقل أعطتني مساحة للهرب، فركضت من الكابينة ثم من دورة المياه بأكملها وهذا الوحش يعوي في غضب كما لو أنه أضاع عشاءه لليلة.



عندما خرجت من الحمّام كان الظلام قد حلّ.. لم يعد لدي الوقت لأتفاجأ.. فظللت أركض حتى وصلت لأقرب حارس أمن ليليٍّ في الجامعة، حمداً للّه أنه لم يكن مذبوحًا أو مبعثر الأحشاء على الأرض كما في أفلام الرعب، فطلبت منه أن يركض بحياته.. فهناك (جودزيلا) يلاحقني.

بدت على الحارس علاماتُ اللامبالاة، فهو معتادٌ على سخرية الطلاب منه ومقالبهم المزعجة، لكن فجأة.. سمعت صوت تحطيم زجاج قادماً من الردهة التي كانت تقبع بنهايتها دورة المياه الملعونة تلك.

هنا تحرَّك الحارس أخيرًا بعد أن اقتنع بكلامي.. فطلب مني الانتظار هنا ريثما يتفقد هو الأمر بدون أن يطلب منّي.. فأنا لن أقترب لهذا الحمَّام مرةً أخرى ما حييت لحظة واحدة.. لكن لماذا هذا الصوت الوحيد الذي سمعه الحارس؟.. لماذا لم يسمع صوت ارتطام الباب أو صراخي؟!

جلست على الأرض ساندًا ظهري لأحد الجدران لأستريح قليلًا وأنظم أنفاسي بعد ما مررت به حيث كان الحارس يتقدم مُشهِراً سلاحه بيده اليمنى، وبيده اليسرى يمسك بكشافه الكهربي الصغير، في مشهدٍ لا تعلم إن كان ينم عن حماسة المسدس لإيقاف الخطر مهما كان، أو ينم عن جُبنِ الحارس واحتمائه خلف قوة مسدَّسه.



دفع باب الحمّام بساقه وأنا أرمق تحركاته من موضعي، لأهبَّ واقفًا مستعداً للركض مرة أخرى لكنَّ الحارس أخفض سلاحَه وأعاده لحافظته في جانبه وعاد إلى مجلسه الأول في هدوءٍ وهو يضرب كفًا بكفٍّ في تأفف وعلى ملامحه نوع من الغضب، فعندما اقترب منّي هبَّ عليَّ بكمٍّ كبيرٍ من الإهانات على صبيانية عقلي وطفولة تصرفاتي وظلَّ يلعن الأموال التي سمحت لأمثالي بدخول هذه الجامعة، ثم لعنَ نفس الأموال التي تجبره على العمل في هذا المكان، بنفس وتيرة عدم الرضا المعهودة.

ألم يجد شيئًا حقًا؟!.. هل يتهمني بالعبث معه؟! لكن ما هذا الصوت الأخير وأين اختفى الوحش؟! ألم يلاحظ باب الكابينة المكسور على أقل تقدير وقطعة الرخام المهشمة؟!

أمرَني الحارس بالعودة لسكن الطلاب قبل أن يتسبب في فصلي.

فرجعت هذه المسافة لغرفتي وأنا أركض كالسهم وسط الظلام الحالك، محاولًا عدم التعثر من هرولتي المغطاة بشبح الخوف.. حتى وصلت أخيراً لغرفتي.




لا أعلم المانع الذي يعيق هذا الوحش من الهجوم على في غرفتي.. لهذا طلبت (أمجد) عبر الهاتف المحمول أن يجلب أغراضه ويأتي ليبيت معي الليلة.. لا أعلم أيضًا العقبة التي تمنع الوحش من الهجوم على كِلينا وينعم بوجبة عشاء مُضاعَفة؟! لكن هذا هو الحلُّ الوحيد الذي جال في خاطري، فربما يحترم ذاته ويتصرف كوحوش أفلام الرعب التي لا تهجم إلا على الصِّبية العُزل.. هل رأى الوحش تلك الأفلام ويلتزم بقواعدها؟

* * *



اليوم التالي

لا أعلم كيف نِمتُ.. أو كيف غفَتْ عيني حتى؛ فما شاهدته ليلةَ أمس كفيلٌ بجعلي مستيقظًا لشهر على الأقل، (فأمجد) له طريقته الخاصة في جعلي أتناسى همومي الشخصية وننشغل بهموم حياتنا اليومية كالدراسة أو الفتيات.

بالطبع لم أخبره بما رأيت.. فأنا نفسي لستُ مُدرِكًا له لوصفه ل(أمجد) بدوري.. فالأمر يبدو –بشكل أكثر منطقية– أني غفوت في الحمَّام بطريقة أو بأخرى وكلُّ ما رأيته ليس إلا كابوس مزعج اختلط بالواقع، فحتى التفاصيل غائمة، تبهُتْ مع الوقت في عقلي تمامًا كالحلم، إذًا فالاستنتاج المنطقي لما حدث هو غفوتي.

* * *

كانت ملامح هذا الموقف –أو هذا الكابوس كما أحب تسميته– تُمسَح بالتدريج من ثنايا عقلي المنشغل بالتركيز مع كلمات الأساتذة المعقدة في الجامعة.

لكن فجأة وفي منتصف اليوم الدراسي.. انتشرت الصيحات وأصوات الصرخات المرعوبة، ناهيك عن الأقدام المتسارعة من خارج مدرَّج المحاضرة الجالس



فيه.. أثارت هذه الأصوات فزعَ الجميع؛ فمِن الممكن أن يكون هنالك حريقٌ أو زلزالٌ.. فبَيْن ثانية وأخرى – كرد فعلٍ طَبيعيٍّ– تحوَّل المدرج الجالس فيه من آية في النظام والهدوء إلى ما يشبه أسرابَ البطاريق التي تركض في كل اتجاه وبلا هدفٍ.. فقط نركض بتوتر.

ركضت للخارج حتى وجدت تجمعًا هائلاً من الناس عند إحدى دورات المياه ورجال الأمن يدفعونهم للخارج، فعندما اقتربت آملًا في محاولة يائسة لاختلاس النظر إلى الشيء الذي يُسبِّب كل هذه الفوضى لم أنجُ طبعًا من أيادي رجال الأمن الدافعة للخلف وبعض الأقدام التي تهرس قدمي وتشبع حذائي بالأتربة.

لكن بمساعدة التدافع الشديد من الطلبة لداخل الحمَّام.. استطعت أن ألمح ما بالداخل.. كانت لمحة قصيرة لكنها كانت كافية ليقف شعر رأسي محاكيًا لقلبي من الرعب، وجدت (مازن) وهو ملقى على أرضية الحمَّام، غارقًا في بحيرة من دمه.

* * *



بعد شهر

كنت أقضي أيامي في تحقيقٍ دائمٍ مع جهات الشرطة باعتباري أقرب شخص إلى (مازن).. لكني كنت دائمًا أخرج من عندهم بدون أي إجابة راضية لهم.. فكُلُّ ما أخبرتهم به هو الحقيقة ليس إلا، (مازن) ظلّ ماكثًا في غرفته لثلاثة أيام، ثابتًا هادئًا في مكانه كالصنم مرتديًا تلك الحلة السخيفة عن الأرنب الوردي، وبعد ثلاثة أيام أخرى اختفى بلا أثرٍ في الجامعة كلها، ليظهر في اليوم السابع من تصرفاته الغريبة تلك وهو مقتولٌ في الحمّام في بِركة واسعة من الدماء.

كانت كشوف الغياب في المحاضرات دليلًا يؤكد كلامي على اختفاء (مازن) لأسبوع تقريبًا.. وكانت (رنا) هي الدليل على ثبات (مازن) في وضعيته بحُلة الأرنب لأنها الوحيدة من رأته معي بالغرفة، حيث لا يزورني أحد في غرفتي أغلب الحال.. وكان (أمجد) هو الدليل على اختفاء (مازن) تمامًا من الغرفة عندما نام على فراشه ليلة مشاهدتي لل(كابوس).

اقتنعوا تمامًا بعد تحقيقاتٍ طالت لشهرٍ متواصل مع كل مَن في الجامعة أني بريءٌ مِن قتله، كانوا يريدون تثبيت التهمة على عاتقي باعتبار أني زميله في السكن ودائمًا ما كنت أُشهِر عن



كراهيتي لهذه الشراكة، لكن هذه الكراهية قد تودي بالسباب، الشاجرة، أو حتى الإهانة، لكنها لن تستدعي أبداً القتل.

* * *

كنت جالساً في مكتب التحقيقات لقسم الشرطة لهذه المدينة عندما دخل عليَّ ذلك الضابط البغيض الذي كان يحاول بشتى الطرق وضع اسمي جانب خانة القاتل، كما لو أنَّ بيني وبينه عداءً شخصيّاً أو ثأراً باهتاً، جلس إلى المكتب وبيده ملف كبير نوعاً ما، وضع الملف على طاولة المكتب واعتذر لي وفي عينه شيءٌ من الإحراج عن كل الوقت الذي أضاعه عليَّ، وأن القضية ستختم ضد مجهول.

قلت متنهداً في راحة:

– أخيراً سأنعم بهدوء منكم وأعاود الالتفات لدروسي التي أضعتم عليَّ منها الكثير.

قال الضابط متجاهلًا جملتي الأخيرة مشيراً إلى الملف في جدية:

– هذا الملف يحتوي على كل تفاصيل القضية منذ فتحها حتى الآن.



أريدك أن تتطلع عليه بشكلٍ كاملٍ وشاملٍ الآن قبل أن أختم عليه بختم (قضية منتهية) أمام عينك.

نظرنا لبعضنا البعض نظرات طويلة ذات معنى، حتى تناولت الملف في تأفُّف وأنا أبدأ في قراءته من البداية باستسلام

«اسم الضحية: مازن محمود السيوفي. السن: عشرون عامًا، نوع الجريمة: قتل

وقت اكتشاف الجريمة: الساعة الواحدة وثلاث وعشرون دقيقة ظهرًا في دورة المياه بالدور الثالث من أحد المباني في الجامعة الأمريكية ببلبيس بالعاصمة (بيروت).. يوم (......)

تصوير مسرح الجريمة:

الضحية ملقاة على الأرض في وسط أرضية دورة المياه وحولها بِركة ثابتة من الدماء.. كانت دورة المياه فارغة تمامًا من الطلاب وجميع أبواب الكبائن مغلقة.. كل المرايا في المكان تم تهشيمها.

بعد رأي المعمل الجنائي استنتجنا الآتي:



الضحية لم تقتل في هذا المكان بل جُرّت أو سُحِبَت إليه.. البصمات كثيرة جدّا في المكان؛ لأنه دورة مياه عمومية للطلاب؛ فبالتالي التوصل للجاني أمرٌ مستحيلٌ.. لا توجد أيُّ بصمات على الجثة أو ملابسها أو الزجاج المهشم.. لا وجود لأي سلاح للجريمة أو أي دليل في مسرح الجريمة الحقيقي.

الجثة كانت تحت تأثير نوعٍ مُعيَّنٍ من المخدرات لم يتم التعرف عليه.. لم تُبدِ الضحية أيَّ نوعٍ من أنواع المقاومة للقاتل، (ربما يكون بفعل المخدر).. الضحية ماتت بسبب السكتة القلبية.. لا كدمات أو خدوش أو جروح على الضحية وجسده سليم تماماً إلا من ندبة بالمعدة نتيجة عملية بالزائدة قديماً.. الدماء المتجلطة حوله كانت جرعات دماء مختلطة بين القطط والجرزان والكلاب.. الضحية ميتة منذ سبعة أيام من وقت اكتشاف الجريمة»

هنا توقفت قليلًا عن القراءة ووجهت حديثي للضابط الذي كان جالسًا يدخن سجائره وهو يراقب ردود فعلي.. فسألتُه عن كيفية كون (مازن) ميتًا منذ سبعة أيامٍ من وقت اكتشافه في دورة المياه وهو كان جاسًا في غرفتي لثلاثة أيام في نفس تلك الفترة.. فأخذ الضابط نفسًا كبيرًا من سيجارته وقال وهو ينفث الدخان:



– هل رأيت وجه (مازن) من أسفل القناع يا (فادي)؟

– لا.. كانت الحلة تغطي ملامحه بالكامل.

– إذا فلدينا هنا استنتاجان، إما أن (مازن) كان ميتًا في وضعية التخشب ثم قام القاتل لغرض لا أفهمه بنقل الجثة من غرفتك إلى دورة المياه بعد أن أخفاها لثلاثة أيام.

قاطعته قائلًا ملوحًا بيدي علامة النفي:

– لا لا.. لقد رأيت صدره وهو يتحرك صعودًا ونزولًا علامة على التنفس.

– ربما قد تكون توهمت هذا وإذا لم تفعل.. نعود للحل الآخر وهو أن القاتل نفسه هو من كان معك في الغرفة ويراقب تحركاتك لينفذ جريمته التالية.

ازدادت عيني اتساعًا من الدهشة من كلامه، هل حقًّا قضيت ثلاث ليال مع قاتلٍ مختلٍ؟ يقتل شريكي في الغرفة بدمٍ باردٍ ثم يجلس على فراش ضحيته كما لو أنه لم يزهق روحًا بشرية للتو! لكن لم كان في هذه الحالة العجيبة من الجمود على أي حالٍ؟ فحتى لو كان القاتل مريضَ توحُّد.. لن يظل جالسًا صامتًا ينظر للحائط كما لو أنه يراقب الكون من مجلسه، ابتلعت ريقي ثم أكملت قراءة الملف:



«بعد استجواب الكثير من العاملين والطلاب.. قالوا إنهم لم يلاحظوا أي تغيير على الضحية قبل موتها، كما أكدوا أن الحمام كان طبيعيًا وخاليًا من أي شيءٍ مريبٍ، وبعد شهر من التحقيقات سيتم غلق القضية بتاريخ اليوم.. تحت إشراف الضابط (طارق ميشيل)»

تعجبت هنا من نقطة أنهم استجوبوا العمال.. ماذا عن حارس الأمن في تلك الليلة التي رأيت فيها المسخ؟! ألم يتحدث عن تصرفي الغريب في الليلة التي سبقت اكتشاف جثة (مازن) في نفس الحمّام!! أنا لم أخبر الشرطة أو حتى (رنا) و(أمجد) عمّا شاهدته تلك الليلة خشية من اتهامي بالجنون.. لكن صمت الحارس يؤكد أن ما رأيته كان كابوسًا.

ظللت أدقق في الصور المصاحبة للملف من صور مسرح الجريمة والأدلة القليلة جدًا.. هذا بالطبع غير ملف التحقيقات الخاصة بالضابط معي ومع أصدقائي والجامعة بأسرها ثم نظرت للضابط وأنا أسلمه الملف معلنًا أنه ليس لدي ما أضيفه بعد قراءة الملف.

فتناول الضابط الملف، ليقول بوجهٍ باردٍ، إنه يمكنني أن أرحل الآن.. لكنهم سيعينون عليّ حراسة لمدة أسبوع لأنه يرى أن سلامتي في خطر.





فنهضت عائداً للسكن الجامعي أخيراً وللمرة الأولى لا يقول الضابط لي «سنطلبك بعد غدٍ لاستكمال التحقيق».

* * *



اليوم التالي

أخيرًا بعد انتهاء القضية أصبح أي شخص قادرًا على فتح دولاب (مازن).. حيث كان مغلقًا بأمرًا من الشرطة ومنع أي شخص من العبث به، أخبرت أهل (مازن) بمصر أن القضية قد أغلقت عبر الهاتف المحمول.. لاحظت الحزن الممزوج بفقدان الأمل الطغيان عن صوت والدته.

لكنها طلبت منّي متحاملةً على حزنها تجهيز اشياء (مازن) في حقائبه وسيسافر أبوه للجامعة غداً ليأخذها.. فوافقت على طلبها الصغير، إنه أمرٌ بسيطٌ ليس بمعضلة على أي حال.

* * *

فتحت دولابه بعد أن أخرجت حقيبة سفره المغطاة بالأتربة من أسفل فراشه ووضعتها على نفس الفراش المقابل للدولاب،كانت الأتربة تغطي رفوف الدولاب والملابس بشكلٍ كبيرٍ يجعلك لا تميّز بين الملابس والمتاع الأخرى.. بالإضافة إلى أن الدولاب مبعثر بشكلٍ كبيرٍ؛ فليس (مازن) هو السببُ بل هي الشرطة التي عبثت بأغراض كلينا بحثًا عن دليلٍ أو شيءٍ من هذا القبيل..في الواقع إن الغرفة كلها في حالة ممزوجة بين الفوضى والأتربة.



بعد نصف ساعة قمت بوضع كل ملابس (مازن) في حقيبته ووضع كل كتبه وأغراضه المختلفة في حقيبة ظهره الكبيرة وأصبح الدولاب خاصته فارغًا تمامًا.

بحثت في كل الأرفف حتى توقفت لثوانٍ عند الرف الأرضي.. قطعة الخشب الملامسة للأرضية تتحرك!! عبثت بها قليلًا حتى تمكنتُ من اقتلاعها تمامًا ووجدت أسفلَها بعضَ الأشياء، عجزت عن رؤيتهم بفعل الظلام بدورهم.

أخرجت هذه الأشياء واحدًا تلو الآخر.. كانت عبارة عن كتابين متوسطي الحجم، وكيس بلاستيكي صغير شفاف به شيءٌ متناثر يشبه الرمال حتى نصف الكيس لكنني استنتجت أنه نوع من البخور العطري بسبب رائحته، وخاتم فضي ذو حجر أسود داكن.. كل هذه الأشياء كانت مغلّفةً بأتربة أكثر من التي وجدتها في الدولاب.. كما لو أنها مدفونة في مكانها منذ أشهر.

توقفت للحظة وأنا أفكر في ماهية هذه الأشياء.. وهل هذه الفتحة كانت سرية في الدولاب صنعها (مازن) بنفسه؟! حيث أن دولابي لا يحتوي على تجويف كهذا.



أزحت الأتربة عن الكتابين اللذين كان غلافاهما ذوي لونٍ أسود داكن فيما عدا عنوان الكتب كانت بلونٍ أحمر، قرأت عناوين الكتابين وأصابتني بعدها رعشةٌ قويةٌ زبزبت الدم في عروقي وخاصة مع ملمس غلافي الكتابين الغريب.. كانت العناوين (عوالم الظلام، أصول التحضير والعبادة)

كانت على هذين الكتابين علامات القدم الشديد في سواء على الغلاف المتآكل أو الصفحات القريبة للون الأصفر المتهالكة المكتوبة بخطِّ اليد ليست ناتج آلة كاتبة كعادة الكتب المعهودة اليوم أو تماسك الصفحات ببعضها.. حيث كان هناك عدة خيوط رفيعة هشة تحاول جاهدة أن تمسك بصفحات الكتاب ببعضها.

لا أعلم لماذا جال بخاطري أن هذه الكتب حقيقية؟ قلبت بين صفحات الكتب لأجد أنها ليست رواية في أدب الرعب من نوعيات روايات (ستيفن كينج الشهيرة.. بل هي كُتب مقالية تشرح وتوضِّح ما تتكلم عنه عناوينها وأمور مختلفة وما أكَّد وجهه نظري هو قراءتي للتمهيد في أول كتاب (عوالم الظلام).

«لن يتم تقديم أيِّ نوعٍ من التحذيرات أو التنبيهات بعدم العبث مع كل العوالم الموجودة في الكتيب لأنك ستدرك تماماً أنه ليس بمزحة.



إقبالك على اقتناء هذا الكتاب يعني أنك راغبٌ في معرفة هذه العوالم أو خوض تجربة الانحضار بها، ولكن أعلم أن هذه العوالم لها القدرة على معرفة مَن يحاول العبث بها وستفعل أيَّ شيءٍ لتبقي أنفسها مخفية عنك.. فإذا لم تحصِّن نفسك فاعلم أنك ستراني –أنا مترجم هذا الكتاب– في عالم الموتى قريبًا»

أنا لست بمكذب أو مصدق لعالم الأرواح والظلام هذا.. أنا فحسب أسمع عنها في الأفلام والسنيما فقط وأعتبرها أفلامًا خيالية ولا أنظر لها نظرة التدقيق في الأصل أبدًا، فلو دققت نظري في عوالم الأفلام الخيالية لوجدتني الآن أسأل.. متى اندلعت (حرب النجوم)؟! أو أين تقطن مدينة (جوثام)؟! أو حتى لماذا لم يقتلني (فريدي كوجر) في نومي حتى الآن؟!

لهذا أنظر لعوالم الظلام على أنها خيال فقط، لكن؛ أليس لكل خيال لمسه من أرض الواقع!!

* * *

استيقظت من نومي وأنا أشهق وأكاد أخرج كُلَّ ما في معدتي من سوائل، لقد رأيتُه من جديدٍ.. ذلك المسخ مرة أخرى.. رأيته في حلمي، جلستُ على الفراش وأنا أتنفَّس بصعوبة شديدة في ظلام



الغرفة، مفكرًا فيما رأيت.. أعجز تمامًا عن تذكر الحلم لكني متأكد من احتوائه على نفس المسخ المرعب هذا.

أثناء شرودي محاولًا تذكُّر الحلم.. سمعت صوتًا باهتًا قادمًا من خارج غرفتي، كان صوتًا لشخصين يتبادلان أطراف الحديث، كان الكلام بينهما مشوشًا أعجز عن تمييز كلمة واحدة مما يقولانه، كان الصوت قريبًا كما لو أنهما يقفان على عتبة باب حجرتي.

من هذان الشخصان المزعجان الواقفان يتحدثان أم...

مهلًا لحظة!! تذكرت هنا كلمات الضابط الذي أخبرني أن حياتي معرضة للخطر هي الأخرى.. هل يمكن أن يكون هو القاتل يتفق مع شريكه قبل الهجوم عليَّ.. يجب أن آخذ حذري لكن ماذا بيدي لأفعله؟!

الغرفة مظلمة تمامًا ولا يوجد سوى ضوء ضعيف جدًا قادم من أسفل عتبة باب الحجرة يعطيني القدرة على تمييز معالم الغرفة.. لكن مهلًا!! ما هذا الكيان الجالس أمامي على فراش (مازن)؟!



دققت نظري حتى تبينت معالمه في الظلام تقريبًا.. إنه أرنب عملاق يجلس القرفصاء ساندًا ظهرة للحائط الملتصق بالفراش!! أعتقد أنكم تعلمون ما هذا أكثر مني.. لكن ما جعل الخوف ينتشر في جسدي كالأكسجين هو ذلك الحديث القادم من خارج الغرفة.. أحدهم لديه صوت (مازن)!!

لا لا لا ما الذي يحدث هنا؟!.. هذا مستحيل.. (مازن) مات وملابس الأرنب تلك لم يتم العثور عليها بعد، ما الذي أفعله الآن؟ إنني محاصر من داخل وخارج الغرفة.

فجأة بدأ باب الحجرة ينفتح والضوء ينتشر بسرعة رهيبة ليغزو الغرفة متحديًا الظلمة في معركة محسومة النتائج.. أما أنا فقد وضعت يدي أمام رأسي لحماية وجهي، مرتجفًا كما لو أن تصرُّفي هذا سيحميني أو سيثير تعاطف القاتل على حالتي التي يرثى لها ليتركني بسلام.. ليس من عادتي الجبن أو التهاون هكذا لكن الخوف يشل العقل ويجعله عاجزًا عن اتخاذ القرار الأنسب في هذه المواقف.

بعد بضع دقائق لا أعرف عددها لأنها مرت علي كالعقود، أنزلت يدي من أمام وجهي لأرى الغرفة الفارغة تمامًا والباب مفتوحًا على مصراعيه.. نهضت وأنا غير مدرك لما مررت به للتو لكني



لمحت شيئًا يتوهج بلون أحمر قادمًا من الكيس البلاستيكي الموضوع بجانب فراش (مازن) على الأرض.

تقدمت ناحية هذا الكيس وأخرجت ما كان يتوهج به.. لقد كان هذا الخاتم ذا الحجر الأسود الذي وجدته في قعر دولاب (مازن)، لكنه الآن يتوهج بالأحمر.. ثم قلَّ هذا التوهج تدريجيًا ليعود للونه الأسود الهادئ من جديد.

توجهت ناحية الباب لأغلقه وأشعل نور الحجرة الخاص.

لو كنت مركزًا بعض الشيء لتذكَّرت أني أغلقت باب الحجرة من الداخل بالمفتاح كعادتي قبل النوم.. لكن لا وقت لهذا الآن؛ فعليَّ التأكد من شيء مهم.

كنت قد وضعت الخاتم والبخور والكتابين في حقيبة بلاستيكية لتسليمهم لوالد (مازن) غداً.. لكني أتذكر عندما كنت أقلّب في صفحات كتاب (أصول التحضير والعبادة) صباحًا أني قرأت كلمة (حجر) وكلمة (توهج) بطرف عيني فظللت أفر بين صفحات الكتاب حتى عثرت على عنوان فصل مكتوب عليه (حجر الميردن)، كان هناك الكثير من المعلومات عن مكان إيجاد هذا الحجر حول العالم



ومتى بدأ استخدامه وكيفية الحفاظ على سره عبر التاريخ والكثير من المعلومات التي لا تهمني.. حتى وصلت للوظيفة.

«للحجر قدرة فريدة على معرفة التغيرات بين العوالم لم يستطع علماء الجيولوجيا تفسيرها بعد.. وله استخدامات عديدة مثل التتبع والحماية والإنذار من كائنات العوالم الأخرى، وذلك عن طريق التوهج والألوان الدائمة، فأذا كان حامله في وضعية الأمان فالحجر يتوهج باللون الرمادي، اللون الأسود يعني أن حامل الحجر مراقب، اللون الأصفر يعني أن الحامل في حراسة من قبل حدى الكائنات، اللون الأحمر يعني أن الحامل يتعرض لهجوم.. والفارق بين التوهج واللون الدائم هو أن التوهج يعني حالة عارضة مثل الهجوم أما اللون الدائم هي تعني حالة دائمة مثل المراقبة أو الحماية»

ابتلعت ريقي وأنا أشعر بكل رعب الدنيا بعدما أغلقت الكتاب متوقفًا عن القراءة.. هل كنت أتعرض لهجوم من كائن من عالم الظلام منذ قليل؟!

* * *



بعد أسبوع

انقلبت حياتي رأس على عقب بكل بساطة من الطالب شبه المجتهد الحريص على مستقبله ورفع رأس والده، إلى مجنون قضى آخر أسبوع من حياته في قراءة كتب السحر والتحضير.. اعتكفت بشكلٍ كامل في غرفتي أنهم بالقراءة الطاغية على هذه الكتب، كنت أذهب للمحاضرات كعادتي صباحًا حتى لا يشك أحد في تصرفي خاصة أن هناك حراسة –أو مراقبة كما أفضل تسميتها– عليّ من الشرطة.. لكن عند انتهاء اليوم الجامعي أبقى مختبئًا في حجرتي مدعيًا المذاكرة ومتجنبًا مجالس المذاكرة الجماعية مع (أمجد).

لقد فهمت الكثير من هذه الكتب.. وكانت هناك بعض الثنيات في بعض الصفحات من كتاب (أصول التحضير والعبادة) فهمت بعد ذلك أن (مازن) أدّى الطقوس المروّعة الموجودة في هذه الصفحات.

كيف علمت؟! بكل بساطة اقرأوا المقطع التالي معي:

«وإذا فشلت طريقة التحضير سيكون المارد في حالة من الغضب العارم ويجب إرضاؤه، وفي أغلب الوقت يكون رضاه كامنًا في القربان –إلا إذا اختلفت



رغبة المارد–.. وإذا لم يرضَ المارد عن البشري، سيقتله بطريقة موحّدة وعنيفة وهذه الطريقة هي:

١– السجن داخل الجسد، أي يكون الشخص واعياً لما حوله لكنه غير قادر على التحرك ويفقد كل مشاعره الإنسانية سواء الجوع أو النعاس أو قضاء الحاجة.

٢– مشاهدة سكان عالم المردة، وهنا يختفي البشري عن عالم البشر ليرى الجحيم.

٣– ترك الجسد ميتًا مع طريقته الفاشلة لإرضاء المارد.

ويحتفظ المارد هنا بروح البشري ليتغذى عليه بعدما يتوقف قلب البشري من الخوف.

٤– تختلف فترة كل مرحلة حسب قوة التحمل الشخصية للبشري.

أفهمتم الآن!! (مازن) –صديقي العزيز– قام بتحضير مارد من عالم الظلام لا أعلم لماذا.. ربما لينتقم من أحدهم أو ليستعبد لهذا المارد حتى، فكل شيء بشع محتمَلٌ الآن، وعندما قدم هذا الأخير قربانه للمارد لم يرُقه هذا فنفّذ انتقامه.. ويبدو أن دماء



القطط والكلاب المبعثرة حول جثة (مازن) وقت اكتشافه في الحمّام هي كانت ذلك القربان الخاطئ.

في الواقع أنا لم أتعجب كثيرًا من تصرف (مازن) هذا..

لو أخذتم رأيي.. فأنا أتوقع أن (مازن) له مستقبلٌ باهرٌ كبلطجي في الأزقة أو تاجر مخدرات لا علاقة له أبدًا بكلية الطب البيطري؛ فما المانع إذًا أن يكون عابدًا للشيطان.

ذكر لي مرة أثناء نوبات ثرثرته العجيبة، أنه مسلم الديانة –فقليل ما نتحدث عن الديانات بيننا– لكن هذا يضع احتمالية مؤكّدة على وجود كتاب القرآن الكريم أو سجادة الصلاة –على أقلّ تقديرٍ– في دولابه الذي أفرغته من المتاع حتى بطانته لكني لم أجد ولو ورقة واحدة تدل على تدينه أو انتمائه لأي ديانة.

لقد لاحظتم بالطبع أني لم أسلّم الكتابين والمتاع الأخرى لوالد (مازن).. فبَعد علمي أني تعرضت للهجوم من ذلك المارد، عليّ أولًا أن أحصّن نفسي من هذا الشر، لهذا ظللت أقرأ في الكتابين لمدة أسبوع حتى عرفت كيف أتصرف وقد حان الوقت لمحادثة مع هذا المارد بشكل رسمي!



* * *

هذا القرار ليس بالهين.. أنا –و بكل ما تحمله الكلمة من معنى– مُقبِلٌ على الانتحار، لكن في كل الأحوال هناك كيانٌ لا يَمتّ لعالمنا بصِلَةٍ يراقبني وهاجمني مرتين وقد يفعَلُها من جديدٍ، فإذا سلمت مرة منه لم أسلم التالية، وإذا سلمت بالتالية، ستكون اللاحقة حتمية بلا نقاش؛ لذلك أفضّل أن أموت بجزء من المواجهة.

نحن الآن الساعة الثانية بعد منتصف الليل فيِ حجرتي وكل طقوس التخاطب مُجهّزة كما ذكرَ الكتاب.. فهناك فصلٌ يُسمّى (التواصل مع المتعقب) واصفت حالتي تماماً؛ لذلك قمت بهذه الطقوس بدِقّةٍ تامةٍ؛ فأنا أحاول التشبث بالحياة وألا تكون نهايتي مثل (مازن).

رسمت نجمة سداسية صغيرة على الأرض باستخدام نوع البخور الموجود في الكيس.. وضعت شمعةً عطريةً سوداء سميكة على كل طرفٍ من أطراف النجمة.. ثم ثبتت مرآة متوسطة الحجم مستطيلة الشكل لتلتصق بالحائط ويظهر في انعكاسها باب الغرفة، والآن كل شيء جاهز.. لنبدأ..



كانت قطرات العرق تتجمّع على رقبتي وصدري من الخوف رغم أننا في الشتاء.. لم آخذ رأي أحدٍ فيما أفعله، في الواقع لقد انعزلت بشكل جزئي عن الناس، فأنا أعلم أني في خطرٍ ولن ينجدني سوى نفسي فلا داعي لجعل أصدقائي في خطر مثلي.

جلست القرفصاء أمام الدائرة والمرآة بحيث يكون ظهري مقابلًا للباب وأنظر بوجهي للمرآة بعد أن أطفأت نور الغرفة وأضأت الشموع السِّتّ، ضربت بيدي اليمنى على ذراعي الأيسر حتى ظهر العرق بلونه الأزرق المميز، فأمسكت بالمحقنة التي اشتريتها صباح هذا اليوم وغرست طرفها في ذراعي حتى امتلأت عن آخرها بدمائي، وبسرعة وضعت قطعة قطن طبي صغيرة مكان المحقنة بعد أن أزلتها من ذراعي.. لا تنسَ أني طبيبٌ وأجيد استخدام المحاقن – تقول الطقوس بأنها تحتاج لبعض دمائي ولكني بالطبع لن أمزِّق شراييني بسكين، فهذا مؤلمٌ وخطيرٌ قد يودي بحياتي قبل أن يفعل المارد.. لهذا جالت بخاطري فكرة استخدم المحقن فهو أقل إيلامًا وأسرع في استئصال الدماء– وضعت المحقنة الممتلئة بالدماء جانبي ثم بدأت في قراءة الطلاسم الموجودة في الكتاب والتي كانت محلولة التشفير.

«هريشتاكنيري يف ديفيري أنوني باري يف زيتش أنوني باركاني في دزنوكوش أنوني بس خندروم



يم فورمخناستو باتاسخانيل إم خيمداركني مر ميجيف بولور أوختيري أنونوف يتس ليسوم أنديز تفيك أنشان»

نُطق هذه الكلمات كان في غاية الصعوبة، وأعلم أن النطق الخاطئ لها قد يزيد المارد غضبًا ليس أكثر، فآمل أن يكون نطقي لها صحيحًا أو لم أنحرف كثيرًا عنه.

ذكر الكتاب أن هذه الكلمات سريانية الأصل لكن الحروف مكتوبة بين صفحاته بالعربية لتسهِّل النطق عليَّ، انتظرت دقيقة وأنا أنظر لأسفل حتى شعرت بنسمة هواء باردة ضربت ظهري مع تراقُص اللهيب على رؤوس الشموع في نوعٍ من التنبيه.. هذه هي علامة استجابة المارد، لا داعي للفرحة واستباق الأحداث فلا يزال لدي الكثير لأفعله.

أمسكت بالمحقنة وظللت أفرغ الدماء منها على الدائرة وأنا أرسم بعض العلامات والرمز أجهل معناها بدمائي، أنقلها من الكتاب بدقة، قارئًا تلك التعاويذ من جديدٍ بصوتٍ عالٍ:

«هارجيلي نيركان دوك أوزيغ يف أنورين يكا آسا، تي أنتروش يسس إندز هيتيفوم يف أنتروش يس بافورديل هارديزكفيل أندراز يتأسوم نعم إندز موميري مياتساريك»



مع آخر كلمة لي انطفأت جميع الشموع.. لا وقتَ للخوف.. ظللت متجمداً مكاني أحاول تنظيم نفسي وأقاوم رغبتي الدفينة في الصراخ أو الهروب من هنا، ثم عادت النيران تتلألأ في الشموع من جديدٍ ذاتيًا، كما لو أنها ترمقني في تشفٍّ على حمقي.. لا وقتَ للدهشة.. نظرت في المرآة لأجد انعكاسي ينظر لي بعينٍ غارقةٍ في سوادٍ عظيمٍ يزيد وجهي المخفي في ظلال الشموع هيبةً فوق رهبته.. لا وقتَ للتعجُّب.. هذا ليس أنا.. بل هو، سألت في توجُّسٍ شديدٍ محاولًا تناسي ذلك العرق الذي يزيدني برودة وتوترًا عن صحة أن هذا هو المارد الذي يراقبني؟!

فأومئ برأسه بالإيجاب دون أن يفتح فمه فسألت – مدعيًا التماسك– عن السبب.

فتح فمه بهدوءِ الدنيا كلها، كما لو أنه لا شيء في العالم يحثه على الإسراع أو أنه يعلم أن هذه الطريقة ستزيد من ذعري وتُسرِّع من فقداني لأعصابي، ليقول أخيرًا بصوت خافت حاد شبيه بفحيح الأفاعي (جاااااائع)

الصوت كان يأتي من كل جهة حولي كأنه يعلمني أنه لا مهرب من مصيدته، فسألت –وأنا أبتلع ريقي– عن مراده ليتركني وشأني، فأجابني وهو يبتسم كالذئاب –لو كانت الذئاب تبتسم–:



– لن أتركك.. أريد قربانًا وإلا سأختم مصيرك بيدي.

– حسنًا حسنًا أي شيء تريده سأحضره.

قاطعني سريعًا وقد لاحظتُ أن ملامحه تزداد غضبًا:

– أريد حيوانًا كلَّ ليلةِ ثلاثاء في هذه الحجرة ولا تبت فيها وإلا سأعتبرك أنت القربان.

لم يعطِني فرصةً للرد، حيث انطفأت الشموع في حركة سريعة مفاجئة وسمعت أصواتًا شبيهة بلهيب يحرق في الموجودات، ثم اشتعلت أضواء الحجرة من تلقاء نفسها لأرى اختفاء دمائي المبتورة على الأرض.

يا لها من دهور مرت عليَّ في جلستي تلك، أشعر أني كنت في مارسون أولمبي وجسدي الآن غارق في العرق والإجهاد وآلام بمفاصلي، يبدو أني مقبلٌ على حمى ما، مَن قال إنَّ محادثةَ المرَدة أمرٌ هينٌ.

لا أدري ما أنا مقبِلٌ عليه مع هذا الطاغية الذي أعلن بكل سادية سيطرته على حياتي المقبلة لكن ما أدريه وأتيقن منه أنه الآن وقت الهلع.

* * *



بعد أربعة أشهر

لن أقول إن حياتي أصبحت جحيمًا كعادة أفلام الرعب.. بل هي مستقرة لنحو كبيرٍ، كُلّ ما في الأمر هو أني صرت مُوكَّلًا بعملٍ أسبوعي أعرف نتيجة تأخُّري عنه وسأفعل المستحيل لتجنُّبه يمكن أن تعتبره واجبًا منزليًّا إضافيًّا.

كنت أتحجج بسبب تافه لأبتعد عن (رنا) تلك الفترة وهو أن: شهر التحقيقات الذي أمضيته في قسم الشرطة أضاع مني الكثير من الدروس التي لم أقترب منها بَعدُ؛ لذلك فأنا أحتاج لكل دقيقة للمذاكرة في محاولة بائسة منِّي لتعويض ما فاتني، لكن الحقيقة هي أني لا أريد توريطها معي في هذا الأمر، لقد مررت بالكثير الذي أفضِّل أن أمر به وحيدًا طوال حياتي على أن تشاركني فيه ولو لثانية.. أفضِّل الموت عن انغماسها في هذا.

لو أردنا الدقة فهي تتفهم أعذاري المصطنعة، لكن أنت تعرف أدمغة النساء.. (تأذرني الليلة وتتركني غدًا).. هذا طبع النساء جميعهن الذي قد يطغى على طبيعة (رنا) الملائكية يومًا ما.

لهذا أتجنب اللقاءات بيننا هي لا تعلم أن كل يوم ثلاثاء أحضر حيوانًا بين الكلاب أو الفئران أو القطط..



إما أجدهم ضالين في الشوارع أو أسرقهم من مخازن الجامعة.. لكن لا بُدَّ أن تكون هذه الحيوانات حية، أنا لم أجرب إعطاءه حيوانًا ميتًا ولن أجرب، ليس لدي مساحة للتجربة من الأساس.

لكن الأمور أصبحت مخيفة من ناحية أني أشعر بوجود من يراقبني طوال الوقت وفي كل تحركاتي، كيان مخيف يتبعني كظلي –تجسد لي مرة– راغب في التهام المزيد والمزيد من الحيوانات.. وذلك الكتاب اللعين لا يخبرني كيف أتخلص منه، ما بال هذا الكاتب الذي يتغاضى عن أهم جزءٍ في فحوى موضوع كتابه؟ ربما لم يملك الوقت الكافي في حياته ليكتب هذا الجزء المهم.

هذا الكيان لا يزعجني الآن ولكنه سيقتلني يومًا ما ماذا لو نسيت أن أحضر له حيوانه يوم الثلاثاء؟ ماذا لو سَئم من الحيوانات وقرَّر طلب قربان بشري على العشاء؟ ماذا لو زاد في طلبه وجعله مرة كل يوم بدلاً من كُلِّ أسبوع؟ ماذا لو اقترفت نفس الخطأ الذي فعلة (مازن) والذي لا أزال أجهله حتى الآن؟ لماذا اختار يوم الثلاثاء من الأساس؟

كل هذه أسئلة مخيفة وأنا ليس لدي الفضول لأعرف إجابتها؛ لهذا أنا أفكر في حلٍّ حتى لا تحدث أبدًا.



* * *

وأنا أتفحص موقع (أيباي) من أحد أجهزة الحاسوب بالجامعة.. رأيت إعلانًا لفت انتباهي حقًا.

علمت هذا الموقع الأجنبي من أبي، فكمية التجار الذين يترددون على الموقع ضخمة للغاية تزيد أضعاف عدد المشترين العاديين.

كان الإعلان تحت بند الأغراض الملعونة!! قرأت الإعلان وكان يتحدث عن صندوقٍ خشبيٍّ يحتوي على بعض الأغراض الغريبة التي لا أفهم علاقتها ببعضها البعض.. ويتحدث صاحب الإعلان عن وجود لعنة غامضة محاطة بهذا الصندوق وكم ساهم هذا الشيء في تدمير حياته وخسارة الكثير من أحبائه.

لا أعلم لماذا صدّقت الكلام الموجود على الإعلان؟! لم أتبين السبب لكن لمعت في عقلي خطة خبيثة قد تقضي على هذا المارد وللأبد.. أو تودي بحياتي.

* * *

استغللت فرصة مشاركة فريق جامعتي لكرة القدم في منافسة مع إحدى الجامعات الأخرى بمختلف بقاع بيروت سعيًا لكأس الجامعات في



بطولة كرة القدم.. فسافرت معهم كونهم فريقي الذي أحرص على تشجيعه وإمداده بروح الحماس و... إلخ إلخ

هدفي الأول والأخير هو الحركة ببيروت دون إثارة الشكوك، ناهيك عن أني لا أعرف الكثير من الشوارع بالمدينة بحكم أني مغتربٌ عنها وأحتاج لإرشادٍ.. لذلك وجدت من سفر الفريق حجة مناسبة للحركة.

وكأن الظروف كلّها تساعدني للسفر، بداية بأن فريق جامعتي سيلاعب فريق جامعة (القديس يوسف) بشارع (دمشق) وهي قريبة جدّا لمكان الرجل ببيروت؛ فهذا شارع تجاري ينم عن مهنة الرجل الأصلية.

وهكذا حددت المكان والميعاد مع صاحب الصندوق الذي استعان باسمٍ مستعار بالطبع في وضعه للإعلان وبالمثل فعلتُ أنا، يكفيني أنه أتى من بلده للبنان مخصوص من أجلي، فيجب أن أكرمه –كأقل نوع من الاحترام– وأذهب لمقابلته بأي بقعة من (بيروت)، لم أتعجبت من إصراره على بيعي الصندوق بأي دولة، فما كتبه بالإعلان ينم عن أنه مرّ بمأساة درامية شديدة.. وجمعنا اللقاء.



كان رجلاً تجاوزَ العقد الرابع من العمر، ظاهر على ملامحه الثقافة والعلم، أطول مني قامة بقليل، مهندم الملابس وتظهر علامة الشيخوخة على شعيراته البيضاء وقسمات وجهه الداكن اللون قليلًا، كان لدي خوف طاغٍ على مشاعري بألا يأتي هذا الشخص أو يعلم المارد بتحركاتي، لكنَّ الخاتم كان يطلعني بتفاصيل كتلك، فقد لاحظت أن المارد مرتبطٌ بشكلٍ غريبٍ بغرفتي في السكن الجامعي، لا ينير الخاتم بعلامة المراقبة إلا وأنا فيها، كأنه زميل سكني الجديد المزعج الذي يمارس معي لعبة سخيفة غرضها استغلالي فحسب أو دفعي للانتحار.. بالطبع لم أجرب تغيير الغرفة أو بشيء ساذج يدور ببالك، فكما ذكرت من قبل.. ليس لدي أريحية للتجربة.

لكن صاحب الصندوق أتى في موعده بل أتى مبكرًا عنه أيضًا

كما لو أنه متحمس لإتمام هذه الصفقة الجهنمية، تعرفت عليه لأن كلينا بعث للآخر صورته من قبل لنتعرف على بعضنا البعض.. فرغم ملابسه التي توحي لي بأنه رجلٌ ثريٌّ أو ميسور الحال على أقل تقدير، لكنه لا يملك هاتفًا محمولًا، ربما هو بخيل أو شحيح التعامل بالمال، لكني لا أهتم، فلن أناسب الرجل في ابنته مثلًا، لقد أتى في موعده وهذا ما يهمني.



استلمت منه الصندوق وأعطيته سعرًا جيدًا أعتقد أنه نال رضاه.

نحن لم نتفق على المال من قبل حيث كان يقول لي أثناء تحدُّثنا هاتفيًّا «أي عدد من عملات النقود تحب فأنا لن أفاصل ولن أحدد ثمنًا».

لاحظت أنه كان مترددًا بعض الشيء عندما رآني.. كما لو أنه شعر بخيبة أمل أني لست الشاري الذي كان يتصوره في مخيلته، ردَّد على مسامعي نفس الجمل التي ذكرها بالإعلان من قبل.. هذا الصندوق لعنة، إياك وفتحه، أنت تعلم ما يحتويه فلا تخاطر، إذا ساءت الأمور تخلَّص منه على الفور بنفس الطريقة.. إلخ.

أنت لا تعلم ما مررت به من أهوالٍ ربما يكون هو قد عانى أكثر منّي لكني –أنا أيضًا– مررت بالكثير.. وأتوقع في هذا الصندوق مفتاح نجاتي.

هذا كان في يونيو عام ٢٠٠٣

* * *

ليلة الثلاثاء من نفس الأسبوع



لقد عدت إلى (بلبيس) ببيروت –حيث تقع جامعتي– وحيداً متحججًا بوعكة صحية مفاجئة.. لأن فريق الجامعة لم يلعب مباراته المنتظرة بعد، كما أن هناك يومين سيقضونهما الطلاب كعطلة في المدينة كنوع من الترفية الإضافي.. كل هذا جميل لكنه لا يناسبني –الآن على الأقل– فأنا لدي قرباني الذي أقدِّمه بشكل أسبوعي لمارد لعين يتلبس حجرتي ويأخذ من فراش (مازن) مضجعًا له.

كانت أيام الثلاثاء تلك، أبيت إما مع (أمجد) وزميله بغرفتهما.. وبالمثل فعلت الليلة ونمت في غرفة (أمجد) أرضًا.. وكان هذا الأخير ينام على فراشه وبالمثل زميله الآخر الذي لم يعترض يومًا على تطفلي المستمر على غرفتهما، كنت شارد الذهن أسبح بمخيلتي، متأملاً ظلام الحجرة، أفكر في هذا الأمر برمته من البداية.

لماذا حدث كل هذا من الأساس؟! لن أسأل لماذا كنت تعس الحظ الذي شارك عابد للشيطان حجرته وانتقلت لعنته على عاتقي غصبًا! لأني أجهدت نفسي بهذا السؤال وسئمت من عدم وجود إجابة غير القدر، لكن هذه المرة أسأل لماذا صدقت الكتب التي وجدتها في دولاب زميلي؟!

لماذا استمررت في الأمر وواجهته بنفسي بدلًا من اللجوء لأحد؟!.. رغم خمولي في أمر اتخاذ القرارات



ذلك، لماذا لم أفترض أن هذه الكتب مشفرةٌ أو كاذبة ومن الممكن أن تودي بحياتي أو تعزز من قوة ذلك المارد؟!

لماذا لم أعرض مشكلتي تلك على أحد القساوسة أو الرهبان في الكنيسة؟!

لماذا مرت هذه الفترة وأنا أتحاشى بشكلٍ غير إرادي النظر لأي كتابٍ مُقدّسٍ في غرفة (أمجد) أو أحد أصدقائي الذين أتبادل معهم الزيارات والنصائح في المذاكرة؟! لماذا اختفت نزعتي الدينية الحبيبة عن نفسي بالتدريج؟! أين اختفى الصليب الذي كنتُ أعلّقة على حائط غرفتي؟!

هل ستنجح خطتي الجهنمية أم سينقلب السحر على الساحر؟!

كل ما فعلته هو دليلٌ على الحمق، وأتصور أن كل هذا ما كان ليحدث لو أخبرت أهل (مازن) بأني لست مسئولاً عن أشيائه وليأتي أبوه ويأخذها بمعرفته.. انظروا ماذا حلّ بي من تصرفي بلطف مع الآخرين، ليتني كنت لئيماً مزعجاً أرفض قبل سماع الطلب أو المعروف.

بماذا أفادني اللطف في النهاية؟



وهكذا غصتُ في ثبااااااات عميق وانتصر إرهاق ذهني على قلقه.

* * *

فتحت جفوني المرَهقة لأجد أمامي سيدةً عجوزًا تتشح بالسواد، رابطةً شعرها الأسود الممتزج بالأبيض الشائب للخلف في شكل ذيل حصان.. لم أتبين الكثير من معالم جسدها سواء من السمنة أو النحافة بسبب ذلك الرداء الأسود اللون الذي يغطي كل ملامح جسدها، لم أتبين إذا كانت طويلة أم قصيرة لأنها كانت جالسة أمامي، لم أتبين الكثير من معالم وجهها لأنها كانت تنظر للأسفل بتركيز على كفيها البيضاوين اللذين كانت تشبكهما وتدير الإبهام الأيسر حول الأيمن في حركة متوترة.

مسحت المكان بعيني لأتبين أني في منزلٍ ريفيٍّ قديمٍ، كانت كل الحوائط مصنوعة من الخشب، أما الأثاث.. لا أستطيع تمييزه!!.. إنه أمامي لكني لا أميزه.. لا أميز الفارق بين الكرسي أو المنضدة، لا أميِّز بين الأريكة والتلفاز، كما لو أنَّ جودة الصورة التي تلتقطها عيني باهتة تمامًا.

نهضت من موضعي لأجد نفسي جالسًا على كرسي خشبي وكذلك تلك المرأة.. التفتُّ للخلف



لأجد أن الكرسي الذي كنت جالسًا عليه، ملتصقًا بالحائط الخشبي –الذي لا أعلم أيضًا إذا كان نظيفًا أو مغبَّرًا– لأجد نافذة زجاجية مغلقة مستطيلة الشكل تعلو الكرسي.. واضحة تمامًا، كما لو أن هذا المكان يسمح لي برؤية أشياء معينة مثل السيدة والكرسيي وقليل من الجدار والنافذة فقط.

نظرت خلال النافذة محاولًا معرفة أين أنا، لكني رأيت انعكاسي وانعكاس المشهد من خلفي.. يبدو أني في المساء؛ لهذا فنسبة الضوء الكبيرة من داخل الغرفة تحول زجاج النافذة لسطح مرآةٍ عاكسٍ.

أدقق النظر في الزجاج العاكس لأجد أن السيدة العجوز الجالسة خلفي كانت واقفة وتنظر لي من ظهري.. أما الكرسي الذي كانت جالسة عليه كان قد اختفى!! كانت ملامحها هي الأخرى باهتة مذبذبة لا أستطيع أن أرسم لها صورة واضحة في مخيلتي.. أما تحت قدمها فكان هناك قطٌّ أسود وغراب يشاركه نفس اللون يتقاتلان!!

أعلم أن كلمة (قتال) تبدو مبالغًا فيها على بعض الحيوانات.. لكنهما بالفعل يتقاتلان.. فالقط لا يحاول عض الغراب بأنيابه ليقوم بعملية افتراسه، ولا حتى الغراب يستخدم جناحيه ليطير وينجو من



هذا القط، كما لو أن غرائز كُلٍّ منهما في البقاء أو الهروب مُعطَّلةٌ وما تعمل الآن هي غرائز القتال.. لا تنسَ أنني طبيب بيطري فأعلم طبيعية الحيوانات وطريقة تفكيرها، لكن هذه التصرفات لا تتماشى مع طبيعة الحيوانات التي درستها؛ فمهما وصلت الضغائن بين أعتى الحيوانات لا تصل إلى هذا الحد من القتال الدموي.

القط يضرب بمخالبه صدرَ الغراب ليجعل الدماء تتدفق من شرايينها لتلوث لونهما الأسود النقي، أما الغراب يضرب جناحيه ضربات متبادلة بين الجناح الأيمن والأيسر على رأس القط، ويزيد على هذه الضربات بمنقاره الذي يغرسه بعنفٍ في جسد القط.

القط لا يستخدم حيله في التلوي والقفز، وبالمثل الغراب لا يستخدم حيله في الطيران ومخالب قدميه.. كما لو أنهما حيوانان لأول مرة، أو كائنات أخرى وجدت نفسها في هذه الأجسام وتجهل كيف تستخدمها في القتال الحيواني!!

الدماء تنتشر هنا وهناك حتى إنها وصلت لتلك السيدة الجامدة التي لا تنتبه لهذه المعركة الطاغية القابعة أسفل قدميها.. كل هذا بدون صوت!! لا القط يصدر صوت زمجرته أو موائه أثناء العراك، ولا يصدر النعيق من حنجرة الغراب.. كما لو



أني أشاهد التلفاز والصوت مكتوم، لاحظت –في هذه المعركة الصامتة– أن القط بدأ يستخدم مهارة من مهاراته أخيرًا.. لكنها ليست لقطط؟!.. بدأ القط في التمدد والتضخم ليفوق حجم الغراب وحجم أي قط آخر، لقد بدا في حجم الكلاب ال(درواس النابولية) ذات الترهلات الوجهية العملاقة، ثم سدَّد القط الضربة القاضية للغراب كما يفعل المصارعون في رياضة الملاكمة، ليسقط الغراب أرضًا وصدره يرتفع ويهبط في هيستيرية محاولًا التمسُّك بالحياة قدر ما استطاع، بعد أن خسر في تلك المواجهة التي أجهل سببها حتى الآن.

أتابع كل هذا وأنا أنظر لهما من انعكاس زجاج المرآة دون أن ألتفت لهما، بدأ القط في التقلص والعودة لشكله الطبيعي.. ثم انحنت المرأة –و كانت هذه التفاتتها الأولى– لتلتقي بالغراب الجريح وألقت به ناحيتي في حركة سريعة عنيفة لأجد أن الغراب قد اقتحم الزجاج كاسرًا له لكن من الجانب الخارجي للمنزل!!

* * *

فتحت عيني من جديدٍ، استغرقت بضع ثوانٍ لأتذكر أين أنا وما الذي أفعله هنا، أنا في غرفة (أمجد) نائمًا على الأرض.. لكن لمَ أنا في غرفة هذا الأخير ولست



بغرفتي؟! ياللهول!! نعم تذكرت، نهضت مسرعًا من الغرفة متجهًا لغرفتي القابعة على بُعدِ ستّ غُرفٍ من غرفة (أمجد) وزميله.

الغرفة الأولى

أنا لا أزال حيًا!! هل هذا يعني أن خطتي نجحت؟!

الغرفة الثانية

منذ أن استلمت الصندوق من صاحبه وأنا لم أذُق طعم النوم انتظارًا لهذه اللحظة.. لكن يبدو أن الإرهاق والتفكير أهلكني حتى النوم.

الغرفة الثالثة

عندما رأيت الإعلان المصحوب بكلمة (ملعون) جال في خاطري أن هذا الصندوق قد يكون مسكونًا أو يحرسه نوعٌ آخر من المردة أو أي كيان مظلم آخر.

الغرفة الرابعة

لهذا كانت خطتي هي تقديم الصندوق للمارد القابع في غرفتي –لا أصدق أني أقول هذا.

الغرفة الخامسة



إما أن يقضي ساكن الصندوق على المارد وأتخلص منه للأبد أو يقضي المارد على ساكن الصندوق ويقتلني بدوره أو يتعاون الاثنان ضدي ويقتلانني أنا وأحبائي أو ينتصر ساكن الصندوق على المارد ويبدأ هو في استعبادي أو ينقذني ساكن الصندوق لكنه لا يفعل لي شيئًا لأني لم أفتح الصندوق أو.. أو.. أو.. أو..

الغرفة السادسة – غرفتي

هناك ألف احتمال واحتمال.. وهذا ما سأتبينه الآن..

وصلت لغرفتي، أخرج المفتاح من جيبي متجهًا به ناحية الكالون.. لو رأوا يدي وهي ترتعش هكذا ما كانوا ليدخلوني كلية الطب البيطري من الأساس.. يتحرك المقبض ناحية اليسار مُحدثًا صوت (كليك) معلنًا عن فتح باب الغرفة، فتحت الباب على مصراعيه لتظهر غرفتي.. كما لو أنها مخلّفات حربٍ!! كانت ملاءة فراشي ممزقة بسبب مخالب عملاقة ويوجد بها بعض الرقع السوداء من آثارِ حرقٍ! درفتا الدولابين متفوحتان عن آخرهما! هناك قطع كثيرة من ملابسي المبعثرة هنا وهناك.. محترقة أو مكسوة بالأتربة التي أجهل من أين أتت! هناك أوراق مُمزّقة في كلّ مكانٍ.. أنت بالطبع يمكنك التعرف على أي أوراق تلك.. إنها أوراق الكتابين اللذين وجدتهما في قعر دولاب (مازن).



لكنه كان يقف في وسط الغرفة كما تركته ليلة أمس.. يقف في شموخٍ بين آثار الحرب الطاحنة تلك معلنًا انتصاره في عزة.. إنه الصندوق، تقدَّمتُ بضع خطوات لداخل الغرفة لأستبين المشهد أكثر، الذي جعل كل مشاعري الإنسانية تختفي ولا يتبقّى لي سوى الذهول، تسلَّلتْ لخياشيمي الكثيرُ من الروائح المختلطة المتخبطة مثل رائحة الحريق، أو العفن، أو الطمي الناتج عن سقوط الماء على التراب، أو البول، يبدو أن تنظيف هذه الساحة سيحتاج وقتًا وعليَّ أن أبدأ قبل أن تنتشر هذه الرائحة في المكان..

لكن.. ماذا حدث هنا بحق السماء؟!

بدأت بجمع الأوراق الممزَّقة وقطع الملابس المحروقة وأي شيء آخر تلف في كيس القمامة الكبير.. ثم أحضرت المقشة والجاروف خاصتي من الساندين على حائط الغرفة في أحد أركانها وجمعت بهما البخور المنثور على الأرض والأتربة والغبار والطمي الذين لا أعلم من أين أتوا وألقيت بهم في الكيس الكبير.

الشباك الزجاجي المستطيل الشكل الوحيد في الغرفة مكسور.. ليس مهشّمًا أو مخدوشًا، لكن يوجد ثقب مكسر في منتصف الزجاج كما لو أن شيئًا اخترقه بعنف.. قمت بتجميع قطع الزجاج



المكسورة الصغيرة في كيس بلاستيكي صغير وألقيت به في الكيس الكبير حتى لا يمزق الكيس الأكبر، هناك بعضٌ من الشعيرات السوداء وبعضٌ من الريش الأسود ملقى هنا وهناك.. كانت هذه الأشياء تُذكِّرني بالحلم والصراع المنخضم به، لكن أيعقل أن ما رأيته لم يكن حُلمًا بل كان مشاحنة حقيقية بين كيانين شيطانين بحجرتي؟

ولكن أنتم تعلمون عادة الإنسان البشرية في تجاهل الأسباب والنظر إلى النتائج ما دامت جيدة بالطبع.. لقد تخلصت من المارد وها هو الخاتم الذي أرتديه ليل نهار، يشير أنه لا يوجد من يراقبني أو يهاجمني أو حتى يتبعني.. أنا حُرٌّ من جديدٍ، لقد انتهى كابوسي بمساعدة هذا الصندوق؛ لذلك لا داعي لأشغل بالي بكيف حدثَ هذا أو تفسير حدوث ذلك.

المهم أني سأعود لممارسة حياتي الطبيعية من جديدٍ، إنه حقًا وقت الفرح.

* * *

بعد ستة أشهر

كانت هذه الأشهر المنقبضة هي الأشهر التي عاودت فيها أيام الراحة والسكينة، دون تقديم



قرباني الحيواني بصورة أسبوعية، عدت لأصدقائي وحبيبتي وكليتي.. لكن كما قال (أفلاطون) ذات مرة: لا يوجد ما هو أبيض أو ما هو أسود، ولكن يوجد الاثنان معًا ليعكر كُلٌّ منهما صفاء الآخر.

كانت هذه الأشهر مليئة بالأحداث التي بثَّت التوتر في عروقي من حينٍ لآخر، فالأمر لن ينتهي بهذه البساطة كما تعلم.. كانت الأحداث كثيرة جدًّا؛ لذلك دعني أقص عليك بعضًا منها.

* * *

في إحدى المرات التي كنت فيها في مكتبة الجامعة أتصفح بعض مواقع الإنترنت لعمل بحث عن مرض (جنون البقر) –كما طُلِبَ منّا– بمعامل الحاسوب بها، أثناء تركيزي في قراءة المعلومات حول المرض ونقل ما هو جديد ومهمٌ في وريقات البحث.. انقطعت الأضواء فجأة!، لا أتذكر الساعة جيدًا لكني كنت في وقت المغرب تقريبًا.. أي أن هناك بعض الإضاءة من أثر الشمس المقبلة على الاختفاء، تدخل للمكتبة، لكن أين هي؟!.. كما لو أن الكهرباء عندما انقطعت أخذت معها الشمس أيضًا؟!

أثناء اندهاشي بما حدثَ للتو عادت الكهرباء من جديدٍ بعد دقائق قليلة، لأجد على شاشة الحاسوب



–الذي أجلس أمامه– صورة (مازن) وهو هامدٌ على الأرض كجثة في وسط بركة من الدماء.. هذا المشهد رآه الجميع من قبل، لكن بعد تدقيق النظر هذا ليس (مازن) بل هو أنا بنفس ملابسي التي أرتديها في هذه اللحظة.

ثم انطفأت شاشة الحاسوب لتظهر مكانها علامة ال(ويندوز) معلنًا عن انفتاح الحاسوب من جديدٍ.

* * *

في إحدى الليالي التي كانت فيها (رنا) تشاركني الفراش في لحظات عبث محرم التي اشتقت له بعد طول انقطاع استيقظت من النوم على صوت هاتفي المحمول.. كانت عادتي دائمًا أن أضع الهاتف أسفل فراشي لأصل إليه سريعًا وحتى لا أتعثر فيه عند ترجُّلي، فمددت يدي متكاسلًا لألتقط الهاتف الذي يصدر صوته المزعج لأرى بنصف عينٍ مفتوحة اسم المتصل وكان (مازن)؟!.. نهضتُ من نومي جالسًا على الفراش وأنا أتأمل الاسم في حيرةٍ شلّت تفكيري، ثم توقف الهاتف عن الرنين وبعثت لي رسالة على هاتفي بعدها مباشرة.. مكتوب فيها (مرحبًا) من نفس رقم (مازن)، فأجبته بدوري:

– من أنت؟!



– ألا تتذكر زميلك في الغرفة؟!

– توقف عن هذه الألاعيب وأخبِرني مَن أنت.

– ما الذي تحتاجه كي تصدقني؟!

كانت الردود تأتي بسرعة لا يقدر عليها بشر، كما لو أن الشخص الذي يراسلني يراني وأنا أكتب الرسائل قبل أن أبعثها فيقوم بتجهيز الرد مسبقًا.. فتوقفت عن الكتابة وبدأت بالاتصال بالرقم ولكن اتضح أن الهاتف مغلق!.. فجاءتني رسالة تقول:

– لا تجهد نفسك.. فلا يوجد شبكة اتصال في عالم الأموات.

– ما الذي تريده مني؟!

هنا سمعت صوت (رنا) النائمة بجواري تئنّ في كسل.. فوجهت ضوء الهاتف عليها ليظهر وجهها.. لكنه لم يكن وجهها الأبيض المليء بالنضرة والنعومة المعتاد عليه.. بل كان وجهًا مكسواً بالشعر الأسود الخفيف الهش وكان لون بشرتها أزرقَ بشكلٍ غريبٍ كما لو أنها جثة غارقة تم إخراجها من الماء للتو، قالت بصوتٍ خافتٍ يميل للخشونة بعض الشيء: «أريد هذه الساقطة».



نهضت مفزوعًا لقابس الكهرباء لينتشر الضوء في الغرفة ماسحًا في طريقة كل آثار البشاعة التي رأيتها منذ قليل تلك.. لتظهر (رنا) النائمة في رِقّة ووجنتاها بلونهما الأبيض الطبيعي المحبب لي، على فراشي.

نظرت في الهاتف المحمول الذي لم يفارق يدي لأجد أن كل تلك الرسائل كان أنا من أبعثها لرقم (مازن) وأنه ما من ردٍّ واحدٍ منه.

أي أني كنت أتكلم وأجيب نفسي؟!

وكان مكتوبًا في آخر رسالة (تمتع بها حتى أخذها منك)

ما الذي يحدث لي بحق الجحيم؟!

* * *

ليلة الهالوين وأنت تعلم ذكرياتي السعيدة مع آخر هالوين مررت به، طوال اليوم في الحفل أشعر بحالة من التوجس والرهبة من من حولي، غير ترقبي غير الُمبرَّر.. هناك شيء سيحدث هذه الليلة إما أن يذكرني بكل ذكرياتي التعيسة تلك من جديدٍ أو يجعل شعري يشيب من الرعب.. شيء رهيب سيحدث، أجهله لكنني أنتظره.. أعلم أنه



سيظهر في أي لحظة وهو يتمتع الآن بتعذيبي هكذا، بسبب هذا الخوف أنا أفقد قدرتي على الحياة، وهو يتلذذ بهذه الأفكار الجهنمية التي تغزو رأسي كما فعل المغول على بلاد الشام، لكن مهما كنت حذرًا أو تصورت الأسوأ فما يحدث يكون دائمًا أبشع ألا يمكن لهؤلاء القوم أن يتبعوا تقاليدهم الشرقية لعام واحد، متناسين أمرَ تقليد الغربين الأعمى في كل شيء ذلك.

أثناء رقصي أنا و(رنا) في مسرح الجامعة وسط صخب الموسيقى من حولنا بدأت رشاشات الحريق المعلقة في الصقف في إطلاق المياه.. لكنها لم تكن مياهًا بل كانت دماءً!!، شهقت وأنا أعود بقدمي للخلف في حركة غير إرادية.. بينما تتعالى صيحات الآخرين.. نظرت لي (رنا) في تعجُّب وقطرات الدماء تكسو جسدها في مشهد عجيب، فقالت:

– ماذا بك يا (فادي)؟!.. إنها مجرد مياه؟!

دخلت بعض القطرات لفمي لأتبين أنها حقًا مياه.

لا أعلم إن كانت مياهًا مُحمَّلة بالأصباغ أم أنا الوحيد الذي يرى لونها الأحمر.

لو حدثَ هذا منذ عامٍ أو اثنين، لكانت صيحاتي الحماسية تعلو أكثر من صوت الموسيقى نفسها،



لكن غيمة الخوف ترسل ظِلّ التوتر ليتبعني أينما ذهبت.

أخبرت (رنا) بأن هذه فكرة سيئة وأني في حاجة للاستحمام، ذهبت للحمَّام في خطوات سريعة قريبة للركض قبل أن تحظى بفرصتها للاعتراض أو الذهول من موقفي حتى، لقد وجدت حجة مناسبة للتكوع في غرفتي حتى ينتهي هذا اليوم على خير.. أو هكذا ظننت.

حسبت أني أذكى منه أو أن (المجهول) سينال مني في الحفل فحسب، لكني نسيت أنه لا يقتصر على الحفل.. بل هو في كل مكان.

بعد خروجي من كابينة الاستحمام مرتديًا ملابسي الداخلية وأستمر في تجفيف شعري بالمنشفة، نظرت للمرآة المقابلة للكبينة لأجد أن أنعكاسي غيرُ موجودٍ! فتوقفت عن تجفيف شعري وألقيت بالمنشفة أرضًا، ثم تقدمت في خطوات بطيئة ناحية المرآة ملوحًا بيدي يسارًا ويمينًا.

إن جئنا للحق فأنا لا أفهم سببًا واحدًا لفعلي هذا، كما لو أن المرآة مُعطَّلة وأنا ذاهبٌ لتفحص خللها، الحل المنطقي هنا أن أركض بحياتي من أمام أي شيءٍ عجيبٍ أو ليس له تفسير كهذا.. لكني لم



أفعل هذا، بل تقدمت في عته خرافي وغباء ألمعي.

وضعت كف يدي على المرآة ليظهر شق كبير بها من العدم ليحدث بكفي جرحًا كبيرًا بدوره، عدت للخلف قابضًا على يدي والدماء تتدفق منها، في حين الأئنين صدرَ من بين فتحات أسناني، جاهرًا عن الألم الذي شعرت به.

عاودت النظر للمرآة لأرى الشق يختفي من جديدٍ كما لو أنه لم يكن هنا من الأساس ويترك سطح المرآة الناعم الصافي المعهود.

هنا ظهر انعكاسي في المرآة، لا أعلم إذا صححت لفظ (انعكاسي) هنا.. فالمعروف أن الانعكاس يتبع صاحبه في التحركات، لكنه كان واقفًا ينظر لي بثبات دون أن يتحرك قيد أنملة، في حين أني أحاول الضغط على كفّ يدي الأيمن لمنع تدفُّق المزيد من الدماء؛ لذلك دعنا نسميه شبيهي ساكن المرايا.

كان ينظر لي بسباتٍ شديدٍ، قابضًا بين أنامله سكينًا متوسط الحجم.. إنه السكين الخاص بي، كانت على فمه شبح ابتسامة ماكرة، ثم قام بطعن نفسه بحركة سريعة لتدفق الدماء من صدره كالنافورة.



شعرت بألمٍ شديدٍ في صدري ولم أكن قادرًا على التقاط أنفاسي، كان ألمًا حارقًا مدويًا لا توجد كلمات كافية لوصفه، فما هو الوصف بشعورك والحياة تسلب منك بطريقة مؤلمة؟!.. بالتأكيد لا تستطيع وصفَ الأمر وكذلك أنا.. سقطت أرضًا والرؤية تنسحب من عيني ليحل محلها الضباب القاتل.. ضباب النهاية.. ثم رأيت السواد.

فتحت عيني لأجد نفسي ساقطًا على أرضية الحمَّام كما أنا، وصدري سليم لا يوجد به أي نوع من الطعنات –كما تخيلت أنه حدثَ لي بدوري– وأستطيع أن آخذ أنفاسي في رشاقة وبساطة.. كلُّ ما في الأمر أن كف يدي مجروح من المنتصف.. فتنفست الصعداء بعد انتهاء الأمر.

لم أتوقع أيًّا من هذا وأظن أنك لم تفعل مثلي.. فدائمًا للقدر حيلته التي لا تأتي على بالنا.. فلو فعلنا لتمكنَّا من التنبؤ به.. ولو تمكنا من تفادي رهبته.. لذلك هو دائمًا الأسوأ الذي يعجز خيالك الواسع عن تقديره.

***

يكفينا مواقف حتى هذه النقطة فلو قصصت كل حدث لي ستحتاج أيامًا وأيامًا من القراءة.. وكلانا لا نملك الوقت أو الأعصاب لتحمُّل هذا، يكفيك هذا



الكم من المواقف التي تعرضت لها.. أعلم أنه ينقصها التفاصيل لكن ما قصصته هو كل ما تحتاجه من دراية حتى الآن فالقادم أبشع كما تعودت معي ويحتاج لتركيز أكثر، لكن كل ما يسعني القول هو أن شبحَ الماضي يطاردني أينما ذهبت، كل هذه الفترة وأنا أضع الصندوق أسفل فراشي دون أن أطلع أحداً عليه أو أخبره عنه.

حاولت الهرب من هذه الحياة في فيلم أو كتاب أو أغنية أو صحبة أو نوم.. لكن كما للنوم صحوة فللفيلم كلمة ال(نهاية) وللأغنية دقائق محدودة وللكتاب إطار مُعلَن عن انتهائه وللصحبة كلمة (إلى اللقاء) التي تفرقنا، ليصفعني الواقع لأدرك أنني لا أزال سجيناً في هذه الحياة، حتى جاء هذا اليوم الذي كشف فيه سري رغماً عني.

* * *

اقتحمت (رنا) غرفتي في شيءٍ من الغضب بينما كنت جالساً على الفراش خلف المكتب المتحرك وأنا أذاكر، جلست أمامي على الفراش المقابل، لتعلن رغبتها في الحديث بجدية وهي تضم قبضتيها معاً، فسألتها في غباء عما سنتحدث، فردَّت وهي تركز ناظريها عليَّ وتقبض حواجبها:



– عن حالك.. ماذا بك هذه الفترة؟.. أنت دائمًا متوتر وتختفي بالساعات ودائم النسيان لو كنت شخصًا لا أعرف كل تفصيلة عنه لقلت إنك تواعد فتاة أخرى غيري.. لكن هذا ليس (فادي) الذي أعرفه منذ ثلاث سنوات.. وهذا ال(فادي) الجالس أمامي لديه مشكلة ما وأريد أن أعرفها.

لم أدرك أن غرابة تصرفاتي كانت فاضحة لهذا الحد، كنت أحاول أن أخفيها قدر المستطاع لكن يبدو أني ممثل رديء.

هنا دلف (أمجد) الحجرة بعد عودته من دورة المياه ليجد (رنا) وهي تنصب هذه المحكمة ضدي ليسأل مستعلمًا عن تلك الجدية التي تحيط بكلينا.

كان (أمجد) له شغفه الخاص بتحويل الغضب لفرح والفرح لسعادة، لم يطق أبدًا الجو المشحون بالجدية أو الصرامة.

فأعادت (رنا) نفس تهمها –الحقيقية– على مسامع (أمجد) ليشهد هو الآخر ضدي، حتى لا يتركا لي أي ثغرة أهرب بها لأبرر تصرفاتي السابقة.

إنهما مصران أن يناقشا معي هذا الموضوع الآن بكل صدقٍ دون مراوغة، لم أجد مفرًا سوى الاعتراف.. ففتحت صندوقَ ذكرياتي الدفين في



رأسي لأطلعهم على كل محتوياته المرعبة التي كادت أن توقف قلبي عن النبض عدة مرات.. أخبرتهم بسري الأعظم الذي لم أخبر به حتى أسرتي.

عمَّ الصمت الغرفة بعد انتهائي من تلاوة الأحداث باختصار نوعًا ما.. كانت علامات البلاهة والدهشة ظاهرة جليةً على ملامحهما.. (رنا) لم تتوقع من حبيبها أن يكون خادمًا للشيطان –أو هكذا أسميها– يومًا ما، كذلك (أمجد) لم يتوقع أن يكون أعزَّ أصدقائه قد كان يبيت مع مارد سادي في غرفة واحدة، انقطع خيط الصمت أخيرًا عندما تحدث (أمجد) بجدية:

– نحن لن نضع للصدف مكان هنا.. فلو اعتبرنا أن كل هذه المواقف التي حدثت لك منذ اقتنائك للصندوق هي صدف إذا ستكون أتعس إنسانٍ على الأرض يا صديقي.. فلو سرت أسفل سلم متحرك أو كسرت مرآة أو رميت قطًا أسود بحجرٍ –هي علامات الحظ العسر في الغرب– كل هذه الأمور مجتمعةٌ لن يكون حظك أسوأ مما حكيت عنه للتو؛ لذلك أنا أصدق أن الصندوق الخشبي ملعون وكذلك أصدق حكايتك ولن أتهمك بالجنون.

(أمجد) له أسلوبه السحري الثاني في التحول من الشخصية المرحة للشخصية المجتهدة المنطقية



التي تضع الاحتمالات والافتراضات وتخرج بالاستنتاجات في ثوانٍ.

– أنتما الاثنان أكبر مغفلين رأيتهما في حياتي!

أعتقد أنكم عرفتم قائل هذه العبارة.. نعم بالضبط.. إنها (رنا)

هذه النزعة الأنثوية الأزلية الطاغية على جميع الفتيات بأنهن دائمًا أذكى من الفتيان هي التي تتحدث لو أردنا الدقة، قالت وهي تلوح بيدها في الهواء وتعد على أصابعها:

– هناك تفسيرات عديدة لما حدث.. ربما ناولك (مازن) أحد مخدراته بشكل أو بآخر قبل قتله أو أن الحادث أثَّر على نفسيتك مما جعلك تتوهم وتصاب بنوع من الهلاوس أو الانفصام.

سألت (رنا) محاولة مجاراتي عن مكان الصندوق، أشرت بإصبعي لأسفل قائلًا:

– أسفل فراشي.

– لماذا لم تتخلص منه أو تعرضه للبيع من جديد؟!

– لدي هاجس يخبرني أن المارد سيعود بمجرد رحيل الصندوق.. لكني لا أفهم تلك الأحداث



الغريبة التي تتساقط عليّ كالأمطار، كأنها رسالة يحاول الصندوق توصيلها لي.

– أو تحذير.

قالها (أمجد) مقتحمًا الحوار، لأرد بدوري:

– تحذير من ما؟!.. أنا لم أفتح الصندوق.. وعلى حسب كلام البائع فاللعنة تبدأ من فتحه لا من اقتنائه.

– ربما هو يريدك الصندوق أن تفتحه ليبدأ لعبته الكبرى، حيث شعر بالملل من تلك الوضعية الصامتة.

(رنا) في انفعالٍ بعد ما كانت تحرك رأسها بيني وبين (أمجد) في عدم تصديق لحوارنا الذي كنا نتبادل أطرافه بسرعة:

– هل أنتما مصدقان لما تقولان الآن؟ أفيقا للواقع، إنه مجرد صندوق.

نظرنا لها في صمتٍ لثوانٍ ثم قال (أمجد) متجاهلًا لكلامها وهو يرفع إصبعه لأعلى ويتقدم ليجلس بجواري على الفراش:



– وجدتها.. ما رأيك لو اشتريت الصندوق منك ونرى ما سيحدث.. إذا لم يحدث شيء نبيع الصندوق ونتخلص منه للأبد، وإذا حدث شيء كعودة المارد سأبتاع لك الصندوق من جديد.

قالها وكانت هنالك بالون عليها مصباح كهربي مضيء جانبه كالمجلات المصورة (الكوميك بوك) أعجبتني الفكرة بحق.. لكن (رنا) لم تترك لي وقتًا للتفكير فيها ماليًا لتنهض هذه الأخيرة داعية إيانا بحزمٍ أن نتوقف عن هذا السخف وننضج قليلًا.. فنحن مثل الصغار الفزعين من لعبة قبيحة.

فأجابها (أمجد) بنفاد صبرٍ:

– توقفي أنتِ عن تكرار هذه الكلمات وفكري معي في حل منطقي غير عرضه على طبيب نفسي بالطبع.. فسمعة كهذه ستفقده أهليته بكليه الطب وقد يُفصَل منها لعدم ثباته العقلي.

لترد في حزم عقلاني:

– إنه مريض ويحتاج للعلاج وأنت تفكر في كيفية زيادة مرضه بربط الأمور بالصندوق كما يخيل له.

فسألتها في سأم، محاولًا ختام هذا الحوار الذي يدور حول نفسه بلا انقطاع.. عما تريده (رنا) بنهاية



المطاف.. فصمتت هنيهه ثم أردفت، حاسمة إجابتها:

– إذا كنت تدعي بأن الصندوق يفعل هذا بك لأنك مالكه.. إذاً دعنا نجرب أجمعين.

ليرد (أمجد) مستفسراً عما تعنيه، فتجيبه بدورها.

– أعني أن ننام ثلاثتنا في هذه الغرفة الليلة، وإذا حدث لنا شيء –وهذا مستحيل– سأقتنع أن الصندوق ملعون ونتخلص منه بخطة (أمجد) ولكن إذا لم يحدث شيء – وهذا المؤكد– تقتنع يا (فادي) أن أعصابك مجهدة وتذهب لطبيب نفسي.

بالفعل كنت أرفض رفضاً تاماً لأي شخصٍ أن يبيت معي في غرفتي خوفاً عليه أن يحدث له شيء مما يتردد عليّ باستمرار.. إلا مرتين أو ثلاث نامت فيها (رنا) معي رغماً عني، لكن لم يحدث لها شيءٌ عقب نومها عندي من قبل بالفعل.. أم حدث وهي تخفي وترجحة لبنود الصدف؟!

وهنا كان الاتفاق.. (رنا) ستنام على فراشي أما (أمجد) سينام على الفراش الآخر، وأنا سآخذ من الأرض منامتي كما فعلت كثيراً بالآونة الأخيرة.



ما هذه الحماقة التي ارتكبتها.. لمَ وافقت وسمحت لهم بالنوم عندي.. أي شرك وجحيم أوقعت فيهم أصدقائي للتوّ؟؟ يا اللّه لا تجعل ندمي عسيراً.

* * *

اليوم التالي

لا لم أحلم كما تتخيل، الغريب في الأمر أني لم أحلم قَطّ بأي شيء مفزع غير المرات التي ذكرتها لك، عكس كلام البائع الذي أدعى بأنه يعاني من كابوسٍ مُتكررٍ، بل استيقظ ثلاثتنا بشكل طبيعي جدّاً، لم يحدث أي شيء مرعب أو مخيف على نقيض ما تصوت.. يبدو أن رأي (رنا) قد انتصر في النهاية وأني أحتاج فعلًا لطبيب نفسي، لكن اليوم لم ينتهِ بعدُ، فلا زال يحمل الكثير في جعبته لي.

الساعة الرابعة ظهرًا تقريبًا كنت أجلس في أحد الكافتيريات المغلقة في الجماعة، لم أرَ (رنا) أو (أمجد) منذ بداية اليوم الدراسي حتى الآن، أتمنى أن يكونا بخير وألا يصيبهم أيٌّ مكروهٍ، هذه الساعة لا تجد فيها توافداً كبيراً من الطلاب على الكافتريات، فأنتهاء اليوم الجامعي عند الساعة الثانية والغداء يبدأ في الساعة الثالثة، أما هذه الساعة لا تجد فيها أحد في كافتريات الجامعة، إلا



الشارد الواهن الذي يبحث عن الراحة الذهنية مثلي.

كنت في أمَسِّ الحاجة للهدوء.. الهدوء ليس إلا؛ فالليلة الماضية مرت عليَّ كليلة استعداد (صلاح الدين الأيوبي) للتصدي للصلبين.. ليلة مليئة بالأفكار الشيطانية التي يمكن أن تحدث لي ولأصدقائي، لهذا رأيت أنه حان الوقت للراحة ولتذهب تلك الشياطين لجحيمها.. فكم تبقَّى من عمري لأهدره كما أهدرت سابقه في التفكير في هذه الأشياء المزعجة؟

جلست على أحد المقاعد وأمامي طاولة معدنية دائرية عليها بعض المناديل الورقية ومطفأة سجائر جافة، تقف بحزنٍ بعد أن خاب أملها بأني لستُ من سيزودها بغذائها.. أما أنا فكنت أحمل بيدي رواية (قصر الشوق) وهي الإصدار الثاني من سلسلة الدراما الأسرية (ثلاثية القاهرة) للأديب الذي يفتخر به العرب تماً، (نجيب محفوظ).. في يدي الأخرى كنت أحمل كوبًا من القهوة، كنت مفصولًا عن العالم تمامًا.. أقرأ بنهمٍ وأنا أذوب بين السطور ورائحة البن تنعش تركيزي، مستمعًا لموسيقى الجاز الهادئة التي يديرها صاحب المحل في الخلفية كنوعٍ من محاكاة الغربيين العمياء.. فما أجمل هذه العزلة عن الواقع!.. فلو دخل ملك الموت بنفسه



لهذا المكان ليأخذني معه للجحيم، فلن أنهض أبدًا تاركًا راحتي أو هكذا تصورت..

* * *

في هذه الأوقات كان (أمجد) في مشرحة الحيوانات يقوم بإحصائها وتدوينها، تميّز صاحبنا هنا أنه استطاع أن يحصد من المراكز العليا دراسيًا مما يجعله مؤهلًا ليكون مركز ثقة عمياء للمعيدين والأساتذة.

كانت وظيفة (أمجد) –كأمين عامٍ للجامعة– أن يقوم بالإشراف والجرد على الحيوانات مرة كل أسبوعين على الأقل، لأنها عهدة للجامعة.. وهذه الوظيفة كانت تعود عليه بالجيد من المال الذي يرسله لأهله؛ فهو لا يأخذ إلا جزءًا قليلاً منه لنفسه والباقي يرى أن والديه هما الأكثر ائتمانًا في حفظه، فهو يدرس في الجامعة بمنحة تفوق كما ذكرنا.. لذلك لا يحتاج للمال.

وردت بعقله بعضُ الذكريات المزعجة التي كان يجهل أنها لا تزال في ذاكرته من الأساس، هذه الذكريات تتمحور عندما كان فيها طفلًا صغيرًا في السابعة من العمر.



كان مع والديه خارجين جميعًا كأسرة سعيدة للعالم.. أب وأم يافعان أمامهما المستقبل وأكثر، معهما ابنهما الصغير ماسكًا كرَتَه البلاستيكية وعلى وجهه كل علامات البلاهة الممتزجة بالبراءة، أعتقد أنك تستطيع استنتاج القصة عندما أذكر كلمة (إشارة مرور) ماذا؟!.. لا.. لا لم يَمُت الوالدان، لقد ذكرت منذ دقائق أنه يحول لهما المال.. ما أسخفك!

القصة أن الفتى أفلت من يدَه الكرة لتسقط في منتصف الطريق أثناء قلة تركيز من الوالدين، فالآباء دائمًا غافلون في اللحظات المهمة.

ليتقدم الطفلُ في حماسٍ للإمساك بالكرة، أثناء وقوف الوالدين مع المارة على حافة الرصيف، غير واعٍ للحافلة القادمة ناحيته بسرعة، ليدرك الأب أخيرًا غيابَ صغيره وأنه على وشك أن يختفي من الحياة للأبد على يد كشافات هذه الحافلة.

تقدَّم الأب ليمسك بالطفل لكن الأوان قد فات.. لم يملك الوقت ليمسك بالطفل ويركض به أو حتى يقذفه بعيدًا، لأن السائق قد انحرف بالحافلة بالفعل لتنقلب على جانبها ويكون من الضحايا، هنا وللمرة الأولى يرى فيها (أمجد) الدماء، يعرف فيها معنى الحياة ونقيضها المرعب، تظهر لديه معالم الخطر، يدرك كيف يكون الموت ورائحته، يدرك سُنة الحياة التي يمكن التعجيل بها في غمضة عين.



رغم أنه لم يتم العقد الأول من حياته بعد.. لكنه لم ينسَ قَطّ ذلك المشهد الشنيع الذي تنقلب فيه الحافلة على جانبها وتتعالى الصرخات مُصاحِبة لانفجار الدماء وإظلام الشاشة في عيون الركاب.

لا يعلم لمَ الآن راودته هذه الذكريات بتفاصيلها الأليمة، ربما بسبب هذا الجو مشحون بالرعب من حكايات (فادي) أمس.. ربما ولمَ لا؟!

فهو نفسه يجهل كيف نام هذه الليلة مع هذا الصندوق بعد ما سمعه..

توقف عقل (أمجد) عن التفكير بأمر الحادث القديم والصندوق عندما فتح أحد أدراج ثلاجات الحيوانات في مشرحة الجامعة.. بل توقَّف عقله عن التفكير بشكلٍ عامٍ عندما وجد..

* * *

في نفس الوقت كانت (رنا) تبحث عن (مازن القاظمي) نجم فريق الجامعة لكرة القدم، لقد وصلت به مرحلة الغرور والغباء أن يحاول أن يجذب انتباه فتاة لديها حبيب مثلها، دون أن يضع أيَّ اعتبارٍ للصداقة التي يكمنها إلى (فادي) ودون أي احترام لحرية (رنا) في اختيار من تحب –أو هكذا ظنت–



انتظرت (رنا) ساعة تقريبًا في صالة تغيير الملابس الملاصقة لملاعب الجامعة بعد انتهاء محاضراتها، حيث كان لدى (مازن) روتينه المعهود الذي يتمثل في استحالة رؤيته في أي محاضرة ودائمًا ما تجده في صالات الألعاب الرياضية.. كان يلعب كل الألعاب الرياضية بلا تفريق، ودائمًا يأتي لهذه الصالة لتغيير ملابسه المعطنة بالطمي أو العرق.

كانت تنتظره لأنه عاد لمغازلتها من جديدٍ بعد سنتين من أول محاولة.. ظلَّ يرسل لها الرسائل المظروفة على غرفتها في السكن مدعيًا الرومانسية التي لا يعرف عنها إلا من الأفلام.. والجوابات الأخيرة كانت نبرتها مشحونة بالغضب والحقد إلى (فادي) الذي تفضّله لثلاث سنوات عليه لدرجة أنه هدّدها بأنها سترى حبيبها في تابوت خشبي بينما هو يمارس الحب مع إحدى فتياته، إذا لم تأتِ له – بشقته القريبة من الجامعة– عارية!

كانت الرسائل مليئةً بالوحشية والعبودية.. لا أتقن اختيار الألفاظ هنا، لكنه أسلوبٌ ساديٌّ مخيف على أي حال..

لكن مهلًا.. لمَ كل شيء غير مُبرَّرًا! لمَ هي، ولمَ الآن، ولمَ التهديد بالقتل، ولمَ هذه الوقاحة؟! هي لا تعرف طباعه ولم تحدثه من قبل لكن مهما وصلت درجة الثراء المادى أو المعنوى، فهى لا تصل لهذه



المرحلة المتأخرة من الشيزوفرينا أبداً، لذلك قررت المواجهة.

أخيراً وصل (مازن) لصالة الخزائن.. كان مهندم الملابس يسير بخطواتٍ سريعة يحمل في يده ملابسه الرياضية وهي نظيفة، يبدو أنه أخرجها من المغسلة لتوِّه.

ما كادت تراه (رنا) حتى نهضت من مقعدها في الردهة وتقدمت نحوَهُ كالنمر الغاضب، كانت تجز على أسنانها بعصبية، تكاد أن تحطم بعضها البعض.. وصلت له وهو يقوم بترتيب ملابسه في الخزانة وقالت بعصبية:

– اسمع يا هذا؛ إذا جاءتني رسائل أخرى منك سأقدِّمها للشرطة.. دعني وشأني وإلا ستندم.

نظر لها (مازن) ببروده المعتاد ثم أجابها في حيرة إن كان يعرفها من الأساس، فردَّت (رنا) ويكاد دخان الحنقة يتصاعد من رأسها كأفلام الرسوم المتحركة:

– ستدعي الغباء الآن لأني أقوم بتهديدك.

فأشار بيده علامة النفي، مؤكداً على عدم تذكُّر اسمها من الأساس، وهو لا يدعي شيئاً.. قالت (رنا)



في سأم بلغ أقصاه وهي تريه صورة لجواباته على هاتفها المحمول:

– أنا (رنا) صديقة (فادي) ونحن بحكم المخطوبين الآن. أما هذه، فهي الجوابات التي تبعثها لي من فترة أيها المنحرف.

لم تكن (رنا) بهذا الغباء لتعطيه الرسائلِ الحقيقية ليقوم هو بتمزيقها ويدعي عدم وجودها من الأساس بعد أن قامت بتهديده للتوّ.

تمعَّن (مازن) صورة هذه الرسائل جيداً وقال:

– هناك لَبَسٌ في الأمر.. أولًا هذا ليس بأسلوبي في طلب فتاةٍ. ثانيًا أنا أتذكرك الآن، أنتِ صديقة (فادي) وهو صديقٌ لي.. ساعدني عدة مرات في تخطي الامتحانات وأنا لم أنسَ له هذا المعروف أبداً، ثالثًا أنا لم أرسل أيًّا من هذه الخطابات؛ لأن هذا ليس بخطّي أو توقيعي، لأني عندما أقوم بالتوقيع أكتب (مازن القاظمي) وليس ب(مازن) فحسب.

سألت (رنا) بعد أن هدأت قليلًا عن الباعث الحقيقي لتلك الجوابات.

فقال وهو يحضر ورقة وقلماً من خزانته ويخط عليها توقيعه الأصلي ليثبت لها أن ما معها لا يمت



له بصلة:

– سنستبعد بالطبع أمرَ أنه (مازن) آخر؛ لأن هذا الاسم غير منتشر بالجامعة ولا يوجد من في الجامعة من يحمل الاسم سواي.

رأت (رنا) أن الإمضائين غير متماثلين بل إنّ الخطّين مختلفان تمامًا عن بعضهما أيضًا.. استأنف (مازن) حديثه وهو يقول:

– لهذا نأتي لاحتمالية أن هنالك مَن يحاول تلفيق هذه التهمة بي ويحاول أن...

توقف (مازن) عن الحديث وهو يوجّه نظره لما هو خلف (رنا) لتنظر هي الأخرى للخلف بحركة غير إرادية، لتعلق الكلمات في حنجرتها دون تصديق لما تراه.

* * *

لاحظت أني أجلس وحيدًا في المكان.. أن يكون عدد الزبائن في هذه الكافيتريا صغير، فهذا طبيعي، فالطلاب لا يحبونها.. لكن هذه الهالة العجيبة من الفراغ لم أشهدها من قبل.



شعرت ببردٍ شديدٍ يقتحم جسدي، مَن هذا المعتوه الذي يجعل المراوح تعمل في فصل الشتاء؟! فنادت على النادلة، لكن ما من مجيبٍ ولا حتى عامل استقبال الطلبات، لم ألحظ حتى الطباخين من النافذة الصغيرة التي تفصل بين المطبخ ومقاعد الزوار.. أنا وحيدٌ مع الموسيقى التي بدأت تبدو نوعًا ما مخيفة! لا لا لست وحيدًا.. هناك فتاة تجلس على إحدى الطاولات ولكن لا أتبين وجهها، فظهرها هو المقابل لي فحسب.

فجأة انقطعت الإضاءة عن المكان لكن الموسيقى لا تزال تعمل.. هنالك شيءٌ سيءٌ سيحدث، فالكهرباء لا تنقطع بالجامعة إلا نادرًا أو عندما يتلاعب بي الصندوق.. إنها بشارة لشيءٍ بشعٍ سيحدث.

عادت الكهرباء –سريعًا كالعادة– لأجد النادلة تقف أمام طاولة هذه الفتاة.. كيف هذا فالتيار لم ينقطع أكثر من ثلاث ثوانٍ!! ثم لمَ تبدو النادلة أكثر نحافة ورشاقة؟! بل هي أصغر سنًا عن المعتاد بالفعل.

انقطعت الكهرباء وعادت من جديدٍ.. لأجد أن الفتاة والنادلة تتعاركان بالأيدي في صراع أنثوي طاحن.

انقطعت الكهربات وعادت من جديدٍ.. لأجد أن النادلة –الشابة– تجلس أمامي على نفس



طاولتي، كنت سأتساءل (لم كنتِ تتعاركين منذ ثوانٍ)، لكن رأسها انفجر فجأةً لتسقط على الأرض وتفسح لي مجال الرؤية، لأرى تلك الفتاة وهي تحمل مسدسًا قديم الطراز ويتصاعد منه الدخان معلنًا عن خروج الطلقة من فوهته للتوّ.

كانت ملابس تلك الفتاة ملطخةً بالدماء بطريقة موحشة.. بالإضافة إلى أن وجه الفتاة كان مليئًا بالخدوش والجروح التي لم تساعدني أبدًا في استبيان وجهها، ضغطت على الزناد سعيًا لإطلاق النار عليَّ دون تردُّد.... رفعت يدي حاميًا وجهي في حركة غير إرادية، أغمضت عيني منتظرًا الرصاصة التي ستخترق جسدًا شاهدَ جريمتها الشنيعة.. لكن لا شيء.. سمعتها تضغط على زناد المسدس عدة مرات بصوت التكّات الفارغة من البارود، فتحت عيني لأجد أن زخيرة المسدس فارغة وهي تحاول معه في فشل أملِه بوجود رصاصة هنا أو هناك مختبئًا في ساقيته.. كما لو أنها لم تملك سوى طلقة واحدة أو أنها قتلت الكثير قبل أن تأتي لهنا.

أعرف هذه الرائحة الخبيثة! لقد شممتها من قبل في غرفتي

إنها رائحة بول قطط!! حتى أمر انقطاع الكهرباء ذاك، يشابه أحد المواقف التي مررت بها في الستة أشهر المنصرفة.



لم أكمل استنتاجي؛ لأن الفتاة ألقت بمسدسها بعيداً لتركض نحوي لتنقض عليَّ مثل الثور الهائج ثماأنقطعت الكهرباء من جديدٍ..

* * *

كان يكذِّب عينيه ويكذِّب قدرة عقله على الإدراك، لم يكن في ثلاجة المشرحة الصغيرة أحد الكلاب كما ظنَّ، بل وجد رجلًا!!

لم تنتهِ الصدمة هنا.. بل كان هذا الرجل يرتدي ملابس سائقي الحافلات السعودية في فترة منتصف الثمانينيات، الزِّيُّ مميز بذلك الدبوس المحفور عليه نقشٌ يوضح العام والمدينة التي يعمل بها السائق.

تراجع (أمجد) للخلف وهو يأخذ أنفاسه في صعوبة.. كانت نيران الفزع تشوي قلبه بسرعة جهنمية، أثناء تراجعه اصطدم بشيء ما.. هو يعلم هذا المكان جيداً عن ظهر قلبٍ، ويعلم أيضًا -كما يعلم أن اسمه (أمجد)- أنه ما من شيء في هذه البقعة التي يخطو بها.. إذاً ما هذا الشيء الذي يمنع رجوعه للخلف؟!

هو وحيدٌ بائسٌ يواجه المجهول وحده.. لا يعلم أن هنالك أسرة كاملة مكونة من أب وأم وابنة صغيرة



في الرابعة عشر ومعها أخوها الأصغر الذي يبلغ السابعة من العمر، يقفون جميعًا متشابكي الأيدي خلفه تمامًا، جميعهم مشوهون.. جميعهم متألمون.. جميعهم تملأهم الدماءُ القاسية.. جميعهم كانت لديهم حياتهم الهادئة التي عبث بها شخصٌ ما ليصبحوا ثابتين للأبد تحت التراب كوجبة شهية للديدان.

(أمجد) يشعر بالذنب لكنه لا يشعر بآلامهم التي عانوا منها عند انقلاب الحافلة بل هو يشعر بشيء أكثر رعبًا.. يشعر بأنفاسهم الباردة من خلفه.

نظر للخلف ليجد غرفة المشرحة فارغةً كما هي، عاد بنظره للثلاجات المتراصة على الحائط بانتظامٍ، ليجد أن جميع أبوابها مفتوحة وفارغة من الداخل، رغم أن هنالك أبوابًا فتحها منذ دقائق ويعلم نوعية الكلاب القابعة فيها، لكنها الآن فارغة تقود للسواد كهاوية عملاقة تم تقسيمها لأبواب الثلاجات، هناك كلمة مطلية بالدماء على الفواصل المعدنية السميكة بين بابٍ وآخر.. كانت كلمة (قاتل).

حاول الركض والخروج من هذا الجحيم للحياة لكن الأموات كان لهم رأي آخر.. تحركت الطاولات المعدنية الحاملة لأدوات التشريح تلقائيًا في حركة عنيفة لتسد باب الخروج، لتسد مهربه الوحيد



لعالم أقل سواداً أو برودة، شعر بأن شيئًا يسحبه للخلف في حركة بطيئة.. يحاول (أمجد) مقاومتها لكنها تستمر في سحبه للخلف ببطء وقوة، نظر للخلف ليجد الكثير من الأشخاص المشوهين أو الممزقين الجلد يجرونه من ساقيه في بطء وتلذذ من رعبه.

كانت أصواتهم عبارة عن آهاتٍ وصرخاتٍ من الألم.. تلك الأصوات التي ظلّ يحلم بها عدة أسابيع في صغره بعد الحادث، التي لا طالما تمنى أن ينساها.. ها قد عادت كالسيارة السريعة لتصدمه من جديد على هيئةِ واقعٍ وليس كابوسًا، فكم أحيانًا يكون الكابوس نعمة في انتهائه الذي لا يترك بك أيَّ بصمةِ أذىً أو تشفٍّ؟

بدأ هنا (أمجد) يصرخ طالبًا النجدة عندما رأى أن هؤلاء الأشخاص يجرونه ناحية باب الثلاجة التي يقبع فيها سائق الحافلة.. كان يصرخ بلا فائدة.. كان يتوسلهم بلا فائدة.. كان يبكي بلا فائدة.

أخيرًا وصل للثلاجة وشعر بيدِ السائق الباردة وهي تمسك بذراعه لتسحبه لداخل الثلاجة.. هنا صرخ، ودموع الخوف والندم تملأ مقلتي عينيه وقال: (أسف لما حدث.. لقد كنت صغيرًا.. أم أقصد)

* * *



لعالم أقل سواداً أو برودة، شعر بأن شيئًا يسحبه للخلف في حركة بطيئة.. يحاول (أمجد) مقاومتها لكنها تستمر في سحبه للخلف ببطء وقوة، نظر للخلف ليجد الكثير من الأشخاص المشوهين أو الممزقين الجلد يجرونه من ساقيه في بطء وتلذذ من رعبه.

كانت أصواتهم عبارة عن آهاتٍ وصرخاتٍ من الألم.. تلك الأصوات التي ظلّ يحلم بها عدة أسابيع في صغره بعد الحادث، التي لا طالما تمنى أن ينساها.. ها قد عادت كالسيارة السريعة لتصدمه من جديد على هيئةِ واقعٍ وليس كابوسًا، فكم أحيانًا يكون الكابوس نعمة في انتهائه الذي لا يترك بك أيّ بصمةِ أذىً أو تشفٍّ؟

بدأ هنا (أمجد) يصرخ طالبًا النجدة عندما رأى أن هؤلاء الأشخاص يجرونه ناحية باب الثلاجة التي يقبع فيها سائق الحافلة.. كان يصرخ بلا فائدة.. كان يتوسلهم بلا فائدة.. كان يبكي بلا فائدة.

أخيرًا وصل للثلاجة وشعر بيدِ السائق الباردة وهي تمسك بذراعه لتسحبه لداخل الثلاجة.. هنا صرخ، ودموع الخوف والندم تملأ مقلتي عينيه وقال: (أسف لما حدث.. لقد كنت صغيرًا.. أم أقصد)

* * *



عندما نظرت (رنا) للخلف مقلدة لسلوك (مازن) وجدت أن جميع الخزانات مفتوحة على مصرعها.. عادت بنظرها إلى (مازن) من جديدٍ لتجد أن جميع أبواب الخزانات القابعة خلفه انفتحت هي الأخرى، لم يمر على التفاتتها ثانية واحدة وفجأة تجد جميع الأبواب مفتوحة في شكل غريب!!

لم تستطِع أن تفكر لتعطي تفسيراً منطقياً سليماً لما حدث للتوِّ.. لكن ما حدثَ جعل تعجبها يتضاعف حيث كانت جميع الخزانات تنفتح وتنغلق في شكلٍ عشوائيٍّ مصدرة ضجةً عالية.

عقل (رنا) كان يرفض الخضوع للفكرة الواضحة على الملأ.. كان يفكر ويحاول الوصول للمنطقية، لكن (مازن) لم يفكر مثلها بل كان يتصرف، فجأة انغلقت جميع أبوب الخزائن مصدرة صوتًا مدويّا تابعة صوت تحطيم للزجاج والمرايا القابعة في نفس المكان من أثر قوى الصوت.

كان كلاهما يتلفتان حولهما في بلاهة حتى توقفا عن الحركة عندما سمعا صوت أنفاس حادة جدّاً قريبة لصوت الأفاعي عند فحيحها.. لم يكن الصوت ببعيد أو بقريب، هذا يعني أن صاحبه يتحرك!! أسرع (مازن) لفتح أحد أبواب الخزائن ودفع بها (رنا) الغارقة في حيرتها كالطفل الذي يكتشف النار لأول مرة.. أما هو فقد اختار الخزانة المقابلة لها



عندما نظرت (رنا) للخلف مقلدة لسلوك (مازن) وجدت أن جميع الخزانات مفتوحة على مصرعها.. عادت بنظرها إلى (مازن) من جديدٍ لتجد أن جميع أبواب الخزانات القابعة خلفه انفتحت هي الأخرى، لم يمر على التفاتتها ثانية واحدة وفجأة تجد جميع الأبواب مفتوحة في شكل غريب!!

لم تستطِع أن تفكر لتعطي تفسيرًا منطقيًا سليمًا لما حدث للتوّ.. لكن ما حدثَ جعل تعجبها يتضاعف حيث كانت جميع الخزانات تنفتح وتنغلق في شكلٍ عشوائيٍّ مصدرة ضجةً عاليةً.

عقل (رنا) كان يرفض الخضوع للفكرة الواضحة على الملأ.. كان يفكر ويحاول الوصول للمنطقية، لكن (مازن) لم يفكر مثلها بل كان يتصرف، فجأة انغلقت جميع أبوب الخزائن مصدرة صوتًا مدويًّا تابعة صوت تحطيم للزجاج والمرايا القابعة في نفس المكان من أثر قوى الصوت.

كان كلاهما يتلفتان حولهما في بلاهة حتى توقفا عن الحركة عندما سمعا صوت أنفاس حادة جدًّا قريبة لصوت الأفاعي عند فحيحها.. لم يكن الصوت ببعيد أو بقريب، هذا يعني أن صاحبه يتحرك!! أسرع (مازن) لفتح أحد أبواب الخزائن ودفع بها (رنا) الغارقة في حيرتها كالطفل الذي يكتشف النار لأول مرة.. أما هو فقد اختار الخزانة المقابلة لها



ليختبئ فيها؛ حيث كانت الخزانات مستطيلة الشكل تمتد من الأرض لمسافة مترين إلا بعض السنتيميترات تسهل أمر الاختباء هذا.

بدأ عقلها يعود للمنطقية من جديدٍ وهي تتذكر متى بدأت هذه الرسائل في الوصول لها.. لقد بدأت -تقريبًا- بعد أن اشترى (فادي) الصندوق بأسابيع قليلة حسب التاريخ الذي ذكرَه هذا الأخير من حكايته أمس معهم، اتسعت عينها عندما نظرت من الفتحات المستطيلة الصغيرة في أعلى الخزانة.

كيف لم تفكر في هذا منذ البداية؟! (مازن القاظمي) معهود عنه العجرفة والغرور.. فكيف يقف معها للحديث هكذا ليبرئ نفسه من ادعاءاتها.. ثم كيف يتحرك هكذا بدون اثنين من أصدقائه -على الأقل- الذين يمثلون حراسة الشخصين، فهذا الفتى يمشي في موكب كما ذكرنا.. وكيف لفتى في أنانيته أن يحاول حمايتها كما يحمي نفسه؟!

الإجابة واضحة للعيان الآن.. كل شيء واضحٌ من البداية وليس غريبًا، لكنها ترفض أن تنظر له بشكل أشمل.. هذا ليس ب(مازن القاظمي) والدليل على ذلك هو زوج العيون الحمراء المتوهجة التي تراها من الخزانة المقابلة لها.. من الخزانة التي يختبئ فيها هذا الشيء!



* * *

فتحت عيني على صوت النادلة العجوز التي اتضح أنها تقف بجواري وهي تقول:

– استيقظ يا بني.. سنغلق المكان بعد دقائق.

كانت هي! نفس النادلة العجوز التي أعرف ملامحها حيث ألقى عليها الزمن بصمت المعهودة من التجاعيد من قبل ..هي لا تعلم كم أشعر بالراحة وأنا أنظر لوجهها اللعين هذا ثانيةً.

نظرت حولي في توتر لأجد أن كل شيء طبيعي، العامل يقف أمام خزينة النقود، وألمح الطباخين يبدّلون ملابس العمل لملابسهم العادية، كل شيء طبيعي إلا من شيءٍ واحدٍ.. المكانُ خالٍ من جديد، ربما هذا طبيعي لأن موعد الإغلاق قد حان.

هل نمت أثناء القراءة.. هل كل هذا كان كابوسًا شنيعًا؟.. ربما هذا يوضّح لمَ ملامح وجه الفتاة لم تكن واضحة.. فالحلم –كما يعلم الجميع– ضبابي الملامح والقواعد، لا تعلم متى بدأ أو تصاعدت الأحداث، لكنك في منتصفها ومنغمس في ذروتها حتى الختام.. لكن ما معنى هذا الحلم العجيب؟! في أغلب الأوقات أحلُم بأشياءَ لها علاقة



بالصندوق أو بالملعون (مازن)، أما هذه المرة لا شيء.

– وجهك تظهر عليه علامات الإجهاد يا بني.

قالتها عاملة النظافة التي تمسح الأرض من حولي للمرة الأخيرة قبل إغلاق الكافتيريا، بلهجة قريبة للبدوية التي تحاول التظاهر بأنها لبنانية.

كانت ملامحها القاسية ولون بشرتها الخمري يوحي بذلك.

– نعم فأنا أعاني من بعض الأيام الشاقة.

– ربما أنت في حاجة للنوم.

– نعم أعتقد.. شكرًا لك يا...

– (شوقية).

نظرت للأسفل لأجد أنها تمسح دماء تتساقط.. دماء!! من أين؟! رفعت ناظري لأجد خيطًا رفيعًا من السائل الأحمر الدافئ يتساقط في وتيرة منتظمة من مؤخرة رأسها.

وضعت كُلَّ ما كان في محفظتي من نقودٍ على الطاولة وهربت من مجلسي أهرول للباب.. أنظر



إلى لوحة قائمة الطعام المعلّقة فوق أعلى جدران المحل لأجد أن صور الحلويات والمشروبات قد تبدَّلت جميعها لأعضاء بشرية، وقفت بجوار الباب أتأمل المكان الشبيه ببيت الأشباح هذا في نظرة أخيرة، كنظرة الحبيبين بعد الفراق.

وها هو أصل اللعبة.. إنه الصندوق موضوع على الطاولة التي كنت أجلس إليها منذ دقائق في سكون وكأن الدنيا بخير حالٍ!

أنا لا أفهم شيئًا مما يحدث لكن عليَّ النفاد بحياتي الآن..

فظللت أركض لغرفتي وموسيقى الجاز لا تفارق رأسي كما لو أنها تتبعني، ليتَ أثرُ الموسيقى هي العالقة في رأسي كاللحن المزعج مثلًا.. بل الموسيقى نفسها لا يقل صوتها مهما ابتعدت عن الكافتيريا، كما لو أن هذا الصوت يصدره عقلي!! أنا أعرف هذه المقطوعة وأكرهها.. ليس لأنها موسيقى رديئة، بل لاسمها.

أركض ومقطوعة (نهاية العالم) تلاحقني كظِلّي، يا لَهُ من اختبار معوي –ملء بالدماء– شنيع؟!

* * *



بعد جملة (أمجد) البائسة الأخيرة توقف كل شيء على غَير المتوقع.. الأصوات، القشعريرة الباردة التي احتلت جسده بفعل يدِ السائق، جذب الأشخاص له.. هل قتلوه؟! هل هو حبيسُ عالمهم المؤلم الآن؟!

فتح (أمجد) عينيه ليجد نفسه جالسًا على الأرض ساندًا ظهره لباب الثلاجات الباردة، نهض متثاقلًا لا يعلم متى بدأ الأمر أو متى انتهى، وهو يضع يده على رأسه.

هل هذه رائحة الياسمين التي يشتمها الآن؟! هل هذا مسك الختام، أم هي الهدوء الذي يسبق العاصفة؟! نظر (أمجد) حوله لتنقلب معدته ويشعر بأنه في حاجة لإخراج ما فيها من هولِ ما رأى من أشلاء بشرية محفوظة في البرطمانات هنا وهناك، على هذه البرطمانات أن تحتفظ على حيوانات صغيرة محنطة في الفورمالين كالضفادع والفئران والثعابين و.. و.. إلخ

ركض ناحية الباب ليجد أنه مغطى بكَمٍّ كبيرٍ من الصور الفوتوغرافية الصغيرة التي تشبه الصور الناتجة من معمل الشرطة الجنائي، صورة له مع أبويه وهو صغير، يحمل الكرة بين أنامله الشيطانية، صورة أخرى وهو يركض خلف كرته وتتبعه والدة لنجدته من موتٍ مُحتَّمٍ، صورة للسائق ينحرف بعجلة القيادة عن خطٍّ سيره، صورة



للحافلة وهي تصدم الكثير من السيارات وتشتعل فيها الحرائق، صور عديدة للكثير من الأشخاص الذين يشتعلون أو تتحطم رقابهم أو تتهشم جمجماتهم، صورة لأسرة من ثلاثة أفراد في سيارة تتدحرج على الطريق مسافة لا بأس بها..

هناك مشاهد لم يرَها وهو طفلٌ؛ لأنه كان بعيداً عن الحافلة بعد انحرافها.. لكن هذه الصور ساعدته على التعمق في الحادث أكثر وأكثر ويزداد إحساسة بالذنب.

همَّ لفتح الباب لكنه تفاجأ بشخصٍ يقف على الباب ليصرخ (أمجد) من الفزع بدوره، كان شابًا عاديًا لأقصى الحدود، لا شيءَ يُذكَر لوصفه غير بشرته القريبة من السمرة مثله.. ثم نحن نعلمه جيداً.. إنه (وائل).. ألا تتذكرونه؟! عودوا بالأحداث قليلًا لتتذكروا متى ذكرنا هذا الاسم اليافع من قبل.

ناول (وائل) محفظة جلدية ل(أمجد) دون أن ينطق أو يرمش أو يرمق بعينه، فتح (أمجد) المحفظة بدوره في حيرة فوق حيرة، ليجد بداخلها البطاقة الشخصية لصاحب المحفظة.. لم تكن صورة الشاب، بل هي صورةُ سائقِ الحافلة الذي رآه في ثلاجة الحيوانات وفي الصورة المعلّقة على الحائط.



رفع (أمجد) رأسه ليجد أن هذا الشاب قد اختفى! لا وقت لإهداره في التفكير؛ فما من شيء منطقي يحدث حتى الآن؛ لذلك قرر أن يركض لغرفة (فادي) لينهي هذه اللعبة وصوت انحراف الحافلة يتعالى في أذنه، يا له من اختبار ذاتي بشع؟!

* * *

كانت (رنا) في حربٍ نَفسيَّةٍ بحق لا تستطيع أن تصب تركيزها على شيءٍ معينٍ لأكثر من ثلاث ثوانٍ.. كما لو أن هنالك أحدهم يعبث بعقلها بالمعنى الحرفي للكلمة.

كيف كان يبعث لها (مازن) الرسائل وهو ميت؟! من شبيه (مازن) هذا السكان كالوحش في الخزانة الأمامية لها؟! ما هذا الصوت الذي يقترب منها؟! كيف لم يستمع أحد لخبطات أبواب الخزائن تلك؟! يكاد رأسها أن ينفجر من هذه الأفكار والتساؤلات المتداخلة.

رأت من فتحات الخزانة المقابلة لها كمّاً هائلاً من حشرات الخنافس تتدافع بشكلٍ مُقزِّزٍ.. هنا قررت بأنها لن تخرج أبداً من هذه الخزانة.. حشرات على الأرض وصوتٌ مُرعبٌ يقترب.. لماذا لا يخشى المرء على نفسه في أوقاتٍ كهذه؟!



فضلت (رنا) الموت جوعًا في هذه الخزانة الباردة على مواجهه العالم الخارجي.. لكن هذا الرأي سرعان ما تغيّر، عندما رأت تلك الخنافس تتسلق باب خزانتها عازمة على اقتحامه من فتحاته، خرجت من الخزانة وهي تقفز مغمضة العينين أملًا منها ألا تتمسك أي من هذه الحشرات المقززة بسيقانها.. حتى اصطدمت بشيء ما وسقطت على الأرض.

فتحت عينيها لتجد مجموعة من الشبان المفتولين العضلات يتبادلون الهمسات والضحكات الساخرة لوجودها بالقسم الخاص بالفتيان من صالة الخزائن.

نظرت لهم (رنا) بحيرة وهي على الأرض وبالمثل فعل الشبان لكن كانت في عيونهم نظرة شهوانية سادية تجهل سببها، نظر الشبان لمن يقف خلف (رنا) ببضعة أمتار.. كان (مازن) وهؤلاء الفتيان هم عصابته.

ظهرت الابتسامات على ملامحهم بخبثٍ عندما قال وهو يغلق سحّاب بنطاله وعلى وجهه ابتسامة شيطانية:

– هذه الفتاة تحب العنف حقًا.



نظرت (رنا) للقائد ثم نظرت للشلة وعلى وجوههم كل علامات الخبث والتشفي، وهي لا تفهم أي شيء حيث كان عقلها يهطل عليها بالتساؤلات من جديد.

من أتى هؤلاء الشبان؟! متى خرج (مازن) من الخزانة التي امتلأت بالحشرات؟! أين الحشرات؟! أين..

توقفت عن الأسئلة أخيرًا عندما نظرت لملابسها التي كانت وظيفتها ستر جسدها الأنثوي الجميل.. لكنها وجدت الملابس ممزقة في عنفٍ وتكشف الكثير من ثنايا جسدها!! لم يكن التمزيق مخالب أو حوافر كما خُيِّلَ لكم.. بل هو تمزيق آدمي بلمسة حيوانية.

لا وقت لأسأله الآن.. يجب أن تلملم ما تبقى من كرامتها الممزقة كملابسها وتركض من هنا، يا له من اختبار نفسي مفزع؟!

* * *

نفس اليوم

تقابل ثلاثتنا أمام باب غرفتي وجميع وجوهنا معطنة بطمي الفزع وغبار الرعب.. دخلنا الغرفة



لنجلس على الأسرة ولا يوجد صوت في المكان غير صوت أنفاسنا الباردة المرتجفة.

كانت هنالك بضعة قطرات دماء هنا وهناك على ملابسي.. لا أعرف من أين أتت ..هل من تلك النادلة التي انفجر رأسها أمامي أم رأس عاملة النظافة (شوقية).. لكن بعد التدقيق في ملابسهما اتضح أن حالتهم لا تقل سوءاً عني أو ربما تفوقني.

(أمجد) يحمل محفظة جلدية يتمعنها بخوف وبنطاله ممزق كنوع من الجذب، (رنا) تسند ذراعيها على فخذيها لتثبت عليها رأسها وفي عينيها شرود الدنيا وملابسها ممزقة هي الأخرى.

ماذا حدث لهما؟ ليتني أعرف لكني لن أسألهما – ليس الآن على الأقل–.. لقد ورطهما بما فيه الكفاية في هذه الأحداث السخيفة، هم ضحايا مثلي لكن الفرق بيني وبينهم أني دخلت في الصراع مجبرًا أم هم فكان لدي الخيار لأحفظ عليهم بعيداً في أمان، لكن حاجتي للبوح عما في صدري غلبتني.

– لقد حسمت أمري.. سأقوم بتأجير شقة صغيرة في أحد العمائر القريبة من الجامعة وأعرض الصندوق للبيع من جديد.. هذا الشيء النجس يتلاعب بي وقد سئمت من لعبة القط والفأر تلك..



ليعود المارد لقتلي مثل (مازن) أفضل من أن يقتلني الصندوق رعبًا.

قلت هذه الجملة وأنا أخرج الصندوق من أسفل فراشي واضعًا إياه فوقه ومخرجًا حقيبة سفري العملاقة عازمًا على تنفيذ قراري، بصوتي آثار الخوف مما شاهدته.

لم ينطق (أمجد) وظلّ يتفحص تلك المحفظة في عالمٍ آخر بعقله.

أما (رنا) هي التي توقفت عن شرودها ونهضت ناظرة لي بغضب قائلة وهي تشير ل:

– اسمع يا (فادي).. لقد عشت اليوم أبشع أيام حياتي.. مهما كان المسئل؛ أكان ذلك الصندوق أم ماردك أم شياطينك تلك، فقد أذللتني وجرّسْتَني وأهانت كرامتي واللّه أعلم إذا كان تم اغتصابي أم لا.

تقدمت ناحية الصندوق خاطفة إياه بين كفيها الذي لم يمكث بينهما كثيرًا؛ لأنها قذفته إلى الحائط بكل غل وهي تصرخ:

– وأنت تحدثني عن أن هذا الشيء هو السبب.



حاولت منعها لكنها كانت أسرع مني، قالت وهي تفتح الباب خارجة بيد وباليد الأخرى تحاول سد أماكن الفتحات الممزقة على ملابسها، والدموع تملأ عينيها:

– سأرحل من هذه الجامعة إلى الأبد.. لا تحاول الاتصال بي من جديد من فضلك.

نهض (أمجد) ثم تبعها للخارج، قاصداً حجرته في صمتٍ كما لو أنه أصبح أبكمَ فاقداً القدرة على النطق.

ياللهول.. ياللهول ما الذي فعلته هذه الغبية.. لقد أطاحت بالصندوق في الهواء.. (مازن) قام بشيءٍ خاطئٍ للمارد فأدى إلى موته.. ما بالكم إذاً بِمن يهين الغرض المتعلق به المارد الجديد.

نهضت مسرعًا للدولاب الخاص بي باحثًا ومفتشًا فيه عن هذا الغرض الذي نسيته منذ أشهر.. أين هو أين هو.. لم أجده في البداية، فقمت بإطاحة كل ملابسي في عنفٍ شديدٍ حتى وجدته.. إنه الخاتم.

ذلك الخاتم الذي من خلاله أكشف تحركات الكائنات المظلمة، الذي تركته في دولابي مرتاح البال بعد أن حصلت على الصندوق عندما تحوَّل لونُه للرمادي معلنًا أني في وضعية الأمان بدون مراقبة أو خطر.



لكني احتفظت به في حالة الحاجة إليه من جديدٍ، أملًا في عدم حدوث هذا وها هو الآن يتوهج باللون الأحمر معلّناً عن علامة الهجوم.

نظرت للمرأة وصحت كالمجنون:

«لا لا أرجوك.. لا تؤذِها.. هي أصغر وأقيم من الموت»

أحتاج إليها في هذه الحياة.. أنا لا أسوي شيئًا بدونها.. هي كل حياتي وأحلامي.. هي الوحيدة التي أحبّتني كما أنا بكلِ عيوبي ولخمتي.. هي كل ما في داخلي من حُبٍّ وولعٍ وجعلت فؤادي في تعلُّقي بها في حالة من الصرع .

أفهم أنك تحتاج الي ضحية للتكفير عن هذا الجرم.. سأحضره لك لكن لا تؤذيها أرجوك».

عليَّ التفكير بسرعة وألا سأجدها مقتولة الآن على يدِ كيان الصندوق، ليت الكتب ظلّت معي لأستطيع الحديث بها مع ذلك الكيان اللعين لن تفيد الحيوانات هنا.. هذه الحيوانات كانت للتحلية الأسبوعية بالنسبة للمارد.. أما الآن الكيان يريد تعويضًا أكبر.. إنه يحتاج لقُربانٍ بشَري.

لا أصدّق ما جال بخاطري للتو.. لكن القربان يجب أن يكون (أمجد)!!



دائماً ما كنت أقول أني أفضل وضع نفسي أمام الهاوية على أن أعرّض أصدقائي للخطر لكن يبدو أني كنت أبالغ في شهامتي.

فأنا كغيري من البشر.. تتفوق لدي غريزة البقاء على كل غرائز الصداقة تلك.

لكن لمَ (أمجد)؟! ولمَ سواه؟ دائماً ما كنت أحقد عليه لتفوّقه ومكانته العلمية التي وصل لها في الجامعة رغم صغر سنه.. دائماً ما كان يستغل صداقتي لأموالي التي يقترضها مني دون إرجاع.. كثيراً ما لمحته وهو ينظر إلى (رنا) نظرة شهوانية متعطشة.. دائماً كان هو محل الإعجاب والفخر للأساتذة وأنا في الخلفية لا يهتم أحدٌ لي.. دائماً هو وليس أنا.

هذا الفتى يستحق الموت.. بل سأتمتع بهذا أيضاً، لدي من الأسباب كفايةً وتفيض، كما لو أن الصندوق هو فرصتي الذهبية للتخلص من صديقي المدعي.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل.. كيف مرّ الوقت بهذه السرعة؟! لا يهم الآن.. المهم أن حالة الهدوء تلك ستساعدني على إتمام مهمتي في صمتٍ.. خرجت من غرفتي بعد أن أخذت منها سكيني، قابضاً عليه بيدي في شدة متقدماً ببطءٍ



ناحية غرفة (أمجد) فتحت الباب الذي لم يكن مُغلَقًا بالمفتاح ليصدر أزيزًا ضعيفًا، تقدمت ناحية فراشة وكانت قطرات العرق تتصبَّب من رأسي بغزارة شديدة رغم الشتاء وبرودته.

بدون تفاصيل كثيرة مرهقة لأعصابي المبتلية؛ بدأت في تسديد الطعنات لصدره ومعدته وأنا أسمع صوت أنفاسه وهي تتحشرج في ألم.

أطعن.. أطعن.. أطعنِ في وحشية وجنون كُلّ ذَرَّة حقدٍ لديَّ تزداد.. كل ذرَّة غيرة لدي تنمو..

وعندما توقفت أخيرًا عن الطعن نظرت ليدي لأجد أن اللون الأحمر قد اختفى من الخاتم وقد حل بموضعها اللون الرمادي علامة الاستقرار.

متى ارتديت هذا الخاتم من الأساس.. لقد تمعنته فحسب في غرفتي ولم أرتدِه!! وجَّهت نظري للجثة الحديثة الصنع الراقدة على الفراش أمامي.

ليتوقف قلبي عن النبض من شدة الفزع، لم يكن (أمجد) مَن اقتحمت غرفته وقتلته.. بل كانت (رنا)!!

جلست على ركبتي أمام الفراش وأنا أمسك بيدها المطلية بالدماء وأنا أقرِّبها من وجهي باكيًا وأقول في حرقه ومرارة:



«لا أرجوكِ.. لا تتركيني، أنا لا أستطيع إكمال حياتي بدونك.. حياتي لم تكن لها نكهة إلا بوجودك فيها.. أنتِ من جعلتِني أشعر بالمسئولية والحب والتضحية والفرحة والحزن.. أنتِ من علّمتني كيفيه الحياة بشتى معانيها ونكهاتها.. أنتِ من كان يعلم ما أصابني من خللٍ وتَعلمين كيف كانت نتيجة معركتي مع اليوم الغابر.. أنتِ من كنتِ تحثينني على الصبر على كل ما أصابني من بلاء أو فشل.. أرى فيك دومًا الحياة والجمال ولا أريد أن أفقد هذا أو ذاك، لا تتركيني.. أنا ليس لدي الشجاعة لمواجهة العالم الخارجي بدونك.. أنا خائف.. بدونكِ»

هنا تذكرت كل شيء.. لم يكن أبدًا (أمجد) بالصديق الذي يخون الأمانة ليختلس النظرات الشهوانية لفتاتي، ولم يكن بالمستغل الذي يصادقني لمالي، ولم أشعر نحوه بالغيرة أو الحقد مطلقًا، بل كنت أعتبره أخي من أبٍ وأمٍ آخرين، كان (أمجد) هو الذي يجعلني أتعجب من أن العالم ليس كل سكانه أوغادًا.

كل هذه الذكريات، كل هذه المشاعر، كل هذا الكره والحقد.. كله كذب، كلها أوهام ذرعها الصندوق في عقلي الهش ليقلبني على أصدقائي.



كنت دائمًا ما أريد حمايتهم من الانغماس في عالمي المبعثَر الملامح.. ولكن ما كان يجب حقًا أن أحميهم منه هو.. أنا، هو الشيطان الذي كان يتوهج الخاتم باللون الأحمر محذرًا عن هجومه، أنا من انتقمت للصندوق وقدمت له مهينته على طبقٍ من ذهبٍ.. الصندوق كان يريدها على أي حالٍ؛ فهو من زرع فكرة الضحية الآدمية تلك في رأسي.. فسواء بي أو بدوني كان هذا مصيرها، نهضت متثاقلًا وأنا أتحامل على الألم الذي يمزقني من الداخل ولففتها بالملاءة الملوثة بالدماء ذاهبًا بها لغرفتي.

كم كان لقاؤنا الأول ساحرًا، كم كانت مسكة يدها الأولى دافئة، كم كان موعدنا الأول شاعريًّا.. كل هذا انتهى وانتهت معه مشاعري الآدمية.

فأنا الآن جسدٌ بلا روحٍ، فقد ماتت حبيبتي ساحبةً معها روحي للأبد.

لقد شاركتُها الموتَ هذه الليلة ولم يتبقَّ مني سوى الفتات التي تؤجل موعد التحاق جسدي بها.

وضعتها في غرفتي، على فراشي، ووضعت الصندوق على الفراش الآخر وخرجت لأنام على باب الحجرة أملًا بألا تنفتح عيناي من جديد.



فالعالم تمادى هذه المرة في مرارته.

* * *

بعد شهرين

الأرق يشبه الضيف الثقيل الذي يزور العالم أجمع، وكان مُقدرًا له أن يزورني يومًا ما..

شهران من الأرق فكرت فيهما كثيرًا في الانتحار، كم أتمنى لو أن كليتي تأخذ إجازة صيف لأعود لأبكي في أحضان أمي بدلًا من البكاء في ركن غرفتي المظلمة وهي تقذفني بكل الهموم في سيادية.. أسقط في هاوية البؤس كل يوم وأنا أحاول التشبث بأيادٍ من الفراغ.

كنت أظن أن في الصندوق ملاذي، كنت أظن أن حبي سيحيا للأبد، كنت أظنُّ أني سأقدر على حمايتها، لكن الأوهام لا تتحقق.. فدائمًا هُناكَ ما يُوقف الحدثَ عن إتمامه.. فحتّى الليل الذي يحاول أن يخنقني بهمومي كلَّ يومٍ يتراجع مع أول شعاع ضوءٍ يصدره الفجر ليشغلني بأعباء حياتي المعتادة.

(رنا) اختفت بعد أن وضعتُها في حجرتي.. لم يتمّ التحقيق في اختفائها بَعدُ؛ لأنها أخبرت زميلتَها



في الغرفة قبل أن.. أقتلها.. بأنها ستسافر اليوم التالي عائدة ل (صيدا).. في حين أنها لم تخبر والديها بَعدُ؛ لذلك تظن زميلتها والجامعة أجمع أنها عادت ل(صيدا) بينما أسرتها تظن أنها لا تزال في الجامعة.. لكن هذه الحالة لن تستمر كثيراً.. فيوماً ما سيعلمون أنها اختفت، وتبدأ التحقيقات من جديدٍ وسأعترف فوراً.. فحياتي لم يتبقَّ بها الكثير لأعيش من أجله، فأنا أفضّل الإعدام أو الحبس على هذه الحياة.

الغريب أن زميلتها لم تستيقظ مطلقاً تلك الليلة عندما ارتكبت جُرمي البشع، كما لو أنَّ الصندوق يريد أن يجعلني أرتكب جريمة مثالية بلا ثغراتٍ، لكنني استغللت نومها الأشبه بالموت هذا وقمت يومها بتجميع كل ملابس (رنا) وأشيائها وأحرقتهم في إحدى المناطق المهجورة بالجامعة –تحت الإنشاء– ليبدو أنَّ (رنا) قد سافرت بالفعل.. لكن لا زلتُ أصرُّ أن يوماً ما سينكشف كل هذا.

بوسعنا القول إن (أمجد) قد فقدَ النُّطقَ تماماً لسبب أجهله حتى الآن.. لكنه يحاول قدر المستطاع التغلب على هذه الحالة وشحن أيامه بالمذاكرة فقط.. هذا بعد أن قاطعني بالطبع.

أما أنا فقد شابَ شعري من الخوف وكثرت التجاعيد على وجهي من همومي وأصبحتُ كالكهل



الصغير.. لولا علمي بأني أحمق لا مثيل له لكنت اعتكفت على لفافات التبغ أو المخدرات، لكني لست بارعًا في إخفاء آثارِ أشياء كهذه كزملائي، وأنّ أمورًا كتلك قد تؤدّي لفصلي من كلية الطب، فالقانون هُنا صارمٌ كجنيرال جيش.. لقد ذكرت من قبل أني لم أعد مقبلاً على الحياة وبالتالي مستقبلي، لكن لا داعي لتحطيم أملِ والدي أيضًا.. فالحكماء قالوا ذات مرة: «حاول الخروج بأقل خسائر لا أن تزيد الطين بلة».

عرضت الصندوق مرة أخرى على موقع (أيباي)؛ فأنا لم أفكر في غيره ولن أجهد نفسي للتفكير في نقيضه.. حتى البائع السابق كان قد غيَّر رقم بيته حتى لا أتوصل إليه إذا حاولت.

لم أكتب أنه ملعون أو مسكون كما فعل المالك الأول.. لقد انتهى اللطف والأمانة من حياتي لذلك سأحيا ما تبقى منها بالمكر واللؤم.

كتبت على خانة تصنيف الصندوق أنه أثريٌّ وتاريخيٌّ وهو في غاية الندرة.. لكني لم أكتب عليه سعرًا أنا الآخر، وأعتقد أنكم تعرفون السبب من المالك الأول.. أريد أن أتخلص منه فحسب.

بعد كل الأسئلة المزعجة نوعية «كيف حصلت عليه؟.. ماذا يوجد داخله.. لم تعرضه للبيع هنا ما



دام أثرياً؟!» والكثير الكثير من هذا النمط المتطفل من الأسئلة.. كما لو أن كل رواد هذا الموقع يتعاطون نفس أقراص الإزعاج تلك، حتى وصلت لاتفاق مُرضٍ بعد شهرين كاد جسدي أن يتحلل فيهما.

الشاري كان من لبنان وسيأتي لبيروت قريبًا برحلة عمل ليأخذه منّي.. لم يسأل كثيراً ولم أهتم أنا الآخر لمعرفة الكثير عنه، ولم ألتزم باحتياطات الأمان كالمرة السابقة، بعد أن أصبح لدي لا مبالاة من فَضْحِ أمري، وحصيلة لا بأسَ بها عن شوارع بيروت وكيفية التنقل بها، باختصار: إننا تقابلنا وابتعته الصندوق مقابل مائتين وثمانين دولاراً – عملة المعاملات التجارية–.. يكفينا تفاصيل مملة حتى الآن.

لا أعلم إذا كان فعلي هذا سيعود عليَّ بالكثير من الأذى أم لا.. لا أعرف إذا كان المالك الأول اتقى شر الصندوق ببيعه أم زاد هذا الأمر بلاء فوق بلائه..

لكن في شتى الأحوال أنا لا أطمع في الكثير من الحياة..

ليقذفني الصندوق بما لديه من مصائب.. فلم يعد لدي ما أخسره..



وها أنا في انتظار الأسوأ، بعد أن امتلكت الصندوق لثمانية أشهر دون فتحه قبل أن أبيعه.. في فبراير ٢٠٠٤



الحكاية الثالثة

لماذا النهايات دائمًا سعيدة والجميع بخيرٍ، دعونا نكسر هذه القاعدة ولو لمرة.. فالتعامل مع الشياطين لا ينتهي أبدًا بخير..

فدائمًا يسقط الضحايا

فبراير عام ٢٠٠٤

مدينة بعلبك بلبنان

الساعة التاسعة مساءً

عادل ديفيد

كل ما أستطيع قوله الآن أن هذا الصندوق هو تحفة دينية أثرية.. تلك النقوش المحفورة على جوانبه باحترافية شديدة، تلك الخامة القوية من الخشب، شكل القفل الجانبي الذي لم يعد متداولًا مثل الأول، الأشياء القابعة داخله والتي تنم عن كنز مدفون.. كل هذا يوحي أن هذا الصندوق لا يُقدَّر بثمنٍ، ليس بمئتين وثمانين دولارًا حقيرة.

عملي كمدير متحف للآثار الدينية –بشتى أنواعها– جعل هذا الغرض المميَّز يبرق في عيني كالنجم



المحترق.. لدي خبرة لا تقل عن العشرين عامًا من أعوامي الأربعين في الآثار الدينية ودراستها.

هخخخخ هخخخ (سعال)

اعذروني على سعالي المتكرر فأنا لا أعلم سببه؛ فمُنذ أن جلبت هذا الصندوق من بائعه أول أمس وأنا أشعر بتدهور كبير في صحتي الجسدية.. أنا مُقِلٌّ في ممارستي للرياضة وأتناول الطعام الجاهز ذا السعرات الحرارية العالية، القادرة على تحطيم شراييني التالفة بسرعة البرق، لكنَّ كُلَّ هذا لا يفسر هذا الألم المفاجئ الذي أصاب جسدي بين ليلة وضحاها.

في البدء، أصابني ذلك السعال ثم بدأت أشعر بوخز في عيني اليسرى وهناك احتقان مؤلِمٌ في أنفي وصدري رغم ابتعادي التام عن التدخين والكحليات.. كل هذا بدأ في الليلة الأولى من اقتنائي للصندوق كما لو أنه سيءُ الطالع.

لا أريد أن أشغلكم كثيرًا بتفاصيل حياتي العادية وصحتي المتدهورة.. فحياتي هي الملل الذي لم تعهده من قبل، لا أعني هنا أني أشعر بالضجر من حياتي وأني غير راضٍ عنها لا سمح اللّه..



بل أقصد أن حياتي كرجل متزوج من امرأة تهوى التسوق ولدي صبي في السابعة عشر من العمر يعشق ألعاب الفيديو وصبي صغير في العاشرة يقضي وقته في اللهو وإضافة بعض المرح علينا.. ليست بالحياة المثيرة التي تفضّل الاستماع إليها، بالإضافة إلى عملي في متحفي الذي تم ترقيتي فيه من مجرد مسئول عن أحد الفروع فيه إلى المدير العام به، لهو عمل روتيني خانق لا يوجد به ما يجذبك على حافة الكرسيّ أو يجعلك تتوقف عن طحن الفشار بين أسنانك، كما في السنيما، لهذا أفضّل الانغماس في العمل بدون العديد من المقدمات..

وضعت الصندوق في الدولاب الخاص بمنزلي ليومين دون لمسه بسبب انشغالي بالمتحف بالطبع، لكن أعتقد أنه حان الوقت لأتفحص الصندوق بنظرة أعمق لأرى إذا كنت سأودعه للمتحف أم لا.. لكن لدي شعور قوي بأن هذا الصندوق أثمن مما أتصور، فهذه الألواح الخشبية تخفي في طياتها الكثير من الأسرار.

وضعت الصندوق على مكتبي بجانب الأدوات التي استخدمتها للتعمق في الآثار، كالعدسة المكبرة والفرشاة الصغيرة وملقاط صغير وغيرها.



شعرت بوغز حارق في عيني اليمنى من جديدٍ، هناك شيء غريب يحدث.. أنا أرتدي نظاراتي الطبية هذه منذ ثماني سنواتٍ ولم أشك منها قط، وفجأة هكذا بين يوم وليلة هذا الوخز غير المُبرَّر.

سمعت هنا صوت جرس الباب، نظرت لساعتي متعجبًا سائلًا نفسي.. من قد يزورني في هذا الوقت المتأخر؟!

نهضت من خلف المكتب دون الإقدام على فتح الصندوق بعد، وأنا أشعر بهذا الوخز يزداد بطريقة مستمرة سائرًا في خنقة معي لباب الشقة.

* * *



طارق ميشيل

لا أعلم إذا كنتم لا تزالون تتذكرون اسمي أم لا.. لكن لتسهيل الأمر عليكم وإنجازًا للوقت الذي لا نملكه بالفعل، فأنا هو الضابط الذي كنت أحقق في قضية موت (مازن السيوفي).

نعم أسمع بعضكم يقول في ذهنه: ذلك الضابط المزعج الذي كاد أن يكبِّل (فادي) بهذه الجريمة التي لم يجؤأ على التفكير فيها.

لكن ضَعوا أنفسكم مكاني، وقتَها لم أملك مجالاً للشك غير في هذا الفتى العنيد الذي يُشعِرنا طوال هذه الفترة بأني أغتَصِب وقتَهُ الثمين عكس أنني كنت فقط أحاول أداء عملي.

أخبرت (فادي) في لقائنا الأخير بأني سأعيِّن عليه حراسة في حالة عاد القاتل له من جديدٍ لفترة قصيرة وبالفعل فعلت.. لم يمر سوى أسبوع وأمرت بإلغاء الحراسة من عليه بعد استقرار الوضع، لكن أنتم تعلمون كما هو يعلم أنها لم تكن حراسة.. بل كانت مراقبة، والمراقبة لا تتضمن فحسب تعيين شخص لمتابعة تحركات المتشبثة به بل أيضًا تشمل مراقبة المكالمات.



هذه المراقبة استمرت لشهور عدة، لا أنكر أني يئست فيها من إيجاد خيطٍ يُشير للقاتل.. أعلم أن القتيل لم يكن بالأهمية لكل هذه الجهود والتفكيرات المعقدة، فحسب التحقيقات كان القتيل آية في الفساد والشر المستتر خلف هيئة الطالب الجامعي، لكن كان هنالك سببان قويان جعلاني أتمسك بهذه القضية وعدم إغلاقها رغم إلحاح الجهات الأكبر منّي على نسيان أمرها.

السبب الأول هي تلك الأقاويل المتشابكة التي أودَى بها (فادي) في التحقيقات عن الرجل الأرنب أو رجل الحلوى ذاك أو مهما يكن.. رغم تمسُّكه بأقواله ووجود شاهدة على كلامه إلا أنه يفتقد للمنطقية بشكلٍ هائل، أما السبب الثاني وهي تلك النزعة الشرطية داخلي بجعل ملفي في الداخلية اللبنانية نظيفًا مليئًا بالقضايا المحلولة لا المقيدة ضد المجهول.

ناهيك بالطبع عن بأنه ليس لبناني الجنسية وقد قُتِلَ على أرضنا.

لهذا.. أخيرًا قادتني المراقبة لمعرفة أن (فادي) سيبتاع صندوقًا خشبيًا من شخصٍ يحمل اسم (أدهم صبري).. لكن كان واضحًا كوضوح الشمس في كبد السماء أن هذا اسمٌ مستعارٌ ليس إلا؛



فهذا الاسم يعود لبطل سلسلة (رجل المستحيل) المصرية.

كان لدي إحساسٌ قاطعٌ بأنَّ هذه المقابلة سينتج عنها أحداثٌ مثيرة؛ لهذا أرسلت أحَد المرشدين بالتلصص على تلك الصفقة التي علمت كل تفاصيلها.. وبالفعل توصلت إلى أنَّ البائع لا يحمل هذا الاسم.

لم أفهم لم أخفَى البائع اسمَهُ الحقيقي؛ لهذا بدأت في تحصيل المعلومات عنه.

البائع هو (مراد الحسيني) تاجر تحف ولديه البازار الخاص به بالإسكندرية، يعيش مستقلًا عن عائلته بدون زواج رغم تقدُّم سنه، مر مؤخرًا بسلسلة من الأحداث المأساوية كمقتل أحد عامليه ووفاة أمه في أقل من سنتين، بالإضافة إلى بعض الحوادث الجانبية، أتى لبيروت بهدف التجارة.

استطعنا أيضًا التوصل للإعلان الخاص به على موقع (أيباي) الذي كان يروي عن ذلك الصندوق الملعون كما صنفه (مراد).

مع المعلومات الفجة الموضوعة على الإعلان بخصوص تجاربه في الآونة الأخيرة والمعلومات التي استطعنا جمعها من الجيران وخاصة من تاجر آخر



يدعى (مروان) بحيلة تحقيقية صغيرة جعلناه – نحن رجال الشرطة- يقص كل ما يعرفه عن أمرِ الصندوق الذي وجدته مثيرًا للريبة بشكلٍ مهولٍ.. ختامًا؛ استطعنا تكوين صورة لا بأس بها عن خلفية حياة (مراد) في الثلاث سنوات الأخيرة الأكثر غرابة في حياته.

في الواقع لقد ركّزتُ جهودي على حياة (مراد) هذا لمعرفة قصته.. هنالك بالطبع ذلك الحل العنيف الذي أستطيع به أن أسأله شخصيًا عن طريق تحقيق رسمي، لكن بأي تهمة أو بأي صفة؟!.. أنا لا أملك سُلطةً في هذه الدولة حتى؛ لذلك كان عليّ العمل في الظلال متواريًا من ضوء المواجهة وجعل أصدقائي الضباط هناك يتولون هذه الأمور بالنيابة عني.. فالشرطة العربية متكاتفة دومًا.

هذا التركيز مع (مراد) جعلني أنصرف بنظري عن (فادي) الذي كانت حياته هادئة لأكثر من المعتاد.. تمامًا كما كانت في سابق عهدها قبل القضية لمدة عام كامل وأكثر.

بالإضافة إلى عدم استطاعتي للعمل بشكل رسمي في تجميع المعلومات حيث طلبت مني العديد من الجهات المسئولة في وظيفتي بترك الفتى والقضية وإلا سيتم تحويلي للمحاكمة



بتهمة التصنت على خصوصيات الأفراد.. وكانت النتيجة، بطء متابعة تحركات الفتى.

حمداً للّه أنهم لم يعلموا بشئون التحقيق عن (مراد) بمصر وإلا اتهموني بالتحريض على نزاع دولي.

في يومٍ كنت فيه بعيداً عن العمل وإرهاقه، رأى والدي صورة هذا الصندوق على هاتفي المحمول.. أجهل إذا كانت هذه صدفة بحتة أم هو القدَر المكتوب!! لكنه رأى أن في هذا الصندوق طابعًا في النقش والتصميم مرَّ عليه من قبل، لهذا قرر أن يبحث عن أمرِ هذا الصندوق بنفسه.. حاولت أن أقنعه أن هذا الصندوق ليس بالأمر الجلل ليبحث فيه لكن والدي كان يملك من الإصرار والعناد في هذه اللحظة ما لم أشهده من قبل على شخصيته الطيبة التي تميل إلى التفاهم والرضا أغلب الوقت.. فجعلني أوافق على محاولته في تبيُّن أصل الصندوق.

ملحوظة بسيطة: إنه عمي وليس بوالدي، لكنه هو مَن واظب على تربيتي وتعليمي بعد وفاة والدي بسن يافع في حادث عمل؛ لذلك أنا لا أدعوه إلا بأبي.

المهم؛ أنَّه في يومٍ ما هاتفني أبي قائلًا بصوت مرتعش: (لقد علمت ما هذا الشيء).. رفض أن



يطلعني على أي معلومات مما عرفها لكنه في المقابل ظلّ يتلو عليّ الأوامر لمعرفة أين هذا الصندوق الآن..

* * *

فتح (عادل) باب شقته في حيرة ولا يزال جسده يصعق من الداخل بجرعات متنوعة من الألم.. ألم صغير لكنه مزعجٌ، ليجد أمامه رجلاً ثلاثينيّا مفرود الجسد، قويّ البنيان، حليق الذقن والرأس، يرتدي معطفًا جلديّا ثقيلاً وعلى وجهه علامات الجدية القاسية.

زادت حيرة (عادل) أكثر عندما رفع ضيف المساء هذا شارته التي تعلن انتماءه لشرطة العاصمة.. تلعثم قليلًا ثم قال:

– ما.. ماذا تريد.. شرطي.. أيها الشرطي؟!

لا يدري لماذا تلعثم، فهو ليس بمجرمٍ أو شخصٍ مطلوب للعدالة ليتلجلج لسانه أمام الضابط.. ربما هو الألم الذي يغتصب أفكاره ويجرده من تركيزه.

فأجاب الشرطي في صرامته المعهودة بأنه ليس من يريده، فخطا خطوات قليلة ناحية اليسار كاشفًا



عن رجل كبير السن ذي لحية بيضاء كثيفة يقف في وقار وهدوء خلفه، مغمغماً، أنه هو..

كانت هذه المرة الأولى التي يدخل فيها هذا العجوز مجال رؤية (عادل) كان يرتدي جلباباً أسود داكناً تتدلى حول رقبته قلادة يتدلى في نهايتها صليبٌ خشبيٌّ، يصرخ للأجمعين بأن هذا الرجل راهبٌ ماروني كاثوليكي.

اصطدمت عيون كليهما فما كان لدى (عادل) خيار آخر غير السماح لهما بالدخول من غير معرفة سبب الزيارة.. فهي تلك الروح الباعثة بالطمأنينة عند مقابلتك لرجل دين، جعلته يرحب بهما ويدخلهما.. لكن الحيرة كانت لا زالت مسيطرة على الموقف.

جلس ثلاثتهم في صالون الشقة عندما سأل (عادل) عن مطالبهم، متناسياً كل أخلاق الضيافة من أثر غرابة الموقف، فقال الضابط محاولاً تهدئة التوتر المخيم:

– سيد (عادل).. لا داعي للورع نحن هنا لأجل الصندوق.

قال (عادل) في نوعٍ من الحدة ممتزج بالألم:



– إذا كنت تقصد الصندوق الذي ابتعته منذ يومين فهو ملكي وملك لمتحفي.

كان يعلم بأن الضابط يسأل عن هذا الصندوق بالذات دون أن يتبين عن أصل طلبه، فهذا الصندوق هو أقدم عمل أثري يمسكه بيده في حياته.. ومكانه ليس بالمتاحف الصغيرة كخاصته، بل يجب أن يقبع في متحف بيروت الوطني.. ولن يسمح بهذا.

تحدّث الضابط بلهجة تنم عن نفاد صبره قبل موعده بأنه ليس لديه الوقت الكافي لتلك الثرثرة، فعرض على (عادل) شراء الصندوق بأي ثمنٍ.. قال (عادل) بسرعة:

– عذرًا يا سيدي.. هذا يسمى تجارة آثار، لن أسلمك الصندوق إلا في حالة أمرٍ رسميٍّ من متحف بيروت أو وزير الثقافة في نقل الصندوق من عندي.

نظر الراهب للضابط ملاحظًا إياه مكورًا يده في سأم وغضب جم.

فتحدّث الراهب للمرة الأولى منذ رآه (عادل) وهو يقول محاولًا تهدئة الموقف الذي بترت نيرانه مبكرًا:



– أعرفك بنفسي يا بني.. أنا هو الأب (جرجس ميشيل) قس في كنيسة (مارجرجس) ببيروت.

أردف مشيرًا للضابط:

– وهذا هو ابن أخي الوحيد.. (طارق).. وأنا أُعتبَر كأب له، كما علمت أنه ضابط في شرطة بيروت ونحن هنا لنتناقش معك فحسب.

فأجابه (عادل) بأدبٍ أنه مستعد لأي حديثٍ، لكن بعيدا عن الصندوق، فهذا الموضوع منتهٍ، فأكمل الراهب بهدوء:

– سنرى هذا في ختام حديثنا، لكن أخبرني أولًا.. هل فتحت الصندوق؟

لم يفهم (عادل) الغرض من هذا السؤال.. فأجاب بتلقائية بأنه لم يفحصه بعد.. فتنفس الراهب الصعداء وكأنه استراح عند سماع هذه الإجابة.. فصمت لبرهة ثم أشار إلى (طارق) بالحديث الذي بدأ في سرد حكاية طويلة سمعناها من قبل.. الأمر أزلي في كل حكايات الغرائب، فدائمًا ما يحاول البطل إخفاء الشنائع التي تحيط به حتى يسردها كلها بنفسه في نهاية المطاف.. كما حكى (مراد) لأسرته.. ها هو الضابط يقص ل(عادل) ما حدث ل(مراد) من أهوال طوال فترة احتفاظه بالصندوق.



القصة لم تكن كاملة وكانت فيها بعض الزيادات من أحاديث الجيران والإشاعات بالطبع.. لكنها لم تهول الأمر أو تعظمه بل كانت تحافظ على الخط الأساسي للأحداث.. وهو الشؤم.

***

بعد عشرين دقيقة من السرد المستمر للحكاية الجهنمية وسط إصغاء كُلٍّ مِن (عادل) والأب الذي كان يسمع تلك التفاصيل للمرة الأولى هو الآخر، لم يدرِ لمَ استسلم (طارق) لهذه القصة هكذا وترك الضابط يكمل سردها بشكلٍ كاملٍ دون أي مقاطعة والسؤال بالنهاية:

– هل حدث كل هذا بالفعل؟!

– لقد أخبرتك بالأسماء والأماكن الحقيقية ويمكنك تشفي صحة الأمر إن رغبت.

– وما يعنيه هذا كله؟!

تدخل الراهب في الحوار مفسِّرًا

– عندما رأيت صورة الصندوق للمرة الأولى في هاتف ابن أخي.. لفتت انتباهي تلك النقوش



المحفورة عليه.. أعرف هذه النقوش وأميزها من وسط الآلاف.. إنها نقوش لتحويط الشياطين...

ليقاطعه (عادل) متعجبًا:

– ألم تخبراني أنَّ أصلَ هذه النقوش يهودي؟!

فيجيبه الراهب مبتسمًا في لطفٍ:

– تقصد كيف علمت غرضها رغم أنها بعيدة عن ديانتي.

أومأ رأسه بالإيجاب فأكمل الراهب بنفس الابتسامة:

– نقوش حفظ وتقييد الشياطين متشابهة بين كل الديانات؛ فالفارق بينهم ضعيف جدًّا بالنسبة لرجل الدين.. ثم إني أجيد بعضًا من العبرية، فبصفتي رجل دين، يجب أن أكون مُلِمًّا ببعضٍ من لغات الديانات الأخرى، ناهيك عن مجاورتنا لإسرائيل والصراعات الأخيرة بينهم التي أكسبتني كمًّا لا بأس به من اللغة العبرية ولأني أفضل التأكد على اليقين؛ ظللت أجمع في أبحاث واتصالات وجلسات جمعَتْ بيني وبين هاخانات من اليهود.. حتى تأكدت أن هذا الصندوق هدفه الأول والأخير هو جعله للشيطان ملاذه الوحيد.



فسأل (عادل) مستنكرًا:

– ولماذا أخذت كل هذا الوقت في تجميع المعلومات؟!

– لا أنكر أن اعتقادي في أمر هذه النقوش بدأ يقل مع كلمات الجهل على ألسنة كهنة اليهود.. فكلهم أكدوا لي أن هذه النقوش يهودية لكنها كلمات وآيات مُبعثرةٌ بعشوائية مثيرة للاستفزاز، ليس لها معنى سواء للعبادة أو لتقيُّد الشيطان، ولكن كما تعلم؛ فالشيطان مولَعٌ بإفساد كل كلمة إصلاح والعبث بها.. لهذا ظل يقيني بأن هذه النقوش ليست سوى شرٍّ متخفٍّ.

– وهل توصلت للحقيقة؟!

ظلّ الراهب يعبث بلحيته وهو يقول:

– نعم.. عندما قررت اختصار الطرق التي تؤدي لكلمة (لا أعرف ما هذا)، خاصة مع قلة عدد اليهود بلبنان، بالاتجاه لكبير كهنة حارة اليهود –كما نسميها– كانت مقابلته عسيرة لكنه قدر أني رجل دين فسمح لي بمقابلته بترحابٍ صادقٍ.. لكن هذا الترحاب تحوّل لنوعٍ من التوجس والقشعريرة لم أشهدها على ملامح وجه أحدٍ من قبل عندما أريته صورةَ الصندوق على هاتفيَ الجوال.. كما لو أني



أريته صورةً مُجسمةً من قلب الجحيم نفسه.. وأخبرني قصة هذا الشيء كاملًا.

لم يخبر الراهب ابنه بكل هذه الأحداث.. فكانت لعلامات التحفز والإصغاء آثارٌ كبيرة على وجهه مثل (عادل) تمامًا.

حيث كانت هذه الجلسة ككرسي الاعتراف.. يسرد فيها الضابط حكاية صاحب الصندوق ويسرد الراهب حكاية الصندوق ذاته.

استأنف الراهب:

– هذا الصندوق هو من العادات الأرثية العائلية التي يرثها الأبناء من الآباء الذين ورثوها بدورهم من الأجداد.. بعد موت أي فردٍ من العائلة؛ يتم وضع شيءٍ من أثر الميت كقطعة من حلية أو شيء صغير عزيز عليه.. وتحتفظ الأسرة بالصندوق في حالة توارُث دائم مُطلِقين عليه (صندوق الموتى) هذا الهدف الأساسي من الصندوق لكن الكهنة لم يتعرفوا عليه لتلك النقوش التي تشوّه من مقصده، أغلبية هذه النقوش تُستخدَم لحفظ أحد الشياطين بالصندوق حيث يصبح الشيطان حبيس الصندوق الذي لا يكبّله تمامًا عن بطشه، فيبدو أن هنالك شخصًا منذ أكثر من مائة عام



حاولَ استحضار شيطان ولم يجد أمامه ما يقيده به غير هذا الصندوق.

فتخيل أنك تحمل صندوقًا عائليًا يقبع بداخله شيطان حبيس، منتظرًا لأي فرصة ليهب بعبثه وضررة على أقرب شخص يطوله.. وهذا يمد الصندوق بقوة كالفولاذ رغم خامته الخشبية تحميه التهشيم أو التحطيم.

يقاطع (عادل) حديث الراهب، متعجبًا:

– مائة عام!! لكن هذا يفوق المدة التي كان الصندوق فيها بحوزة جدة البائعة الأولى بكثير – على حسب رواياتكم–.

– مائة عام أو أكثر.. لا يمكن معرفة العمر الحقيقي لهذا الصندوق لأن منذ تلبس الشيطان له وهو لم يعد صندوقًا عاديًا.. بل هو (صندوق الديبوك).

كان مرمى هذا الاسم عجيبًا على كل المسامع.. فتحدث (طارق) أخيرًا بعد أن ظلّ صامتًا بعد سرده لأحداث حكاية (مراد).. كمن يستعيد أنفاسه، قائلاً (ديبوك!)

فردّ الراهب سريعًا كما لو توقع هذا التعجب:



– لفظُ الشيطان يختلف من حضارة لأخرى ومن ديانة لأخرى.. فبالمسيحية لدينا لفظُ شيطان أو الإثم.. أما بالإسلام فيوجد اسم الجان والشيطان أيضًا.. وأخيرًا اليهودية التي تسميه الديبوك التي تعني عربيًا ب(روح الشر).. في كل الأحوال مهما كان المسمى فالكيان واحدٌ.. كيانٌ ناريٌّ مليءٌ بالفساد والشر، هو اختبارُ كُلِّ شخصٍ على هذه الأرض.. إما أن نسايره، أو نقاومه.. وهنا تكمن خطة اللّه للجميع.

كانت كلمات الراهب جديدة على مسامع (عادل) و(طارق).. كلاهما شعر بالحيرة والتشتت فساد الصمت لبرهة، ظلّ فيها (عادل) يتذكر أحداث قصة (مراد) ويتخيلها أمام عينيه.

فتطايرت الأفكار أمام عقله فتكلم كمن تذكر شيئًا ما:

– لكن لماذا حدث كل هذا من الأساس.. أقصد لمَ يموت الأشخاص بتلك الطريقة الشنيعة؟!

– لو لاحظت أن حالات الموت للأربع ضحايا متشابهة لحدٍّ ما.

– أي أربع!!.. الذين ماتوا هم: (وائل) العامل ووالدة (مراد) وعاملة النظافة البدوية.



– ولا تنسَ جدة صاحبة الصندوق الأصلي.

صمت الراهب هنيهة وهو يترقب علامات التفكير المجهدة على ملامح الرجلين ثم أكمل:

– علامات الموت للجدة اليهودية والأم المُسِنة والعامل (وائل) كانت تتشابه في الإعاقة عن الحركة لفترة طويلة ثم الموت.. فالمرأتان لازمتا الكرسي المتحرك لسنواتٍ، والشاب أيضًا لازمته الغيبوبة التي إذا أفاق منها كان سيكشف أنه كسيح بدوره.. أما لحظة الموت نفسها يكون السبب فيها هو تمزُّق في الحنجرة فحدث هذا مع الأربع أفراد مع اختلاف الطرق طبعًا.

هنالك اختلافات أخرى بالطبع كتلك الخيوط المزروعة في حلق عاملة النظافة عند اكتشاف أمرها.. أو حالة إعفاء الأم قبل موتها حيث سارت على قدمها في ثانية والثانية الأخرى كان جسدها أجمع ملطخًا بالدماء.

تذكر (طارق) أمر (وائل) وأنه أكثر من عانى بينهم فقال مسرعًا قبل أن تطير هذه الفكرة من رأسه:

– لكن لمَ حدث كل هذا ل(وائل)؟! لقد قالت خطيبته إنها رأته يُحمَل من على الأرض ويرتطم بكل جوانب المخزن.. لكن ضابط الولاية اعتبر



كلامها على أنه صدمة عصبية لا يأخذه على محمل الجد.. لكن في حالتنا هنا، فكل شيءٍ واردٌ كما أظن ولكل شيء تفسير.

– لا أخفيك سرًا فقد كان موت (وائل) وعاملة النظافة هما الأصعب على الإطلاق.. فكلاهما تألّما كثيرًا في دقائقهما الأخيرة.

ولا أجد لها تفسيرًا حتى الآن.. خاصة أن جميعهم يظهرون على هيئة انتحار إلا (وائل).

قال (عادل) ساخرًا:

– من يدري قد تكون دبّت فيه الحيوية هو الآخر كوالدة (مراد)؟

– أرى السخرية في حديثك يا بني!!

لقد بدأ بالفعل الشك يدب في قلب (عادل) بعدما عجز الراهب عن تفسير بعض الأمور.. والذي جعله يتحرك بخياله أن تلك المسرحية الهزلية المرتبة لسرقة الصندوق قد ظهرت ثغراتها.

أردف الراهب سريعًا:

– انتظر.. لا تحكم الآن فقط استمع لقصة المالك الثاني.



استأنف (طارق) الحديث نيابة عن والدة قبل إعطاء (عادل) مجالاً للرد:

– عليَّ أن أخبرك أن هذه الحكاية أهدرت فيها الكثير من وقتي لتجميعها كاملة.. فحكاية الصندوق لا تزال في بدايتها الموحشة.

هنا شعر (عادل) بسأم حقيقي.. فهنالك الكثير من الأسئلة التي لم يتركا له المجال للبوح بها وهما الآن يحاولان إرضاءه كصبي صغير بترك هذه اللعبة لأنها قبيحة أو غالية.. متناسين تماماً أنهما يتعاملان مع رجلٍ أربعيني العمر، حاد الطباع، لكنه ظلَّ يستمع مجبراً للحكاية الثانية.

* * *

لم تكن القصة التي رواها (طارق) تامة كاملة كغيرها.. لكن هذا الوضع مختلف؛ حيث كانت حكاية (فادي) شديدة الكتمان ولم تخرج لمسمع أحد غير صديقيه.

لهذا لجأ (طارق) للحديث مع (أمجد) بشكل ودي في الشهور الماضية ليستكمل ملامح القصة التي بعثرتها مراقبة الهواتف لكنه لم يعلم أن الأوان قد فات، لقد تغيَّر (أمجد) بحق.. كان صامتاً هائماً في



شرود خطواته، منكبًا على مذاكرته لنفسه.. لنفسه ومع نفسه فحسب

لكن في يوم وجد (أمجد) رجلًا غريبًا يجلس معه على طاولته في إحدى الكافيتريات التي يتناول فيها كوب القهوة اليومي بالجامعة.. إنه يعرف هذا الرجل جيداً، فهو ذلك الضابط الذي ظلّ يستجوبه عن موت (مازن)، حيث كان (أمجد) الشاهد على مبيته في حجرة (فادي) الليلة السابقة لموت (مازن) في نفس وقت وقوع الجريمة، التي تبرّأ (فادي) منها.

كاد الضابط –بملابسه المدنية– أن يباغت (أمجد) بأسئلته الاستجوابية المتنكرة مثل (ما آخر التطورات؟)،(ما أخبارك وأصدقاؤك؟)،(لمَ لَم تمر عليّ طوال هذه الفترة).. لكنه لاحظَ أن (أمجد) قد تغيّر..

لقد أصبح كالرجل الآلي المغيب عن الواقع بنضارته..

وبدون مقدمات خر هذا الأخير بكل القصة التي سردها عليه (فادي) يوم كشف الحقيقة.. كما لو أنه يريد أن يستغيث لكنه أبكم.. يريد أن يبكي لكنه ضرير.. يريد أن يتم مواساته لكنه أصم.



جريمة قتل، كتب سحر، مارد جشع، حلمٌ عجيبٌ، صندوقٌ ملَعونٌ، حوادث مزعجة ل(فادي)، يوم معرفة الأصدقاء بالحقيقة، يوم المواجهة في مشرحة المدرسة.

لا يعلم (أمجد) إذا كان لا يرى أي من (فادي ورنا) أم إنه يتظاهر بعدم رؤيتهم.. المهم أنه انعزل في عالمه من الذكريات المحزنة المخيفة.

وها هي الحكاية تقص مرة أخرى على لسان (طارق لأبيه و(عادل) كما لو أن هذه الحكاية كتب عليها الانتقال من لسان لسان للأبد..

كانت القصة عجيبة لكنها لست ببشاعة الأولى.. أو هكذا اعتقدوا..

فهم لم يعلموا ما فعله (فادي) بفتاته (رنا).. لم يعلم أحدٌ على الأغلب لفترة

لو علم الضابط مصاب (رنا)، لألقي القبض على (فادي) من جديدٍ، لكن حديثه مع (أمجد) قد يودي بوظيفته، خاصة بعد ثورة الجهات العليا ضد تحركاته الصبيانية بمراقبة مدني سقطت من عليه التهمة من عام تقريبًا؛ لذلك قد فضّل الاكتفاء بختم القصة عند (أمجد) وقتل فضوله بتهديد مكانة وظيفته.



* * *

مرة أخرى الصمت.. نظرات الحيرة.. التشتت ..تضارب الأسئلة

لقد استطاعت روح التوجس –وبكل جدارة– تخييم هذا المكان وتطويقه..

قال (عادل) مستنكرًا:

– وهل من الطبيعي أن أجد كتبًا للسحر وتحضير الأرواح في خزانة صديقي؟!

قال الضابط ملوحًا بيده في الهواء:

– لا أعلم إذا كانت إجابتي سترضيك أم لا لكن نتج من التحقيقات التي قمت بها.. أن المدعو (سيف) أمين مكتبة الإسكندرية –التي تأخر افتتاحها عشرة أيام بدلاً من السادس من أكتوبر لعام ٢٠٠٢، تم افتتاحها بالسادس عشر من أكتوبر لنفس العام– المتهم بقتل عاملة النظافة والذي يدعى هو بدوره أنها انتحرت بعد أن مست.. هو خال القتيل الأول في الحكاية.. (مازن السيوفي)

– أنت تعني...!؟



– نعم، (مازن) عَلِمَ بما حدث لخاله في المكتبة، وكما كان (سيف) مقتنعًا تمامًا بفكرة المس، نقل اقتناعه هذا لابن أخته الذي بدوره حاول الاستعانة بمارد للانتقام من السبب وراء اعتقال (سيف) واتهامه بقتل عاملة النظافة.

صمت هنيهة كأنه يحاول التذكر وأردف:

– كان (شريف) هو بمثابة أب (مازن) الثاني.. حيث كانت العلاقة بينهما تتخطى الصداقة.. كان (شريف) يحبه كابنه الذي لم ينجبه بعد.. وكان يتولى جزءًا كبيرًا من مصاريف جامعته.. غير مدرك بالطبع إدمانه على المخدرات وعلاقاته الشنيعة.

سأل (عادل) بدورة:

– قد يكون كلامك منطقيًا ومن هنا نجد سبب احتفاظ الغلام بكتب السحر لكني أستفسر عن مكان الإتيان بكتب أصلية؟!

فأجاب الراهب هذه المرة:

– من يعتكف على المخدرات ويصادق المجرمين واللصول.. لا تستبعد أبدًا يصادق السحرة أو تجار السلاح.. فطرق الفساد مهما تنوعت لكل فروعها ستنتهي في مصب واحد دومًا.. هو الشر.



بالطبع، لقلة خبرة الفتى وحيلته بدلًا من أن يجند المارد لطوع أمره.. أصبح هذا الكيان يستغله ويتغذى على ضعفه وبالمثل فعل مع (فادي) الذي تناول تلك اللعنة بدوره.

اعتدل الراهب في جلسته مكملًا:

– ولنقل إن للقدر حكمة في ذلك.. فقد انتقل الصندوق لنفس المكان الذي يقبع فيه المارد، ليدور بينهم الشجار الذي نتج عنه ذلك الخراب الذي حلَّ بغرفة (فادي) عندما وضع بها الصندوق.

لا أنكر أن تفكيره كان نابغًا.. لكنه أخطأ عندما حارب النار بالنار.

(عادل) مستفسرًا بعد أن تذكَّر:

– لماذا القط إذًا؟ من الحكاية الأولى ل(مراد) وعلامات القط تطارده، بداية برائحة بولها في متجره، ختامًا بأخيه عندما كان يخزنه عنده في منزله وحتى (فادي) رأى القط في أحلامه؟!

أخرج الراهب صليبه الخشبي من جيب جلبابه الداكن للمرة الأولى منذ جلستهم هنا، وظلَّ يفركه بين راحتيه في نوعٍ من التوتر قائلًا:



– علامات قتل الضحايا متشابهة لكن هنالك خلافات.. كذلك علامات الوجود.. فأحيانًا (مراد) كان يشم الياسمين، وأحيانًا أخرى بول القطط، ويرى الظلال التي تتحرك في شقته، بالإضافة إلى الحلم اليومي طبعًا.. لكنها اختلفت تمامًا في قصة (فادي) وكانت تقتصر على تلك التصرفات العدوانية التي يقوم بها الديبوك بشكل متباعد..

ربما لأن (فادي) التزم بنصيحة (مراد) ولم يفتح الصندوق..

لكن الأمر وما فيه هو عند استدعاء الديبوك يجب التضحية بحيوان داكن اللون.. ويبدو أن من قام بفعلته استخدم قِطًا.. لهذا ظلت هيئة القط مرتبطة بالديبوك..

كان هنالك الآلاف من الأسئلة تستمر في الهطول على رأس (عادل).. لقد بدأ الشك في تلاشيه ليحل الفضول المخيف بإزاره.

– على ذِكر المواقف الغريبة التي كانت تحدث ل(فادي)..

ما معناها وما سببها؟!



– لو ظللنا نبحث في معنى لكل موقف سنحتاج لعمر فوق عمرنا لتحصيلها.. (فادي) نفسه لم يذكر كل شيء ل(أمجد) لكنه اقتصر على موقفين أو ثلاثة لكن يمكن أن نفسِّر السبب الأساسي لهذه المواقف وهو السأم.

(عادل وطارق) في نفسٍ واحدٍ: (السأم!!)، ليستأنف الراهب:

– نعم السأم.. لقد سئم الديبوك من وضع منزله أسفل فراش (فادي).. فقرَّر أن يلعب معه لعبة القط والفأر، حتى يقتاده بنفسه لفتح الصندوق.. لكنَّ الشاب لم يفعل، وبالتالي ظل الديبوك يزيد في بطشه الذي جعل الفتى يفقد عقله تقريبًا، ويجهر بسر الصندوق لكل من صديقيه.

(طارق) متعجبًا من كلام والده:

– وهل هنالك خطر على حياة الأفراد الذين يعلمون بسِرِّ الصندوق؟!

– لا أعتقد ذلك.. ف(مراد) أخبر أسرته بأكملها بشأن الصندوق ولم يتأذَّى منهم أحد.. كما أن (أمجد) و(رنا) لازالا بصحتهما، الخطر كله على مالك الصندوق، لم يعلم الراهب كم كان مُخطئًا في جملته حول (رنا).



(عادل) في استنكار:

– لا أزال لم أفهم مقصدك من كلمة سئم.

– لا تظن أبدًا أن الديبوك لا يشعر بنا.. بل هو كيان حي يعيش مقيدًا حول أو داخل الصندوق.. ولسبب لا أعلمه بعد، فهو يسعى لإيذاء كل من يفتحه وقد تصل للقتل، حتى لو حاول إبعاد الصندوق عنه.

(طارق) مستنتجًا:

– لهذا الصندوق كان يعود إلى (مراد) كل مرة.. يبرز الصندوق حيلة ما، مثل إرعاب الأم منه أو رائحه البول التي فاحت عند أخيه أو تلك الحادثة العجيبة التي حدثت في مكتبة أخته.. ليعود مرة بعد مرة ليد (مراد).

(عادل) معقبًا:

– لكن عندما أخذه (مروان).. انتقل الصندوق لمنزل (مراد) تلقائيًا دون أي خدعٍ.

الراهب مجيبًا وهو لا يزال ممسكًا بصليبه في توتر:

– لأن هذه المرة كان قرار (مراد) نهائيًّا بالتخلص من الصندوق لأنه علم عوادمه.. لكن في كل مرة كان يهدي فيها (مراد) الصندوق لأفراد عائلته على أمل



أن يأخذه منهم يومًا ما وكان الصندوق يقوم بحيله عندما تطول هذه الفترة وكل مَن حمله رأى الكوابيس أثناء فترة تواجد الصندوق معهم.

(عادل) متعجبًا:

– لكني لم أرَ شيئًا وهو في جعبتي منذ يومين.

– أعلم وكذلك (فادي) لم يفعل، ولا حتى (مراد) لأن طاقة الديبوك تزداد بطشًا عند فتح المالك للصندوق.. لكن مع غلقه، فأنت تقيّده بطلاسم الصندوق لكن هذا لا يمنع خطر وجوده حتى لو مغلق.

تفهّم (عادل) الأمر قليلًا.. فهو يشبه المجرم الحبيس في معتقله، إذا تم الأفراج عنه خرج لينشر في الأرض فسادًا وخاصة هذا الأحمق الذي حرّره – لأنها طبيعته–.. وهنا يأتي سجّانٌ آخر ليتولى حبسه.. لا يستطيع المجرم إيذاءه بالقدر الكافي، لكنه على الأقل يتمكن من إزعاجه حتى الانتحار أو الجنون.

(عادل) متذكرًا:

– هذا يعني أن (مراد) هو فاتح الصندوق الناجي الوحيد إذًا؟



أجابه الضابط سريعًا وهو يعتدل في جلسته:

– ومَن أخبرك أنه لا يزال حيًا؟!

اتسعت حدقتا الراهب و(عادل) وهما يستمعان لكمة (طارق) الأخيرة فلم يتمالك الرهب دهشته فسأله مهرولًا عن مقصده.. ليجيب (طارق) بأن (مراد) انتحر بعد بيعه للصندوق بأسبوعين أو ثلاثة.. لكنه لم يعرف أي معلومات أخرى عن الواقعة، فقال الراهب وعلامات التوتر تزداد على تقاسيم وجهه الكهل:

– أعتقد أن بإمكاني تكوين صورة دامية عن الخبر في مخيلتي.

يكون فيها (كيفين) محطم الأقدام وممزق الحلق.

لاحظ كل من الرجلين علامات التوتر على الراهب، وهذا عكس ما يعتاده أي شخص من رجل دين.. فالراهب الذي يجب أن يحثك على الطمأنينة وإقناعك بتدبير اللّه الصالح لك، هو الآن يزيد من الموقف رهبة وخوف.. فأمسك (طارق) بيد عمه المرتعشة القابضة على الصليب وسأل في حيرة من أمر والده عن سبب كل هذا التوتر.. فانتبه الراهب لحالة التوجس المسيطرة على كيانه.. فأخذ بعض الأنفاس وقال متنهداً:



– اعذرني يا بني.. فالحديث عن الشياطين وأذيتهم للبشر ليس بالأمر الهين.. أنا لست خائفًا بالطبع، فاسم اللّه يحميني ويزيديني صلابة.. لكني خائفٌ على أسر حاملي الصندوق، نحن لا نعلم إذا كانت أسرة (مراد) بخير أم أصابها ما أصابه، لا نعلم إذا كان الثلاثة شباب الجامعيون بصحتهم أم أصيبوا بمكروهٍ، لا نعلم كيف تمر حياة حفيدة مالكة الصندوق الأصلية الآن، لا نعلم إذا كان هنالك مُلّاك سابقون للصندوق تم العبث بحياتهم أم لا.. كل هذا يبعث في نفسي الحزن والخوف عليهم.

كانت كلمات الراهب موجعة على قلب (طارق وعادل).. لم يفكر أيٌّ منهما في هذا الأمر بنحو شخصي كما فعل الراهب.. كلاهما شعرا بالرهبة من الحكايات في بداية الأمر لكن الآن كلاهما يشعران بخوف حقيقي.

هنا تكلّم (عادل) محاولًا تخفيف هذا التوتر بعد أن نظر لساعة يده:

– يا للهول.. لقد ظللنا نتحدث لثلاث ساعات دون أن أقدّم لكم كوبَ مياهٍ واحد.. أين أخلاق ضيافتي، لا بُدّ أن حنجرتكما جافة كصحراء الآن.

ضحك الراهب بثقلٍ وهو يقول:



– اعذرني على كل هذه الثرثرة.. أعتقد الآن أنك قدَّرت سفرنا لك من بيروت لبعلبك، وتدرك حقيقة الصندوق، عالماً أننا هنا لشرائه منك والتخلص منه للأبد وليس لسرقته أو شيء من هذا.

الكثير من الأبواب المفتوحة أغلقت.. الكثير من التساؤلات همدت.

شعر (عادل) بكل شيء.. بصدق أحاديث الغريبين، والخوف من الصندوق، والرغبة في التخلص منه.

لفت انتباه الراهب صورةٌ محفوظة في إطار زجاجي موضوعة أعلى المنضدة الصغيرة التي يجلسان حولها.. فأشار الراهب في تلقائية للصورة مبتسماً، ليعلّق على جمال تلك العائلة.. فتقدَّم (عادل) في مقعده حاملًا الصورة موضحًا أفراد عائلته الصغيرة المكوَّنة من زوجته (كرستي)، تعمل معلمة.. و(جورج) الابن الأكبر، في المدرسة الثانوية.. وأخيراً (توني) الصغير ذي الأحد عشر عاماً.

تبادل كل من الراهب و(عادل) النظرات وكأن الأفكار تتطاير من عقل كل منهما.. ماذا إذا أصابت اللعنة هذه الأسرة الجميلة ؟! ماذا إذا –بين ليلة وضحاها– وجدوا أنفسهم يشمون بول القطط أو تطاردهم الكوابيس؟



لا لا.. هذه أفكار مريعة، لن ينتظر أيّ منهما الوقت كي تتحقق.

هنا نهض (عادل) وهو يطلب من الراهب أن يرافقه لحجرة المكتب لأخذ الصندوق بنفسه.. كما لو أن هنالك هاجساً من الخوف تكون بين (عادل) والصندوق، لدرجة أنه يخشى لمسه بأنامله حتى، سار الراهب في الشقة متابعاً لخطوات (عادل) هنا تذكَّر هذا الأخير أمراً لم يخطر بباله لمدة ثلاث ساعات أثناء حديثه، لم يعد يشعر بوخزات الألم منذ وقت كبير.. لا يتذكر متى تلاشى لكنه اختفى أثناء انخراطه بالحكايات.. كيف حدث هذا؟!

لاحظ الراهب تغيُّر تعابير وجه (عادل).. فربّت على ظهره قائلاً مبتسماً:

– أعلم أن في داخلك الكثير من التساؤلات لم يتم الإجابة عنها كأمر سبب وفاة عاملة النظافة و(وائل) بهذه القسوة.. لكن دعنا نفرض أنهما ألقيا الصندوق بقوة مثلًا أو أسقطاه بعنفٍ، وحرص الديبوك على الانتقام منهما بطريقة أبشع.. ربما نعلم الحقيقة يوماً ما.

لو كان الراهب عالماً بما حدث ل(رنا) التي أطاحت بالصندوق ليصدم عرض الحائط وتكون نهايتها.. لاستنتج أن ما حدث ل(وائل) الذي أسقط الصندوق



من دون قصدٍ من أحد الأرفف بالمخزن.. فكان انتقام الديبوك مماثلًا كما شاهدته (إيمان) يتخبّط في كل أرجاء الحجرة.

و(شوقية) التي علِمَت أمرَ أن الصندوق ملعونٌ وحاولت التخلص منه؛ لذلك كانت نهايتها سريعة ومؤلمة كما شاهدها (سيف).

لم يجِب (عادل) على كلام الراهب لأنه لم يسمعه من الأساس..

أمسك هذا الأخير بمقبض باب مكتبه وفتح الباب على مصراعيه، ليظل كُلٌّ من الراهب و(عادل) ناظرين أمامهما وقشعريرة باردة تضرب ظهريهما بعنفٍ وحدقتا عينيهما متسعتان عن آخرهما حتى كانت عيونهما تسقط من محاجرها، وهما ناظران إلى (توني) ابن (عادل) الصغير ممكسًا بالصندوق مفتوحًا ويعبث بمحتوياته في لهوٍ طفولي، لكن حول هذا الطفل وبعين غير آدمية نستطيع أن نبصر كيانًا أسودَ شنيعًا ينظر للراهب في ابتسامة شيطانية.

* * *

– ما الذي سنفعله الآن؟!



قالها (عادل) بنبرة الأب المرتعب على مستقبل طفله الصغير، لكنه لم يحظَ بإجابة من الراهب الذي ظل يضغط بقبضته على صليبه الخشبي بتوتر صارخ وهو جالس على الأريكة في الصالة بين الرجلين كالسابق.

فكانت الإجابة بسؤال من (طارق) عن مكان الصندوق، فردّ (عادل) وقطرات العرق الخائفة بدأت في اللمعان حول جبهته:

– لقد أخذت الصندوق منه بعد أن أغلقته –دون النظر في محتوياته– ووضعته في أحد أركان مكتبي ثم رسخت فوقه تمثالًا حجريًا ثقيلًا –أحتفظ به في مكتبي– للتأكد من عدم فتح أيّ شخصٍ للصندوق مرة أخرى، أما بالنسبة ل(توني) فهو في غرفته غير فاهم لسبب الفزع الذي كان على علامات وجهي وأنا آخذ منه الصندوق بعنفٍ.

صمت هنيهة يتأمل صالة منزله.. فمنزله كالورقة المفتوحة التي تؤدي جميع غرفهما من حمّام أو مطبخ أو غرفة نوم إلى الصالة.

فلا يستطيع أحد الخروج من أي غرفة إلا وتكون حركاته كلها مكشوفة لمن يجلسون في الصالة.. ثم أردف:



– ما يحيرني حقًا هو كيفية دخول (توني) للغرفة ونحن جالسون أمامها منذ ساعاتٍ ولم نرَه يخرج من غرفته حتى؟!

ردَّ الراهب في نفاد صبرٍ متوترٍ:

– لا يهم كيف دخل.. قد يكون الديبوك قد نقل الفتى من غرفته لغرفة المكتب بطرقية أو بأخرى ليفتح الصندوق.. المهم أنه فُتِح وقد تحرَّر الديبوك من محبسه ليبدأ في نشر ساديته علينا.

(طارق) في حيرة:

– على حسب كلامك يا والدي.. فهمت أن الديبوك هو من أجبر الفتى على فتح الصندوق.. لكن لماذا فعل ذلك، لم يحدث هذا من قبل مع أيٍّ من المُلاك السابقين؟!

– الديبوك يشعر ويحس بنا ولا تنسَ أنه سريع السأم.. فقد سئم من حبسته لأكثر من ثمانية أشهر في حوزة (فادي)، وأعتقد أنه انزعج من تطفلنا على حياة (عادل) في الأثناء التي كان فيها سيفتح الصندوق كاشفًا عن خباياه.. فقرر أن يستدرج الطفل ليفعل هذا بالنيابة عن أبيه.

(عادل) في غيظٍ:



– لكن لماذا (توني)؟!

– لا تنسَ يا (عادل) أن (توني) هو الوحيد من أسرتك في هذا المنزل.. فقد أخبرتنا أن زوجتك وابنك الآخر جالسان عند حماويك لزيارة عائلية طويلة وأيضًا لا تتجاهل أمرَ صغر سن (توني)، فهذه هي الوتيرة الأفضل للشيطان للتلاعب بها، فصغر سنهم وقلة حيلتهم وشح خبراتهما، تؤهلهما ليكونا وجبة شهية يمضغها الشيطان بين أنيابه الجحيمية في تلذذ.

ولا تنسَ خلو الحكايتين من أي أطفال.. فأعتقد إذا كان ل(مراد) ابن، لَتغيَّر عصب الحكاية تمامًا.

(طارق) محاولًا مجاراة هذا الاستنتاج:

– أو ربما لا.. ربما هنالك سببٌ أو حيلة أخرى في الأمر.

فنحن لا نزال نجهل ما حدث ل(وائل) وعاملة النظافة بعد.

لكننا متفقون أن الديبوك هو من أجبرهم على العبث بصندوقه..

لم تضف كلمات (طارق) سوى التوتر لقلب (عادل).. الذي صرخ في حنقٍ عما سيفعلونه الآن، فأجاب



الراهب بأنه، سيطلب من الكاتدرائية الإذن في عمل طقوس طرد أرواح من الفتى في أقرب وقتٍ.

فسأل (طارق) متعجبًا عن عدم إقدام والده على هذه الطقوس بنفسه.

فنظر الراهب لابن أخيه بنوع من التفاجؤ الممتزج بالغضب.. كأن ما قاله سِرٌّ حرص على إخفائه عن أنظار الجميع.

فسأل (عادل) مقاطعًا لدهشة الراهب، إن كان حقًا بإمكانه القيام بجلسة طرد أرواح؟!.. ليرد الراهب مستنكرًا ضاغطًا على كلماته بأنه قد توقَّف عن تلك الأمور لأكثر من أحد عشر عامًا..

فعاد ليسأله (عادل) نفس السؤال كمن يحاول تأكيد المعلومة لنفسه..

فأجاب الراهب محاولًا تغيير الموضوع، بأنه عليهم الإسراع باستخلاص الإذن من الكاتدرائية، ثم هبَّ واقفًا عازمًا على الرحيل من المنزل منفذًا لما قال، لكن (طارق) استوقفه بسؤال كان يأمل ألا يسمعه الراهب الآن أو أبدًا.

(ما الذي تفعله يا أبي؟!)



حقًا!! ما هذا الهراء الذي يفعله الراهب؟!

– لآخذ الإذن من الكاتدرائية لإرسال راهب للقيام بجلسة طرد أرواح، يحتاج إلى مواثيق حقيقية.. كتسجيلات الفيديو أو الصوت الدالة على حالات المسّ الشيطاني.. ونحن لا يمكننا إضاعة الكثير من الوقت في جمع هذا من أسرة (مراد) أو (أمجد).

حاول الراهب التبرير لكن (طارق) قاطعة مكملًا:

– حتى لو استخدمت سُلطتك كقِس وطارد أرواح سابق.. وجعلتهم يرسلون راهبًا بدون أدلة مُوثَّقة، فأقل ما سيأخذة هذا الأمر هو أسبوعٌ أو أكثر، ونحن لا نملك الوقت كي نهدره هكذا.

(عادل) في قلة حيلة:

– أرجوك أيها الأب (جرجس).. إذا كان بإمكانك إتمام هذا الأمر الآن فلا تبخل عليَّ بالمساعدة.. لا أستطيع الانتظار وهنالك شيطان يتراقص حول ابني الصغير.

تلك الكلمات مسَّت قلب الراهب بالفعل.. لكنه تحامل عليها وأسرع ناحية باب الشقة وهو يحث (طارق) على الإسراع.



ليسأل (طارق) متعجبًا من تصرف والده القاسي، عن مصير الصندوق، فأجاب الراهب في تلعثم:

– علينا أن.. نوكل الأمر برمته للكاتدرائية الآن.. لقد فُتح الصندوق وتغيَّر الوضع.

– لا أعرف ما الذي تقوم به يا والدي.. لكنني أعلم كما تعلم أنت أن من يحمل رخصة طرد الأرواح يمكنه القيام بأي جلسة في أي وقتٍ يريد ما دام تأكَّد من حالة المس.. وأنا لن أخاطر بإضاعة سويعات هذا الغلام المتبقية قبل تمكُّن الديبوك منه، ربما استطاع (مراد) النجاة ببعض السنوات، لكني لن أرمي النرد وأخاطر بعمرِ طفلٍ صغيرٍ.. وخاصةً أن عاملة النظافة البدوية ماتت بعد وجود الصندوق ببضعة أيام في محل عملها.

فيصيح الراهب والدموع تبرق في عينيه، بأنه لا يفهم، فيطالبه (طارق) بإفهامه الأمر إذا.

كاد الأمر على أشده بين الاثنين، حتى سمع ثلاثتهم بكاء الصبي الصغير من غرفته.. فهرول (عادل) لغرفة الصبي ويتبعه (طارق) من بعده، أما الراهب ظلَّ واقفًا عند الباب ناظرًا للأرض وقلبه يصرخ في ألمٍ على هذا البكاء.



كان الراهب يتذكر لم يفعل هذا.. لا لا.. هذه الذكريات اللعينة يجب أن يدفنها في ثنايا عقله ليجبر نفسه على نسيانها.

عندما وصل (عادل) لحجرة ابنه.. اقتحمها اقتحامًا ليجد (توني) راقدًا على الأرض باكيًا.. فيسرع الأب المذعور جالسًا على الأرض جواره وهو يحضن ويسأله عن سبب بكائه بينما يقف (طارق) على باب الغرفة.

فيقول الطفل ببراءة الدنيا كلها:

– عجزت عن تحريك قدمي لأقف عليها فسقطت أرضًا.

صُدِمَ كلٌّ من الرجلين عند سماع كلمات الفتى الصغير وتذكرا علامات الموت لضحايا الصندوق، يبدو أن الديبوك سيعمل سريعًا هذه المرة.

* * *

خرج الرجلان من حالة صدمتهما تلك إلى حالة تشنج غريبة دخل الصبي في نوبتها، فسأل (طارق) مستفسرًا إن كان الصبي يعاني من الصرع.. لكن (عادل) أجابه في قلة حيلة وهو يقبض على ذراع ابنه، بأن هذا لم يحدث من قبل، فتحرَّك



الضابط ناحية الباب معلنًا أنه سيأتي بطبيب في الحال.

لكنه توقف عندما رأى عمه –القس (جرجس)– يقتحم الغرفة بعلامات وجهٍ صارمةٍ مُلطَّخة بطمي التحدي.. أسرع الراهب نحو (توني) الساقط على الأرض بين أحضان والده، فقبض على ذراعه الأيمن بساعده الأيسر بينما وضع راحته اليمنى على جبهه الصبي، قائلًا : (Ինչ է ձեր անունը ؟)

ظلّ الراهب يصرخ بها في الفتى.. فأمسك بقلادة الصليب الضخم المتدلي حول رقبته، واضعًا إياه على مقدمة جبهه الصبي وصرخ من جديدٍ لكن في عنفٍ أكثر (Հանգիստ լինեք Քրիստոսի անունով)

فانتفض الصبي للمرة الأخيرة قبل أن يستكين جسَدُه ويهدأ غائبًا عن الوعي وسط ذهول الجميع.. ظل (عادل) يتحسَّس صدر (توني) ليتأكد من انتظام تنفُّسه، كان الفتى بخير.. يتنفس بسرعة قليلًا، لكنه بخير..

نظر (عادل) للراهب مبهورًا ثم سأله عما قاله للتو لتهدئة ابنه، فأجابه الراهب وهو ينهض من الأرض ويتوجه لدولاب الحجرة الصغير:



– حدثته باللغة التي يفهمها ويخشاها.. حدثته بالأرامية.

اللغة التي كتب بها سفر (دانيال).. اللغة التي كان يتكلم بها السيد المسيح.

يمسك الراهب بضفة دولاب الحجرة موجهًا حديثه إلى (طارق)، تاركًا علامات الاستفهام تزين وجهيهما:

– امنحني مساعدتك يا بني.. أنتَ قُلتها بنفسك، لا نملك الوقت كي نهدره.

أسرع (طارق) ليساعد والده في حمل الدولاب لخارج الحجرة وعلى شفتيه ابتسامة راحة وسعادة لرجوع عمه عن قراره الأرعن، فكّر أن يسأله عن سبب قرار عمه الأول وسبب رجعته عنه، لكنه فضل أن يكثف تفكيره على مساعدة الصبي الصغير الآن، ولنجعل الجدال للمنزل.

قال الراهب ل(عادل) متهكمًا:

– هل ستظل جالسًا عندك الليل بطوله؟!

– ماذا تريد مني؟!



– ساعدنا في إخلاء الحجرة من أي متعلقات غير مرتبة على الفراش.

بدون أن يسأل عن السبب.. همَّ الرجل بالنهوض واضعًا ابنه على الفراش بادئًا في تنفيذ تعليمات الراهب الذي أمره بإحضار كل صليب وإنجيل يحمله في طيات هذا المنزل.

وجَّه نظرَه إلى(طارق) مكملًا في أوامره التي تجعل الرجلين ينتفضان:

– اذهب لسيارتي التي جئنا بها إلى هنا.. ابحث في مؤخرة السيارة عن حقيبة جلدية عتيقة مخبأة في أرضية السيارة، أحضرها لهنا مع أي صليب أو إنجيل تجده بسيارتي، وإذا كان معك مسدسك أو أي سلاح معدني، ضعه في السيارة، فنحن لن نجاذف بشيء.

انتفض (طارق) لتنفيذ كلمات عمه.. كما لو أنه يتلقى التعليمات من ضابط آخر يعلوه مكانةً، لدرجة أنه كاد أن يردّ عليه ب «نعم سيدي» أو يلقي له التحية العسكرية.. فاستوقفه الراهب قائلًا:

– أريدك خارج هذا الأمر يا (طارق).. لن أخاطر بوجودك هنا أنت أو (عادل) حتى.



نظر (طارق) لعمه بتحدٍّ قائلًا:

– لقد ساعدتني يا والدي في استجماع معلومات هذا الصندوق وجاء كلانا لهنا لنجدة هذا الشخص وأسرته.. ولن أرحل من هنا حتى أتم ما جئت لأجله.

ربت الراهب على كتف ابن أخيه موافقًا على كلامه، ثم يوجِّه التعليمات بالتحرك للرجلين، ويدعي الجمود.. لكن في أعماقه كان يصرخ (لا أريد أن أفعل هذا) وفي ثنايا عقله كانت الذكريات المظلمة تتوهج بقوة لدرجة أنها كادت أن تتجسد بين عينيه.

فحاول الراهب الصراخ في الرجلين محاولًا إشغال نفسه، بأن يسرعا في عملهما، فيجب أن يرحل هذا الشيطان قبل بزوغ الفجر.

هنا توقف (عادل) لدقائق مفكرًا ثم توجه للراهب سائلًا:

– معذرة أيها الأب.. أليس من المفترض أن تستعين بمساعدة كاهن يهودي، لأنك تواجه الآن ديبوكًا يهوديًّا؟!

ابتسم الراهب وهو يقول:



– لقد أسأت فهم بعض الأشياء يا (عادل) أولاً أني لا أواجه هذا الديبوك وحيداً.. فإننا جميعًا في هذه المعركة ولا مجال لنا للخسارة، ثانيًا هذا الشيطان لا يتبع الديانة اليهودية كما فهمت.. بل هو كائن شيطاني نجس كغيره، لكنه تم تحضيره بالطريقة اليهودية لهذا يسمى بالديبوك.. لكنه سيظل شيطانًا ساقطًا للأبد.

يخرج من جيب جلبابة سلسلة ذات قلادة صليب خشبي، أصغر من التي يرتديها بكثير، ليعلقها حول عنق (عادل)، ثم يقول مربتًا على ظهره:

– ثالثاً أنا لا أحتاج لمساعدة أحدٍ لمواجهة قوى شيطانية.. فبأمانك وحده، قادر على هدم مملكة الجحيم بأكملها إن أردت لهذا اجعل لديك إيمان في أن اللّه يحميك، اللّه يساندنا في معركتنا بسلطانه، كل ما يطلبه منا هو الإيمان فحسب.. فبالإيمان نستطيع.

دخل هنا (طارق) الشقة بعد أن أحضر الحقيبة الجلدية وثلاثة كتب مقدسة وأربعة صلبان متنوعة الأشكال.. فتهللت أسارير الراهب بوجود هذه الحقيبة.. فبدأ يعاود توجيه الأوامر من جديد.

– (طارق).. قم بتعليق صليب واحد على باب كل حجرة وباقية الصلبان تعلقهم في حجرة (توني)،



وأنت يا(عادل).. أحضِر كل المراتب والألحفة والوسائد من جعبة هذا المنزل وأبترها في كل مكان في حجرة (توني) وعلق بعضهم على النافذة الزجاجية.

همّ الرجلان بتنفيذ الأوامر بحذافيرها بينما فتح الراهب الحقيبة التي لم يمسها منذ أحد عشر عامًا.. وكان يأمل في دهاليز روحه ألا يضطر لاستخدامها مرة أخرى.. لكن ها نحن ذا..

كانت الحقيبة كسرداب معتم مليء بالأتربة، لكن كل شيء فيها لا يزال بعافيته.. أخرج الراهب صليبًا خشبيّا مطرزًا ومزخرفًا بشكلٍ يبعث الإعجاب في النفس مصنوع في الفاتيكان نفسها.. وقارورة زجاجية فارغة صغيرة الحجم يبدو عليها القدم والعبق منقوش على زجاجها رسمًا للسيدة العذراء.. وسلسلة من شجر الزيتون ذات رائحة ذكية بها قلادة لصليب خشبي لا يقل رونقةً عن الصليب الكبير.. وإنجيل صغير الحجم نسبيًا يحفظ صفحاته عن ظهر قلب.

حضر الرجلان للراهب معلنين عن انتهاء مهماتهما، فأعطى الراهب لابن أخيه القارورة الصغيرة طالبًا منه ملأها بالمياه.. ثم وجّه حديثه للرجلين حاثًا إياهما على الاستعداد، فهما على أهبة مواجهة الإنسان الأول.



فسأل (عادل) الراهب متعجبًا:

– أليس من الخطير إخراج الديبوك في المنزل.. أي يمكنه أن يتلبس المنزل أو حجرة (توني) على أقل تقدير.

– هذا إذا كنت أنوي أخارجه من جسد ابنك فحسب.

هنا قام الراهب باقتحام الغرفة وهو يرشم بالصليب الخشبي على نفسه قائلًا: «لكني أنوي إعادته ذليلًا لعالمه هذه المرة بلا رجعة».

* * *

كان الخوف والحيرة يسيطران على قلب الرجلين في البداية.. لكن مع تغيُّر رأي الراهب تحوَّل هذا الخوف لشجاعة وتحوَّلت هذه الحيرة لتحدٍّ.. كم رائعًا أن يكون معك شخصٌ يدرك ما يفعله ويصر على إتمامه.. كم جميلاً شعور الطفل الصغير المطمئن أن والده سيوفر له ملابسه وطعامه.. كم هو مذهل شعورك بأن اللّه سيساندك لأنك تستعين باسمه حتى وأنت تحارب الشيطان نفسه.

«باسم الأب والابن والروح القدس اشفع واغفر لي يا اللّه عن خطاياي التي فعلتها بمعرفة والتي



فعلتها بغير معرفة.. الخفي والظاهر منها، وتقبّل تضرعي إليك يا إلهي ومُخلّصي»

كانت هذه كلمات الراهب قبل أن يقترب من (طارق) الذي يقف بجانبه ويناوله صليبًا أصغر حجمًا من الذي يمسك به وكتابًا مقدسًا صغيرًا أيضًا.. ثم يسكب بضعة قطرات من ماء القارورة التي صلَّى الراهب عليها لتتحول لمياه مُقدَّسة، على إبهامه الأيمن ويقربه من جبهة (طارق) محركًا إصبعه صانعًا شكل صليب عليه.. وهو يصلي قائلًا:

«يا اللّه تقبَّل مغفرتنا نحن الطامعون في عدلك وكرامتك ونحن نستعين بسُلطان اسمك»

فردَّ (طارق): آمين.

فتوجَّه الراهب ل(عادل) وفعلَ معه بالمثل، ثم أشار لكليهما بقراءة صفحات معينة من الإنجيل في وتيرة واحدة منظمة بينما يقول الراهب بعدما التفَّ لمواجهة الفتى:

«أنا العبد الخاطئ إليك يا مخلصي..أعلن اعترافي بكل ذنوبي التي لا أقدر على عدِّها وأَطلب منك الغفران الآن وتستمع لصوتي المستنجد.. يا اللّه»



هنا ألقى الراهب ببضعة قطرات من قارورته لتصطدم وجه الصبي وجسده.. كانت مجرد قطرات قليلة، لكنها وقعت على الصبي الصغير كالصاعقة الرعدية.. انتفض جسد الفتى وهو يتلفت حوله في الغرفة الخالية من كل أنواع الأساس ولا يوجد بها غير الوسائد والألحفة وأغطية النوم والمراتب، وهنالك صليبان أو ثلاثة على كل حائط في الغرفة.. فيجد نفسه مكبَّل اليدين والقدمين بملاءة ذات عقدة مُحكَمة، على أثر أوامر الراهب.. فقال (توني) متعجبًا بعد أن استيقظ:

– أبي!!.. ما الذي يحدث؟!

توقف (عادل) عن القراءة عندما سمع صوت طفله الصغير الحائر قائلًا: (توني)!!

لكن الراهب لم يبالِ بشيءٍ واستمر وهو يقول، قابضًا بيده على الصليب ناظرًا له وبيده الأخرى على قارورة الماء.. ناكسًا رأسه للأرض:

«أستعين باسمك العظيم وسُلطانك القوي.. بشفاعة قيامة المسيح من الأموات ودم صليبه.. وشفاعة السيدة العذراء مريم.. شفاعة كل القديسين الذين قُتِلوا في سبيل اسمك.. اسمع أنيني»



ألقى الراهب بضع قطرات أخرى من قارورته.. لتصدم الفتى الذي تنتابه انتفاضة قوية كما لو أنه يتعرض لصاعقة مع كل قطرة مياه تصيبه.. ليصرخ الصبي (أبيييي.. إنه يحرقني)

فيتقدم (عادل) ليقف بمواجهة الراهب طالبًا منه التوقف فما يفعله يؤذيه.. فأجابه الراهب سريعًا ليعود لصلاواته بأن يستمر في القراءة؛ فعند بدء عملية طرد الروح النجسة يجب إتمامها حتى نهايتها.

حاول (عادل) أن يجذب انتباه الراهب من جديدٍ لأثر هذه المياه على الفتى، ليجيبه الراهب بنفاد صبرٍ إنها مجرد مياه عادية من حوض المطبخ.. وقد وسم بها على رأسه منذ ثوانٍ، فحاول (عادل) أن يستفسر عن سبب علامات الألم الطارقة على وجه الصبي تلك.. فأجابه الراهب:

– إن الديبوك يختبئ وراء الصورة الآدمية لابنك محاولًا الفرار.

لقد علم هذا الشيطان أني أشكّل خطرًا عليه؛ لذلك قرر تسريع أمرَ قتل ابنك.. لذا تنحَّ جانبًا قبل فوات الأوان ولا تلقِ لدموع التماسيح تلك بالًا.



هنا بدأ الصبي الصغير يبصق الدماء من فمه بغزارة.. فأزاح الراهب (عادل) –الواقف أمامه– وأشار بصليبه على امتداد ذراعه قائلًا صلواته بصوت جهوري.. حتى وصل للمقطع الذي يقول:

«يا رب اسمع صلاتي. أنصِت إلى طلبتي بحقك. استجب لي بعدلك. ولا تدخل في المحاكمة مع عبدك، فإنه لن يتزكى قدامك كل حي. لأن العدو قد اضطهد نفسي، وأذَل في الأرض حياتي. أجلسني في الظلمات مثل الموتى منذ الدهر. اضجرت في وحيي، اضطرب في قلبي.. لا تحجب وجهك عني فأشابه الهابطين في الجب» (المزمور المائة والثاني والأربعون.. يتم استخدامه في طرد الأرواح)

ظلّ الصبي يشنج عضلاته حتى كادت الملاءة تتمزق.. فصرخ الراهب في الرجلين بأن يعيدا إحكام قيده سريعًا، فتوقف (طارق وعادل) عن القراءة.. فأسرع (عادل) للإمساك بابنه محاولًا تهدئته ببعض كلماته بينما يسحب (طارق) ملاءة جديدة ليقيد بها الفتى من جديد.. لكنه فجأة يبدأ في صراخ جهور تهتز معه الحجرة.. بدأت إضاءة المكان في التراقص وكل من الرجلين ارتمى أرضًا وكاد الراهب يسقط هو الآخر لكنه حاول الحفاظ على توازنه.. لكن قدماه العجوزتان صاحبتا الستين عامًا تقريبًا خذلته.. لكنه استطاع أن يسقط على ركبتيه أمام



الصبي الصغير.. فاستغل الراهب الموقف وبلل يديه بالماء المقدس وأمسك بكلتا قبضتيه برأس الفتى وظل يصرخ فيه:

– اصمت.. اصمت أيها الملعون.. «فيخافون من المغرب اسم الرب ومن مشرق الشمس مجده. عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه!» أشعياء ٥٩: ١٩.. «ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف» متى ١٠: ١

كانت يد الراهب حارقة على وجه الصبي الذي تأوّه أكثر وشفتاه تتشققان من الجفاف.. فأزال الراهب يده في حركة سريعة قائلًا وسط ذهول الرجلين الملقيين أرضًا:

– باسم المسيح الحي أمرك بالصمت «إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة باللّه على هدم حصون. هادمون ظنوننا وكُل علو يرتفع ضد معرفة اللّه، ومستأثرون كل فكر إلى طاعة المسيح .» كورنثوس ١٠: ٤, ٥

فخمدَ جسد الصبي متوقفًا عن الصراخ والحركة.. حتى تلك الهزة العجيبة توقفت أخيرًا.. كل شيء عاد هادئًا إلا المصباح الضخم المعلّق في أعلى الغرفة، ظلَّ مُستمرًا في تلك الذبذبة المزعجة



مصدرًا طنينًا مثيرًا للأعصاب.. ثم فجأة بدأت الصلبان المعلقة على الحائط في التساقط تباعًا.. فأمسك الراهب بوجه الفتى الواقع على الأرض من جديد عازمًا على الصراخ فيه.. لكن هذه المرة كان للطفل الأسبقية.. فتح الصبي جفونه معلنًا عن عيون سوداء تمامًا.. لم يجد الراهب وقتًا للتفاجؤ؛ فقد وجد نفسه هو والرجلين يطفون في الهواء مطاحًا بهم إلى آخر جوانب الحجرة.. لكن رأس الراهب العجوز لم يتحمل هذه الصدمة.. فغاب عن الوعي وترك الرجلين في مواجهة هذا الشيطان وحدهما.

* * *

يفتح الراهب عينيه بتثاقل.. يشعر بألم ينهش في ثنايا عقله العجوز.. يزداد إدراك ووعي الراهب من حوله، ليجد نفسه على كرسي نائمًا خلف طاولة مستديرة في صالة منزل فقير خشبي الأثاث والأرضية.. هذا ليس منزل (عادل) وليس منزله الشخصي.. إذًا أين هو؟! لا لا.. ليس هذا المنزل ثانية، يزداد وعي الراهب تدريجيًا ويدرك أين هو.. إنه في أسوأ مكان يتمنى التواجد فيه.. إنه كابوسه الحي القاتم الذي يطارده كل ليلة من فترة طويلة.. إنه المكان الذي كان للشيطان فيه علامة قوة.



سمع الراهب جرس باب الشقة وهو يرن في هدوء.. يخرج رجل مهرولاً من ردهة المنزل في نمط عكسي تمامًا لجرس الباب لفتحه، فيجد أمامه شخصًا يرتدي السواد ممسكًا بحقيبة سوداء.. إنه يعلم باقية الأحداث دون أن يبصرها، فيدير وجهه، مجبرًا نفسه على تناسي الأمر.

– كانت من هنا البداية، أليس كذلك؟!

قاطع هذا الصوت دهشة الراهب.. فحرك رأسه ناحية الصوت النابع جواره ليجد فتاة صغيرة شقراء الشعر، حجمها الصغير يصيح بأن عمرها في العاشرة، وجهها صافٍ جميلُ الملامح، ترتدي فستانًا أزرق باليًا ينم عن فقرها، تجلس على كرسيٍّ آخر بجواره وراء الطاولة.

فنهض الراهب من مقعده فزعًا قائلًا: «أنتِ»

ترد الفتاة في نظرة تحد لا يتناسب أبدًا مع سنها:

– انطق باسمي.. أم تدعي نسيانه؟

أشار الراهب بيده للفتاة الصغيرة صارخًا:

– أنتِ وهمٌ.. لقد كُنت في منزل (عادل) منذ ثوانٍ.



– لقد وهم بالفعل أبي وأمي بأني سأشفى.. لكنك قررت أن تحول هذا الوهم لألم.

أجابها بأنه لم يُرِد سوى المساعدة، متفاعلًا مع الفتاة ناسيًا الموقف.

هنا طرق على مسامع الراهب صوت فتاةٍ تصرخ من داخل الردهة التي توجَّه لها الضيف والرجل منذ قليل، وتتعالى معها أصوات الصلاوات.

– هل تسمع كيف ساعدتني وقتها؟! لقد كنت تقتلني.

يتقدم الراهب للردهة بخطوات بطيئة، متجاهلًا الفتاة قائلًا وهو يحاول إمساك دموعه (كان لدي إيمان).. خرجت الفتاة من الردهة ذاتها بعد أن اختفت من ورائه، ناظرة للراهب بذات التحدي:

– أي إيمان هذا الذي يدفعك لزراعة أملٍ كاذبٍ في نفس أب وأم كانا موقنين أن ابنتهما في عداد الأموات

تكمل الفتاة وهي تشيح بيديها في سخرية متقدمة نحو الراهب الذي بدأ في التراجع:



– لكن هيهات.. كيف تسمح لشيء يتم حتى النهاية.. كان يجب عليك أن تظهر لهذه الأسرة وتخبرهم أنك ستقوم بعملية طرد الأرواح لابنتهما الممسوسة.. بعد أن اقتنعا تماماً أن ما أصابها هو فقرُ دمٍ محتوم بالوفاة.

هنا بدأت ملامح الفتاة في التحوّل.. بدأت الشعيرات الدموية الزرقاء تنتشر في وجهها الأبيض كالسرطان، ازداد احمرار عينيها وصفار أسنانها غير تشقق شفتيها الجافة، بدأ شعرها الناعم يتجعد ويتقشف، آثار الدماء تتبعثر على جلدها وملابسها، ثم بدأت الفتاة تصرخ في ألمٍ شديدٍ وهي تنتفض حتى أصبح صوتُ صراخها مختلطاً بصوت صراخ الخلفية القادم من الردهة الذي لا يزال قائماً حتى الآن.. فركض نحوها الراهب جالساً على الأرض يحملها بين ذراعيه، بعد أن خذلتها قدماها من الألم، محاولاً الصلاة لها.. كان جسدها ساخناً كجمرة.

فجأة توقف كل شيء.. حركة الفتاة وصوتها وصوت الخلفية، حتى الراهب نفسه توقف عن الصلاة.. ليحمل الهواء ذاته بالصمت.

ظلّ الراهب يصفعها على وجهها برفقٍ لتفيق.. كان عقله تائهاً، لا يعلم أين هو، ويتفاعل مع الوسط المحيط به كما لو أنه حقيقي.. رغم إدراكه



الكامل أن هذه ليست سوى ذكريات تم تحريفها من قِبَل الديبوك.

شهقت الفتاة وهي تمسك بملابس الراهب وتقول باكية بصوت الطفلة البريئة «أرجوك أنقذني».

وطار الراهب في الهواء بعيداً ليصطدم بالجدار المقابل.

يفقد الوعي؟!.. بالطبع لا.. كيف يفقد الوعي وهو فاقدٌ للوعي من الأساس.. ثم إن الشيطان يريده أن يرى هذا.

نهض الراهب مسرعًا محاولًا العودة للفتاة، لكن الشيطان كان أسرع منه، التوت رقبة الفتاة مصدرة ذلك الصوت الذي تقشعر له الأبدان.. إنه صوت الموت الذي عاهد الراهب نفسه على عدم سماعه مرة أخرى.

سقطت الفتاة هامدة على الأرض، وصل لها الراهب فحاول أن يمسكها باكيًا، لكنه كان متأخرًا مرة أخرى، حيث اختفت الفتاة ووجد الراهب نفسه يحاول الإمساك بالسراب.

هذه المرة لن يمسك الراهب دموعه.. فمشاهدة هذا المشهد لمرة واحدة أمرٌ مروِّعٌ، لكن ما بالكم



أن تراه مرتين، فأطلق الراهب العنان لدموعه الحبيسة، حتى شعر بيد أحدهم على كتفه الأيسر..

* * *

يفتح كُلٌّ من (طارق وعادل) عيونهما ليجدا أن (توني) قد حرَّر وثاقه وهما المقيدان الآن، مكان ما سقطا.. ما عدا الراهب، كان غائبًا عن الوعي، لم يسيقظ بعد، غير مكبل.

حاول الرجلان في حركات عفوانية تحرير أنفسهم لكن قيدهما كان أكثر من محكم.. كان الصبي يقف في منتصف الحجرة وبمجرد رؤيته لهما يتحركان، قال مبتسمًا بصوته الطفولي:

– لقد استيقظتما أخيرًا.. كدت بدأت أشعر بالملل من هذه الوحدة.. لكن بما أنكما أفقتما ستشاركانني المرح.

توجه الصبي إلى (طارق) بعد أن صفق يديه بمرح، جارًا له من قدمه بكل سهولة، بقوة تفوق حجمه الضئيل أضعافًا وأضعافًا.. كان الضابط يبدو كلعبة هشة في يدِ هذا الطفل.. أطلق الضابط سبات بذيئة وهو ينفض جسده في محاولة فاشلة منه لتأخير حركة الصبي.. فردّ الصبي في مرحٍ بأن



يراقب لسانه فهو يسبّه أمام والده.. وجّه الضابط حديثَه إلى (عادل) محاولًا رفع صوته لبُعد المسافة بينهما، بأن عليه أن ينجد ابنه الصغير، ويذكِّره بمن هو..

لم يكمل الضابط كلماته؛ لأن (توني) جرَّه خارج الحجرة تمامًا.. فظلّ (عادل) مترقبًا في توجُّس لما يحدث، حتى سمع صرخة ألم ممتزجة بالغيظ تخرج من فم الضابط، لم تمر دقيقة وكان فيها (توني) في الحجرة مرة أخرى متوجهًا لأبيه عازمًا على فعل نفس الشيء.

تلعثم (عادل) في كلماته التي كان يريد أن يلقي بها على ابنه.. لكنه نساها كلها.. فحتى الآن هو لا يتصور أن حياته العادية المملة تتحول أمام عينه لبركان ثائر، وأول من تعثر في حممه هو ابنه.

– ما.. ما الذي تفعله يا (توني).. عليك أن تقاومه، اجعل من حب أسرتك سلاحًا تنتصر به على هذا الحقير، تذكَّر الهدايا التي جلبتها لك في عيد مولدك المنصرف.. تذكَّر كيف كنت أنام بجوارك أثناء مرضك بالحمى غير عابئ بالعدوى..

قاطعه (توني) وهو يلقِي به على أريكة الصالة بجانب (طارق) ككتاب مُهمل:



– هل يمكنك التوقف عن الثرثرة؟! وأنا من كنت أحسب نفسي مزعجًا.

ذهب الصبي ليحضر الراهب من الحجرة هو الآخر قائلًا:

– كم أتمنى لو كانت أمي وأخي هنا، لكانت المتعة تضاعفت، لكن الجود بالموجود.

وضع (توني) الراهب الغائب عن الوعي في عدم اكتراث في أحد أركان الصالة، متوجهًا للرجلين قائلًا وهو يفرك كفيه وتظهر على قسمات وجهه الشعيرات الدموية الزرقاء بكثافة، سائلًا بمكر بماذا يبدأون؟

فأجاب الضابط بغضبٍ:

– ما رأيك أن تذهب للجحيم أيها الملعون؟!

– أنت لا تعرف منذ متى وأنا لم أزر الجحيم أو أتلبس جسد طفل بهذه الطريقة الممتعة.. هذه لحظتي وسأستمتع بها.

اختفى الطفل عن أنظار الرجلين بعد أن توجّه للمطبخ وعاد حاملًا سكينتين حادتين.



– كان المرح سيصير مقبرة لو كان مع الضابط مسدسه.. لكني لا أعلم ما بال أطفال هذه الأيام الذين يستمعون لكلمات ذويهم.

وضع سكينًا في منتصف المسافة بين الرجلين بحيث لا يستطيع أيٌّ منهما الوصول إليه.. بينما توجَّه للراهب ووضع في يده السكين الثاني قائلًا:

– الآن كل شيء جاهز.. دعونا نبدأ العبث وانتبهوا جيداً لأن بقواعدي سنلعب.

* * *

ارتفع الراهب بعينه الدامعة ليجد ابن أخيه (طارق) يضع يده على كتفه.. فقال بلهفة:

– طارق؟!

– تقصد الحجة أليس كذلك؟!

كان رداً عجيبًا لم يفهمه الراهب، فتوجَّه (طارق) إلى أحد الكراسي المتراصة بانتظام حول الطاولة، ليتذكر الراهب ما كان يقنع نفسه به وقتها، بأنه عليه التوقف عن أعمال إخراج الأرواح حامية لابن أخيه وحفاظًا على حياته.. قال (طارق) بنفس الهدوء بعد أن استرخى في مقعده:



– لا تجعل من عندك ستارًا تخفي به الحقيقة بعد تلك الليلة التي ماتت فيها الفتاة الصغيرة بين يديك وقتلت والديها نفسيًا بعد أن بعثت روح الأمل بعلاجها فيهم، بعد أن اقتنعوا داخليًا بأنه أمرٌ مَحتومٌ.. قررت أن تبتعتد عن كلّ شيءٍ، حبست نفسك في كنيستك أملًا في الغفران من ربك.. لكنك كنت تعلم أنك أخطأت.

– أنا لم أخطئ.. الفتاة كانت مريضة بفقر دم والمس زاد من الأمر حدة، فكان صعبًا على الفتاة المقاومة.

صرخ بها الراهب مدافعًا عن نفسه فابتسم (طارق) أو دعونا نقل الديبوك المتشكل في هيئة (طارق).

– كم أنت رائعًا وأنت تنغمس في الخطايا كالرمال المتحركة.. أنسيت علمك بتعرض الفتاة للمس من قبل، لكنك فضّلت الاستماع لقوانين الكنيسة وأن تسمح لك بعملية طرد الأرواح أولًا.. وأنت تعلم جيداً لو لم تنتظر تفويضهم وقمت بعملية الطرد مبكرًا لكانت حية وأتمّت من العمر الواحد والعشرين الآن.

جلس الراهب على الكرسي بجوار (طارق) وهو منكس رأسه للأرض مفكرًا بحزنٍ في هذا الكلام



الذي لا طالما فكر فيه واتهم نفسه بقتلها.. فاستغل الديبوك تلك الفرصة وأكمل:

– ومن هذه الليلة أيضًا بدأت في سلسلة كبيرة من الكذب لا آخر لها، توقفت عن طرد الأرواح متجاهلًا كل نداءات الاستغاثة الطالبة معاونتك ونجدتك في ضيقاتهم بحجة أنك تخشى أن يصيب ابنك المدلل أي من أخطار انغماسك في عالم الشياطين بعد أن خسرت إحدى الحالات.

نهض (طارق) ليواجه الراهب وجهًا لوجه وهو يتحدث بسرعة شيطانية دون أن يتوقف حتى لأخذ أنفاسه:

– هل تتذكر؟ نظرة الوالدين لفتاتهم الصغيرة المقتولة؟! نظرة الأسر المتوسلة لك لمساعدهم في حالات المس؟! كم أسرة أدرْتَ ظهرك لها رغم استطاعتك مساعدتهم؟!

– اصمت.

– كم مرة كذبت فيها بأنك لست طارد أرواح؟!

– اصمت.



– كم مرة جعلت من آنانيتك وخوفك من الفشل مجدداً حائلًا بينك وبين نجدة تلك الأسَر؟!

– اصمت.

– وها أنت الآن كنت ستتراجع عن مساعدة ابن (عادل) لولا (طارق) –الحجة– التي جعلتك تنشطر في الأمر دون رغبه منك.

هنا صرخ الراهب وعيناه تنفجران بالدموع (اصمت، اصمت.. اصمت أيها الشيطان).. هنا ضرب (طارق) بقبضته على الطاولة والشَّرُّر يتصاعد من عينيه بينما اهتز المكان مع كلماته التي قالها بشكلٍ جهوريٍّ مُخيفٍ يتوقف قلبك بمجرد سماعة (لست شيطانًا.. أنا الديبوك)

بدأ شكله في التحول لما هو أبشع وأهول.

* * *

أمسك توني السكين الضخم بقبضته الصغيرة قائلًا بمرح شيطاني خبيث:

– قواعد اللعبة بسيطة ومعلومة.. سأطلب من كُلِّ منكما طلب بسيط وإذا امتنع أحدكم عن القيام به سكون العقاب ثلاثة أضعاف.



أعطى (توني) السكين ليد (طارق) المقيدة مكملًا:

- ستفهمون قوانين اللعبة مع تجربتها الآن.. لا تعرفون مدى تشويقي لهذه اللعبة، فقد مرَّت فترة طويلة اكتفى فيها بالمضايقات الجانبية أو قتل الحمقى بجعلهم ينتحرون، لكن ها نحن في تجربة حية، أول أمر مني لك يا (طارق).. أن ترسم بهذا السكين اللطيف نجمة خماسية على ظهر يد والدي.

أطلق (طارق) فيضًا من السباب البذيء على (توني)، فقهقه هذا الأخير وكانت أنوار الصالة ترتعش مع ضحكاته السامة للآذان.

- أعرف أن الأمر غريبٌ في بدايته لكن عمر هذا الجسد البالي لا يوجد فيه الكثير من الوقت لإهدره.. لذلك سأبدأ في العد تنازليًا.

بدأ (توني) يعد الأرقام ابتداءً من العشرة في مرحٍ وحماسٍ.

ظلَّ (عادل) ينهر (طارق) ويطلب منه تنفيذ طلب هذا الشيطان، لكنه يرفض وقد أخرج بالفعل فكرة تنفيذ أوامره عن رأسه الصارم.

وصل (توني) في العد حتى الخمسة.



فخطف (عادل) السكين من الضابط وحملها كالقلم وحاول عاسراً رسم هذه النجمة اللعينة على يديه التي بدأت تصرخ بالدماء كما كان يصرخ هو من الألم، بينما يستمر (توني) في العد و(عادل) يأمره بالتوقف.. لكن (عادل) كان عازماً على فعل هذا، كان لديه الاستعداد لتحمُّل ألم الدنيا كلها أو يموت نهائياً في حالة شفاء ابنه الصغير.

سقطت السكين من يد (عادل) الملطخة بالدماء وهو يلهث بعد أن أتمَّ مُهمته، توقف (توني) عن العد وهو يتأمل تلك النجمة الخماسية المقبضة للقلب وقال بنوع من الغضب المزح:

– عملٌ جيدٌ لكن هنالك مخالفة واضحة في قوانيني.. لهذا كان العقاب جزاءً.

طرقع بأصابعه ليبدأ كُلٌّ من الرجلين ينتفض من الألم بصرخات قادمة من داخل الجحيم نفسه.. لقد أحسا بجمر الجحيم بالفعل في معدتهما، كما لو أن هنالك فأراً صغيراً محبوساً داخل أمعائهما ينهش في كل شيء حوله ليستطيع الخروج.. توقف الألم وظلا يلتقطان أنفاسهما في هرولة بعد أن بصقا بعض الدماء.

نظر (توني) للراهب الغافل الموضوع بإهمال عند أحد أركان المنزل ليجده يرفع السكين متجهاً بها



له في حركة بطيئة قاتلة، فعاد بنظره للرجلين وهو يقول مبتسماً بصوتٍ أجشّ مرعبٍ لا يخرج من طفلٍ.

(دعونا نعود للعب)

***

كان الراهب يقلب السكين بين يديه وهو يمعن بها النظر ثم قال:

– هذا هو عقابي.

فردّ (طارق) الجالس بجانبه مسترخيًا بصوته الطبيعي:

– أجل هو بعينه.. أتعلم؟ أنتم البشر حقًا مثيرون للاهتمام، لديكم رطلٌ من المشاعر التي تؤثر في اتخاذ قراراتكم المستقبلية.. أما حياة المنبوذين أمثالنا تقليدية؛ لذلك نجد المتعة فيكم.

– ألا يوجد حل آخر؟

– أعتقد أن هذا أفضل عقاب لك على...

أخذ (طارق) يعد على أصابعه.



– تخلفك عن مساعدة الفتاة، زرع الأمل في والديها وقتله بطريقة أبشع من تقبُّل المصير، التخلي عن الكثير من الأُسَر المحتاجة مساعدك، الكذب بأنك لست طاردَ أرواحٍ لسنوات، وضعُ سلامة أسرتك وخاصة ابنك على مصلحة المحتاجين.

أطلق صفيرًا من فمه وهو يقول بسخرية:

– كل هذه الأهوال لمدة أحد عشر عامًا.. ويقولون عليَّ كيانًا شريرًا.

– لكني لم أوذِ أحدًا.

– بتجاهلك وتفضيلك للسكوت آذيتَ المئات.

كان الراهب مغيبَ العقل تمامًا لا يستطيع التفكير إلا في أرواح العشرات من الأُسَر والأفراد التي عاشت في ألم مدوٍّ بسبب التفات ظهره لهم دون أن يحرك ساكنًا.

من أين جاء بكل هذه القسوة والجمود ليتجاهل تلك الأعين الدامعة والوجوة الخائفة، كيف استطاع ألا يحرك أنملة أمام أشخاص ينهش الشيطان في أرواحهم.. إنه حقًا يستحق الموت.

يقرب الراهب السكين من عنقه وهو يقول:



– ماذا عن (توني)؟!

– لا تقلق.. (توني وطارق وعادل) سيلحقون بك، أنت لا تملك شيئًا في هذه الحياة تبقى لأجله على أي حال.. فقط العار.

هنا توقفت يدُ الراهب عن الحركة، عندما بدأ عقله أخيرًا يعمل ويتذكر.. فنظر له (طارق) متعجبًا متخليًا عن وضع الهدوء الذي كان يرتديه لأول مرة منذ بدأ.. منذ بدأ كل شيء.

– ماذا.. لمَ توقفت؟!

قالها في عجلة، فنظر له الراهب بابتسامته المريحة لأي شخص ما عادا الديبوك.. كانت هذه الابتسامة مريعة له.

– لقد زيفت الحقائق.. لا ألومك، فهذا ما تجيده.. لكن مهما طالت كذبتك ستكشفك الروح القدس في النهاية

«قد أكون أخطأت كثيرًا وكثيرًا.. لكن سيظل لي ما في الأرض لأحيا من أجله..»

لدي إيماني..



خلع سلسلته ذات قلادة الصليب وعلقها حول عنق (عادل) ويقول مربتًا على ظهرة:

– لا أحتاج لمساعدة أحد لمواجهة قوى شيطانية.. فبإيمانك وحده قادر على هدم مملكة الجحيم بأكملها إن أردت.

لهذا كُن لديك إيمان في أن اللّه يحميك.. اللّه يساندنا في معركتنا بسُلطانه.. كُلّ ما يطلبه منا هو الأيمان فحسب.. فبالإيمان نستطيع»

«لدي الحب»

«نظر (طارق) لوالده بعد طلبه تركه وحيدًا بتحدٍّ قائلًا:

– لقد ساعدتني يا والدي في استجماع معلومات هذا الصندوق وجاء كلانا لهنا لنجدة هذا الشخص وأسرته.. ولن أرحل من هنا حتى أتم ما جئت لأجله.

«لدي الأمل في القضاء عليك كما وعدت»

«– هذا إذا كنت أنوي إخراجه من جسد ابنك فحسب.. لكني أنوي إعادته ذليلًا لعالمه هذه المرة بلا رجعة.»



نظر الراهب للسكين ليجده تحوّل لصليبه الخشبي الضخم.. فغرسه في رأس الديبوك دون مقدمات، الذي بدأ في الصراخ وبدأ المكان يتداعى مع صرخاته.

* * *

– هذه ليست سوى المرحلة الأولى من العقاب فحسب.. لا يزال هنالك المزيد.

قالها (توني) وهو يلتقط السكين بعد أن سقط من يد (عادل) وهو يتقدم ناحية (طارق) عازمًا على نقش النجمة الخماسية على جبهته –هذه المرة– بشكل أكثر عمقًا وإيلامًا.

توقفت يد (توني) عن الحركة.. فنظر هذا الأخير ليده ليجدها منتصبة دون حركة، فيجد الراهب – بعد أن أفاق– ممسكًا بيده في عنفٍ، قائلًا وهو يشير بصليبه في وجهه:

– أبعِد يديك عن ابني.

فطار الصبي في الهواء في دفعة قوية يقتحم بها إحدى الحجرات محطمًا أساسها.



أمسك الراهب بالسكين بعد أن سقط من الصبي قبل إطاحته وقطع به وثاق (طارق) وطلب منه الرحيل حالًا هو و(عادل).. ثم هب الراهب دون أن ينتظر إجابة منه، ملتقطًا حقيبته الجلدية ويدخل سريعًا للحجرة التي استقر بها (توني).

أخرج الراهب من حقيبته وشاحًا حريريًا ذا لونٍ أحمر فضفاض، وضعه سريعًا حول كتفيه وأخرج من طيات جلبابه شريطًا أحمر شبيهًا بربطة العنق، كان مكتنزًا في استعداد لتلك المرحلة حول عنقه.

فأشار بصليبه الخشبي مرة أخرى وهو يقول:

– اسمك يمنحني السلطان عليك.. باسم اللّه آمرك أن تخبرني اسمك.

بدأ (توني) هنا بالطفو في الهواء كما لو أن الجاذبية انعدمت من تحته، ثم بدأت جميع قطع الأثاث في الحجرة بالطفو بنعومة على الهواء، ثم أخذت تصطدم بالحائط في حالة كبيرة من الثورة.

أنتم تعلمون هذه الحجرة.. لقد جلسنا فيها من قبل مع (عادل) في بداية حكايتنا، إنها حجرة المكتب.



خارج الحجرة استطاع (طارق) تحرير (عادل) وطلب منه أن يتبعه خارج هذه الشقة لأنها على وشك التحول لحلبة مصارعة بعد ثوانٍ.. فهب (عادل) يسير وراء الضابط وعقله مغيَّب تماماً عن التفكير، فالصدمة مسيطرة تماماً على كل منهما.

كادت قدمُ (عادل) أن تخطو خارج عتبة باب الشقة، حتى استوقفه صوتُ الأثاث الذي يتحطم في حجرة مكتبه.. فقال للضابط بعد أن عاد عقله لليقظة أخيراً بأنه لن يرحل.. التفت له (طارق) الذي بدأ بالفعل في نزول طبقات السلم:

– ماذا تقول.. لقد سمعت أمر والدي بالرحيل.

– لن أرحل وأترك ابني الصغير يواجه هذا الشيطان وحيداً.. وأعلم أنك لن تترك والدك في هذا الصراع أيضاً.

– ماذا نفعل إذاً.. الأناجيل التي سلمها أبي لنا فقدناها وسط هذا الصخب.. والمنزل في حالة عارمة من الفوضى لن نستطيع أن نجدها الآن.

ردَّ (عادل) مبتسماً:

– قد لا أكون حافظاً للكثير من آيات الإنجيل.. لكني على الأقل حافظاً لصلاة الشكر، أعلم أن هذا ليس



بالكثير لكن كما قال والدك.. (بالإيمان نستطيع).. وأنا أؤمن أني أستطيع إنقاذ ابني بتلك الكلمات القلائل.

لم يملك (طارق) مجالًا للاعتراض، بل كان هو من سبق (عادل) للداخل لمساعدة والده.

فوجد الراهب كلا من الرجلين يهبان وهما يتمتمان في نفسٍ واحدٍ:

– «أبانا الذي في السموات، يتقدس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض...»

ويستمران في هذه الصلاة.. فينظر الراهب لابن أخيه ويبتسم فيعلو صوته بالآيات الأرامية هو الآخر وتبدأ قطع الأثاث في الحركة بشكل هجومي عليهم وسط صراخ وغضب الديبوك في جسد (توني).

كان المشهد مروعًا بحق.. كل شيء يطير، كل شيء يحاول صدمهم، يحاول الثلاثة رجال تفادي قطع الأثاث بدورهم، بعضهم يستطيع والبعض الآخر لا، بدأت بالفعل الدماء تتكون على وجوههم بسبب الأغراض التي تصطدم بهم ولا يستطيعون تجنُّبها.



حتى رأى الضابط الصندوق وهو يُقذَف ناحيته، فيتجنبه بحركة رشيقة ليصطدم بالجدار بعنف ويفرغ محتوايته أرضًا.

يبدو أن (عادل) عندما أخذ الصندوق من ابنه، أغلقه بشكل مبدئي دون أن يعبأ بالقفل الجانبي.

فبدأت أغراضه تتبعثر هنا وهنالك حتى لاحظ شيئًا؛ إنه تمثال لرجل ذي قاعدة رخامية.. فتذكَّر حديث (مراد) مع (مروان) الذي بحث عن هذه الكلمة ليجدها كلمة «شالوم» وهي مرحبًا بالعبرية، لكن (مروان) قال إنها كلمة مشابهة لها وليست هي تحديدًا، ووقتها سخر (مراد) من (مروان) لتحذلقه رغم ضعف بصره.

هل يمكن أن يكون هذا هو مفتاح الخلاص؟! هل هذه الكلمة المنقوشة في قاعدة التمثال هي...

قذف الضابط بالتمثال لأبيه الذي التقطه بعد أن انتبه لحركة ابنه..

الراهب يجيد بعضًا من العبرية، فنظر له وابتسم بعد أن تبادلا نظراتٍ ذات معنى فتهجأ تلك الحروف بصعوبة في عقله ونطقها بقوة مهولة:

(شالدوم)



هنا نظر (توني) للراهب في غضب جم، فبدأ الراهب يستمر في تلاوة الصلاوات حتى قال بصوت عالٍ مشيرًا بصليبه:

– «تقووا في الرب وفي شدة قوته. البسوا سلاح اللّه الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكائد إبليس» أفسس ٦: ١٠, ١١

باسم الرب الذي منحنا السلطان أن ندوس الحيّات والعقارب وكل قوات العدو، أحكم عليك بالعودة للجيم

هنا توقف كل شيء، كل شيء ظلّ معلقًا في الهواء متحديًا قوانين الجاذبية التي أسقطت التفاحة على رأس (إسحاق نيوتن) ذات مرة

ثم سقط كل شيء أرضًا ومعهم (توني)

أسرع (عادل) لابنه الصغير الملقى أرضًا وسط الركام حاملًا إياه بين ذراعيه.. بدأ يهزه بنوع من العنف صارخًا به، حاثًا إياه على الإفاقة.

انتفض جسد الطفل، فنهض شاهقًا ليبصق دماء نتنة الرائحة.



ثم عادت له نضارة وجهه الطفولي من جديدٍ واختفى احمرار عينيه تدريجيًا.. معلنًا للجميع أنه عاد لطبيعته وقد ذهب الديبوك هذه المرة لسجنه الجحيمي الحقيقي.

* * *

عاد الديبوك للجحيم بعد أرسل لها سابقًا الجدة (ألوي) و(وائل) و(شوقية) و(مراد) وأمه و(رنا).. عاد الديبوك لمنشأه الأصلي بعد قرن أو أكثر بعدة سنوات.. كل ما يفعله هو العبث بعقول الأبرياء وتشويه حياتهم.

هناك من انتحر مثل (فادي) بعد أقل من شهر من بيعه للصندوق حزنًا على (رنا) هناك من استمرت حياتهم بشكل طبيعي (مروان والحفيدة وتميم وسارة ونورهان وأمجد) بعد حزنٍ على ما فقدوه طال كثيرًا.

هناك من عاد لحياته ك(شريف) الذي خرج من المصحة النفسية بعد علاجٍ استمر لبضعة أعوام، ربما وقعت (إيمان) في حب أحدٍ آخر أو ربما لا، المهم أنها لا تزال حية، والمهم أيضًا أن كل هذا قد انتهى.



جلس الراهب على الأريكة وهو يقول بكل أسف ل(عادل) مع بزوغ ضوء الفجر:

– سامحني يا (عادل) على كل ما فعلت، منذ أحد عشر عامًا كانت هنالك فتاة صغيرة في نفس عمر (توني)، كانت مصابة بفقر دمٍ، لكن حالتها تحوَّلت من الاستقرار للتدهور بين يوم وليلة وعندما طلب والداها قساوسة لعملية طرد الأرواح.. ذهبت أنا ومعي راهب آخر زميل، كانت حالة الفتاة متدهورة بحقٍّ لكن لا وجود لأثر مس شيطاني.. أو هكذا رأى زميلي لكن كان لدي شعور مختلفٌ.. كان هذا الشيطان حريصًا جدًّا على عدم إظهار ولو علامة واحدة لنا.. لكني استطعت أن أكشف حيله.

صمت الراهب هنيهة ثم أكمل وهو يحاول كبت دموعه:

– أخذت وقتًا في التماس الإذن من الكاتدرائية بالبدء بعملية طرد الأرواح.. وعندما أخذته كان الأوان قد فات.

توقَّف الراهب عن الكلام.. فقد عانى من هذه الذكريات بما فيه الكفاية ليومٍ واحدٍ.. فقال (عادل) مبتسمًا:



– لقد أنقذت ابني الليلة.. ولا يهم ما فعلت سابقًا، لقد عُدت عن اعتزالك من أجلي ومن أجل (توني) وها هو حي بسببك.

– لكن قدميه لن تتحركا للأبد.

كان الصبي قد فقدَ الإحساس بقدميه بالفعل.. فقد استطاع الديبوك ترك لمسته الشيطانية الأخيرة على قدمي (توني) وظهر كف (عادل) اليسرى قبل رحيله.

– لكنه لا يزال يتنفس وهذا ما يهم.

هنا ظهر (طارق) من حجرة المكتب بعد أعاد الأغراض في الصندوق وقال مازحًا بأن يكفوا عن هذه الدموع.. تصافح الثلاثة رجال مودعين بعضهم البعض.. فقال (طارق) متذكرًا بأنهم لم يعطوه ثمنًا للصندوق.

فأجاب (عادل) مبتسمًا وهو يحمل ابنه على ذراعه، بأنهم قد أعطوه الإيمان والأمل وفوقهم حياة ابني.. وهذا ثمن كافٍ.

ثم قال (عادل) بعد أن تذكر شيئًا:



– لقد تذكرت شيئًا يا أبتي.. أعلم أن الأمر انتهى لكنه ضرب عقلي فجأة.. من هذه المرأة العجوز التي كان يراها (مراد) في أحلامه والتي ظهرت ل(فادي) في حلم المعركة أيضًا؟

فابتسم الراهب وهو يخرج من باب الشقة دون أن يلتفت له قائلًا:

– كما أخبرتك من قبل.. هنالك أشياء لا نستطيع الإجابة عنها.

لكن من يعلم.. قد نعرف الإجابة يومًا ما.

وظلَّ صدى كلمة (يومًا ما) يتكرر في الأرجاء.

* * *



الحكاية الصفرية

كل ما هو غريبٌ، خارقٌ.. وكل ما هو خارقٌ، فاسدٌ.. وكل ما هو فاسدٌ، شيطان.. لكن دائمًا ما يكون البشر هو أصل بثر نبتة الفساد.

المكان: مجهول

الزمان: مجهول

– ستندمون.. ستنالون أشد العقاب لما تفعلنه لي أيتها العاهرات.

قالتها تلك العجوز المسكينة المتشحة بالسواد، المقيدة في وسط النجمة الخماسية المرسومة بدماء الحيوانات بشكل كبير أرضًا.

تأففت إحدى الساحرات الأربع وهي تمسك في يديها وعاءً ضخمًا مليئًا بالدماء، مُوجِّهة أوامرها بأن تقوم أحدهم بكتم هذه الشمطاء.. فصوتها المزعج كفيلٌ بجذب درك المدينة برمته لهن.

تركت إحدى الفتيات ما في يدها وتوجهت لمكان تلك العجوز لتكتم فمها بمنديل قماشي طويل.. فتمكنت العجوز من عض يد الفتاة بغتة، التي عادت بدورها للخلف وهي تطلق السباب على تلك



العجوز، متحسسة ليدها النازفة من أثر غرس أسنانها بها.

«يا إلهي، لا تجعل من روحي لقمة سهلة في براثن تلك العاهرات ولتظل روحي تسعى للأاتقام منهن الى الأبد»

التفتت الأربع ساحرات الموجودات في المكان حول تلك العجوز المزعجة التي تنفض جسدها كسمكة تصارع الجفاف، من أين جاءت بكل هذه الحيوية في الانتفاض أو السباب.. يجب أن تكون حياتها على المحك لتخرق قواعد العمر والعجز.

لعلكم تتساءلون عن المكان، سأترك هذه النقطة لكم.. قد يكونون في مغارة حجرية في إحدى قرى (أيرلاندا) أو كوخ خشبي في غابات (قضاء زحلة بالبقاع) أو على أحد شواطئ (إنجلترا) الباردة.. المهم أنهن في مكان منعزل يحاولن فعل صنيعهن الخبيث خلسة.

دعت الفتاة التي تقطر يدها بالدماء وهي تلف حوله منديلًا قماشيًا أحمر اللون.. اختلط لونه بلون الدماء.. الأخريات بالبدء الآن، فكم تتشوق لقتل هذه المزعجة بيدها.



وقفت إحداهن تطمئن على وجود كل شيء في مكانه الصحيح.. كما لو أنها قائدة هذه المجموعة.. فأومأت رأسها بالإيجاب بأنهن على استعداد، وكل الطقوس جاهزة لاستدعاء الشيطان الليلة.

جلست الأربع ساحرات عند أضلع النجمة الخماسية.. أما في الضلع الخامس والأخير كان يقبع بها إناء الدم الكبير.

بالتأكيد أنتم تعرفون أننا ليلًا.. فدائمًا ما كانت طقوس تحضير الشياطين إلا في الليالي القمرية، وهنالك شموع بالطبع.. ليس لأنها شيء أساسي لتحضير الشياطين هي الأخرى.. بل لأن الكهرباء لم يتم اكتشافها وقتها.

بدأت الساحرات الشابات في الهمهمات المنتظمة من كلمات وشعوذات عبرية اللغة.. نسبة لأنهن يستخدمن الطريقة اليهودية القديمة لاستحضار الشيطانين وتسخيرها.

كانت كُلٌّ منهن تمسك بسكين صغير في راحة يدها الخشنة.. فعندما انتهين من هذه الهمهمة، أخرجت إحداهن قطة صغيرة من جوال ضيق قابع خلفها.. لتهب القطة بصوتها المزمجر على المسامع، فتقطع الساحرة عنق القطة بسكينها



بجمودٍ تامٍ، كما لو أنها فعلت هذا عشرات المرات من قبل.

رأت العجوز الدماء وهي تسيل من جسد القط المحاول فاشلًا التمسك بالحياة وقد تحوَّل صوتها من الزمجرة إلى المواء الناحب، وعلمت أنها التالية لتقلدها روحها في حركات الانتفاضة تلك.. لكنها لم تعلم أن نهايتها أبشع بقليل

قامت إحدى الفتيات ناهضة من مكانها لتطعن تلك العجوز في معدتها بسكينها الصغير ثم عادت مرة أخرى لمكانها كأن شيئًا لم يحدث..

كأن الساحرة ربتت على ظهر العجوز أو ألقت عليها دعابة ما لتعود من جديد لموضعها بملامح جامدة كالصخر.. أعتقد أن الصخور نفسها كانت خائفة من هذا المشهد، اعتقدت العجوز أن بذلك تكون نهايتها، لكنها تذكرت كلمات الفتاة التي عضتها وهي تتمنى بأن يمر الوقت سريعًا كي تقتلها بيدها، لكن هذا لم يحدث.. إلا إذا...

لم تسرح العجوز بخيالها كثيرًا لأنها سرعان ما وجدت الساحرة الأخرى تهب واقفة مثل زميلتها الأولى وتقوم بنفس الخطوات ونفس الطعنة وبالمثل الثالثة حتى جاءت الرابعة وكانت نفس الفتاة التي عضتها.. فسددت لها طعنة كانت



الأقوى والأكثر عمقًا من سابقيها.. كانت الطعنة ملوثة بكل معاني الانتقام الشيطانية.

وتركوها هكذا للموت متأثرة بجروحها كما يقال.

عادت الساحرات للتمتمة من جديدٍ.. غير واعيات أن العجوز ماتت بالفعل من أثر الطعن –خاصة الطعنة الأخيرة–، فجسدها الكهل لم يتحمل كل هذا الألم وكل هذا الفقر للدماء.

لكن مهلًا.. أمِن الطبيعي أن تموت العجوز هكذا قبل إتمام عملية التحضير كاملة أم أن هذا قد يسبب خللًا ما.. خاصة أنه لم تلاحظ أي من الساحرات موت العجوز؟! فكيف ستكون ردة فعلهن حينها؟!

بدأت كلّ ساحرة تلطخ يدها بالدماء المبعثرة على الأرض سواء دماء القط أو دماء العجوز أو خليط بينهما، وترسم به بعض الطلاسم على أذرعهن وجبهاتهن.

بدأت الشموع تتراقص بعنفٍ رغم انعدام الرياح..

أخرجت كُلٌّ منهن صندوق الموتى الخاص بهن وفتحناه على مصراعيه في حركة مسرحية منسجمة.. أخذت كل منهن أول غرض تقع عليها



يدها في الصندوق وألقته في إناء الدم عند الضلع الخامس للنجمة.. وسط همهماتهن المستمرة.

يا لها من كومة هائلة من المعاصي ليومٍ واحدٍ، قتل إنسان عاجز.. قتل حيوان بريء.. تدنيس حُرمة الموتى في المعتقدات اليهودية.. لا عجب أن عقوبة الساحرات كانت الحرق في ميدان عام في هذا العصر.

لاحظت الساحرة التي كانت يدها مربوطة بالمنديل من أثر عضة العجوز، إنها لا تتنفس أثناء نهوضها لوضع الغرض في إناء الدماء.

يا للهول، يا للهول.. لقد طعنت العجوز بانتقام أكثر من اللازم.. ماذا سيحدث الآن وهن على مشارف إنهاء عملية استدعاء الديبوك؟!

سيأتي الديبوك دون أن يجد الجسد البالي ليأخذ روحَه، سيجده إناءً خاويًا من الحياة.. لم تدرك الفتاة نفسها إلا وهي تاركة قدمها تسابق الريح وتسابق دقات قلبها المتسارعة، تاركة هذا المكان لينعمن بجحيمه.

كانت الثلاث فتيات الجالسات أرضًا ترمق زميلتهن وهي تركض في بلاهة كما لو أن الدرك قد توصل



لهن!! –هذا التصور الأول لهذا الهروب–.. هبت الفتيات تتلفت حولهن واقفات في خوف..

لماذا الآن؟ كدن ينتهين.. هذا يعني قتلهن أجمعين..

لكن إذا حضر الدرك.. لماذا لم تنبههم؟! انتبهن في نفس اللحظة أن العجوز قد ماتت.. لكن إدراكهن كان في الوقت الخاطئ كالعادة.

انطفأت الشموع، وشعرت الفتيات بالشلل عن الحركة، فرغم اعتيادهن على السِّحر والشعوذة وقراءة الطلاسم، لكن هذه تعتبر المرة الأولى لتحضير ديبوك في هذه القوى وهذا السلطان.

فدائمًا ما قاموا بتحضير المردة المنبوذين أو الدوابق الضعاف، لكن هذه المرة قررن التجديد، قررن تحضير شيء أكبر وأقوى، دون الالتفات لقوتهن أنفسهن في ترويضه.. لمعان القوة والشهوة لها والطمع للتميز أعمتهن عن خطورتها.

عادت الشموع للإضاءة من تلقاء نفسها من جديد..

ليدهشن بزميلتهن التي ركضت منذ قليل تتوسط النجمة الخماسية وعينها غارقة في سواد



عظيم.. مع اختفاء جثة العجوز والقط بالطبع.

لماذا دائمًا تكون المهمة صعبة.. لماذا تحضير الديبوك القوي يكون مستحيلًا.. لماذا لتحضيره يلزم وجود امرأة عجوزٍ واهنةٍ لا تتحمل صفعةً واحدةً وتَخُر صريعة، فما بالكم إذًا بالطعن عدة مرات.. كما لو أنَّ هذه المطالب هدفها الأول هو التعجيز وفشل المهمة لا إتمامها.

لم تأخذ الدهشة أو التفكير مساحة كبيرة من المشهد؛ لأن الخوف كان هو المسيطر على الموقف الملطَّخ بالدماء الساقطة على جبهاهن من الطلاسم المرسومة عليها، وخاصةً عندما وجدت اثنتين من الساحرات زميلتهما الثالثة تخرج حشرجة من فمها كأنها تختنق وبدأت ملامح وجهها في التحول للون الأزرق.

إنها تختنق بالفعل!!

هكذا فكرت كلتا الساحرتين ومع تبادل النظرات بينهما لثوانٍ معدودةٍ، حسمن قرارهن والحل واحد لا ثاني له.

بدأت واحدة منهن بالتمتمة بالعبرية مرة أخرى وهي تهز جسدها للأمام ثم للخلف في وتيرة واحدة ماسحة بكفها كل آثار الطلاسم المبعثرة



على جسدها.. هذه المرة تبدّل عزمها من تحضير الديبوك لطرده.

بينما زميلتها بدأت بمحو رسم النجمة الخماسية من على الأرض بقدمها لإضعاف الربط بين الديبوك وعالمنا، فهذا ممكن بما أن عملية التحضير لم تتم كاملة.. وهي تتمتم مع زميلتها.

تنبهت الفتاة المتلبسة بالديبوك -الذي قرر أخذ روحها هي لأنها من أفسدت عشاءه- لما تقوم به الساحرتان الأُخرَيَيْن.. فأفلت قبضتها -الوهمية- عن الساحرة المختنقة.. فهو الآن ليس بكامل قوته ليوزعها هنا وهنالك.. يحتاج للتركيز ليقوم بحركته.

لكن هذه كانت غلطته.. فبمجرد أن ترك الفتاة الثالثة لتلتقط أنفاسها لتعاون الساحرتين الأُخرَيَيْن في فعلهما..

بدأ بالفعل الديبوك يشعر بالوهن.. لا يستطيع التمسك بهذا العالم أكثر من هذا لكنه لن يترك لهن الفرصة.

كان الديبوك يزداد عناداً بالبقاء وتحدي للساحرات بجسد الساحرة الرابعة، فبدأ في التقدم ناحيتهن بتؤدة.



أدركت إحدى الساحرات –التي دعوناها بالقائدة– أنه يستنذف طاقتهن، فلحالة الوهن وخمول الأجفان التي تصيبهن هذه تفسير بالطبع.

هنا قررت أن تعتدل عن صرف هذا الديبوك، و قررت حبسه..

أول ما وقعت عينها عليه هو صندوق الموتى خاصتها القابع تحدّت قدميها فدفعت هذا الصندوق ليستقر أسفل قدمِ الديبوك الذي لم يفهم ما تحاول تلك الفتاة فعله واستمر في التقدم بتثاقل ناحيتهن..

كانت حركته ضعيفة جدّا كما لو أن الجاذبية تجذب جسد الساحرة الرابعة جذبًا لمركزها.. لكنه كان يحرص على التقدم متجاهلًا كل شيء..

بدأت القائدة في التمتمة بالتعاويذ بصوتٍ عالٍ لتفهم الساحرتين الأخريين مقصدها وتجارياها.

و بعد عدد دقائق من الشد والجذب بين الطرفين.. هوى الديبوك في الصندوق حبيساً بعدما تكونت على سطحه طلاسم حبسه العبرية من العدم، وسقطت الساحرة الرابعة جثة هامدة ليلطخ دماء العجوز ملابسها، كما لو أنه يرحب بها في عالم الموتى معها.



* * *

أخذت القائدة ذلك الصندوق بعدما اعتزلت السحر للأبد وقطعت أيّة صلة بينها وبين زميلتيها ذلك اليوم.. وحاولت الحفاظ على الصندوق ومنع شره عن الناس بحياتها وحرصت على تقوية الطلاسم على الصندوق ووضع السلاح الأمثل لمحاربة الديبوك داخله.. وقد كان اسمه شالدوم.

كانت تعلم أن تحطيمه مستحيل.. تعلم أن إهداءه لشخصٍ آخر مستحيل.. تعلم أن لعنته أصابتها هي وأبناءها للأبد.. لذلك حكمت على ما تبقى من عمرها بالحبس الأبدي مع هذا الصندوق.

ولكن للسحر ضررة على الساحر كما نعلم، و هذا الضرر ليس بالطبع بياض الشعر أو فقدان حاسة من الحواس أو انتشار الحروق على الجسد كما تصور الأفلام.. فليت الأمر كانٍ بهذه البساطة.. بدأت الساحرة تفقد عمرها سريعًا، كانت تشيخ بسرعة غير طبيعية، لكنها على الأقل قبل موتها وصّت ابنتها الصغيرة (ألوي) ألا تفتح هذا الصندوق مهما حدث.

هذا الصندوق نعم للموتى ويجب فتحه من الحين للآخر.. لكنه لم يعد صندوقًا للموتى.. بل هو محبس الشيطان.



* * *

كانت جيوش النازية تقتحم القرى وتأسر المدنين كعادتهم.

يضربون الشيوخ وينتهكون عرض النساء ويجرون الأطفال ويهينون الرجال بالطبع..

لكن هذا كان يختلف تمامًا مع اليهود.. فإما أن يتم تجميعهم للمحرقة أو ينهوا حياتهم القصيرة المحكوم عليها بنهايتها بالإعدام بالحرق الآن.

كانت الجيوش النازية قد اقتحمت منزل (ألوي) بالفعل.. ما هي غلا دقائق ويقتحمون عليها حجرة نومها بعد أن ينهالوا على زوجها باللكمات والركلات خارجًا.

كادت أن تصلي وتطلب العون من اللّه، لكن عندما جاءها صوتٌ من مكانٍ ما بالحجرة أعادها عن نيتها ألف خطوة وخطوة.

«هل تريدين الحياة ؟!»

كان صوتًا حادًا مخيفًا يشبه فحيح الأفاعي بدرجة تقشعر لها الأبدان.. فردّت (ألوي) في تلقائية سائلة عن هوية المتحدث.. ليأتيها الرد سريعًا بأنه في



الدولاب.. تبعت (ألوي) هذا الصوت في عدم إدراك، رغم تأكّدها من استحالة خروج هذا الصوت من حنجرة بشر.. ظلّت تنقب في دولابها العملاق بحجرة النوم بسرعة حتى وجدته أخيرًا.. صندوق الموتى الخاص بأمها.. فبدأت تتحدث مع الصندوق كما لو أنه شخصٌ حقيقي وقالت:

– الصندوق يتحدث؟!

– هل تريدين الحياة؟!

جارت (ألوي) الموقف رغم غرابته وفكرت في شبابها وحياتها اليافعة التي تنتظرها بعيداً عن مخالب النازيين.

– أجل أريد.

– المقابل حياة أسرتك أجمعين.

كان صوت النازيين يقترب من حجرتها.. هي تسمع الآن صوت زوجها وهو يتألم بعد أن ابتلع أسنانه، تسمع صوت حماتها وهي تولول وتصرخ أثناء جرها من ملابسها لعربة السجنات أو أثناء اغتصابها، على حسب الهوى الشخصي للضابط النازي اللعين التي وقعت بين مخالبه.




تسمع صوت أقدام كثيرة قادرة على إسقاط النجف المعلّق على الجدران من كثرة اهتزاز المنزل.. كما لو هنالك كتيبة كاملة من النازيين ينتشرون هنا وهناك.

هي لم تنجب بعد.. وسيظل في عمرها الكثير لتنجزه، لكن أولًا يجب أن تحرص على تحصين هذا العمر في المقام الأول.. فقالت بدون إدراك:

– موافقة.

تمّت



ختامًا

– استيقظ يا هذا..

استيقظ (جلال) فزعًا على صوت المدير (عبد النبي الجهور وهو يتحسس رأسه، سائلاً عن الوقت الذي قضاه بالنوم غفلة.. فنظر المدير في ساعته ثم أجاب:

– منذ ثماني ساعات تقريبًا.

– هذا يعني أنك...

– نعم.. أنهيتها.

اتسعت عينه دهشة ثم أردف:

– حقًا.. وما رأيك؟!

– هذا ليس بتحقيق صحفي.. إنها رواية من كل النواحي. فهذا التحقيق مقسم لفصول، وهنالك فصول مكتوبة بصيغة ال(أنا) الروائية، وهنالك فصول على لسان أبطالها، كما أنك كتبت كلمة (تمت) في آخر التحقيق، معلنًا أنها رواية بكل وقاحة.



– نعم أعرف.. لهذا أريدك أن تنشر لي هذا التحقيق على صيغة رواية.

قالها (جلال) بكل برودٍ، ليجيبه المدير بحدة:

– لقد نسيت عقلك في لبنان يا (جلال).. أتستوعب ما تطلبه مني؟

– انغماسك في قراءة الرواية لثماني ساعات متواصلة.. فهذا يعني أنها نالت إعجابك.

كأن كلمات (جلال) المنطقية أثارت من لعثمة مديره في الحوار:

– لا أنكر أن أسلوبها شيق وحثتني على تتابع الأحداث حتى النهاية.. لكن هذا ليس تخصصنا.

– انظر لنفسك وأنت مشغول طوال اليوم وها قد أفرغت كل جداول مواعيدك لقراءة الرواية.. فتخيل إذا كيف سيكون صداها عند نشرها.

معركة خاسرة للمدير.. فقد قيدته تلك الرواية كالسحر، لا يعلم كيف مرت عليه كل تلك الساعات وهو يقرأها.. لا يتذكر نفسه إلا وهو يخبر السيكرتيرة أن تلغي كل مواعيدة لليلة وتطلب منها أن تحضر المزيد من القهوة.. هدف الرواية هو



جذبُ القارئ وقد استطاعت تلك الرواية الاستحواذ عليه لا الجذب فحسب.

– كما أني أحضرت لك معي تذكارًا من رحلتي.

قالها (جلال) وهو يضع صندوقًا خشبيًّا في حجم صندوق الأحذية على المكتب بعد أن أخرجه من حقيبة سفره، أنت تعلم هذا الصندوق جيداً.. لقد رأيناه معًا من قبل عشرات المرات، فنظر المدير للصندوق غير مصدق فاغرًا فاه ثم نطق بعد أن ابتلع ريقه:

– هل هذا؟!

– نعم هو.. صندوق الديبوك الأصلي.

– كيف حصلت عليه؟!

ابتسم في خبث ثم أردف:

– هذه مصادري الخاصة، لكن العثور عليه لم يكن سهلًا على الإطلاق، فقد تم دفن الصندوق على يد الأب (جرجس) والضابط (طارق) في إحدى المناطق المهجورة المجهولة بلبنان قبل أن يعود القس (جرجس) لعمله في طرد الأرواح حتى يومنا هذا.

سأله المدير بالنهاية في استنكار:



– أنت تمزح أليس كذلك؟!

– وهل يبدو عليّ المزاح.. لقد قضيت هذا الشهر في لبنان غير الشهر الذي يسبقه بالإسكندرية في تجميع أحداث القصص من أفواه أبطالها أو شهودها.. والبحث عن الصندوق وها هو يعود لمصر من جديد بعد خمسة عشر عامًا.

ظل المدير يتطلع للصندوق غير مصدق أنه الآن ينظر لصندوق ديبوك الذي تحدثت عنه مئات المواقع العالمية بشكل مختصر وقرأ تاريخه للتو.

– نقول مبروك!

قالها (جلال) مخرجًا المدير من حالة الجمود تلك ليرد قائلًا:

– مبروك عليك الرواية أيها الكاتب الصحفي.

العقل البشري بطيء الاستيعاب دائمًا لم يسأل المدير نفسه.. من أين أتى (جلال) بكل هذه المعلومات التي أغلبها على لسان أشخاص قتلوا بالفعل.. من أين أتى بكل هذه التفاصيل الحياتية المعقدة.. من أين أتى بكل هذه المعلومات عن تاريخ الصندوق قديمًا!! لن يفكر المدير بهذه الأسئلة.. فعقله منشغل بذلك الأثر القابع بين يديه.



أمر المدير (جلال) بأخذ عطلة لآخر الأسبوع وصرف له مكافأة حتى يجري اتصالاته للاتفاق مع دار نشر شهيرة للرواية.

فخرج (جلال) من المكتب وهو يبتسم بمكرٍ.. دون أن يلحظ أحدهم تحوّل عينه للون الأسود وانتشار رائحة الياسمين في المكان!





تمت بحمد اللّه



